المجلس الأعلى للثقافة

فرنان برودل

هوية فرنسا

المجلد الثاني: الناس والأشياء

★

ترجمة: بشير السباعي

المشروع القومي للترجمة

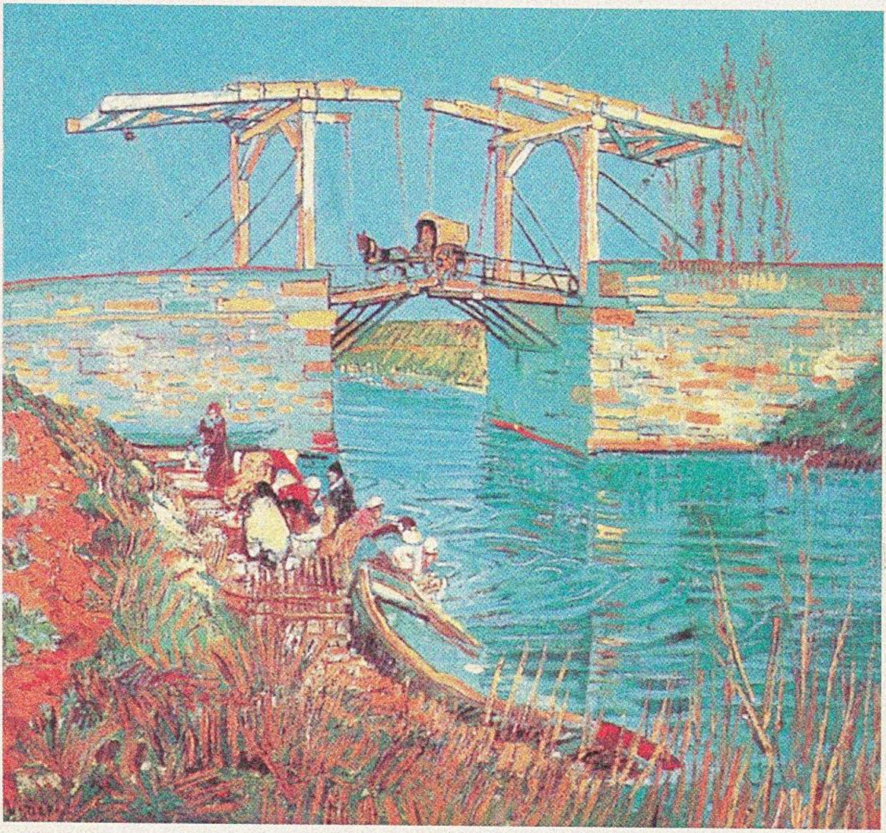

151

المشروع القومى للترجمة

هوية فرنسا

المجلد الثاني

الناس والأشياء

الجزء الأول

تاليف

فرنان برودل

ترجمة

بشير السباعي

المركز الفرنسي للثقافة والتعاون

المجلس الأعلى للثقافة

القاهرة

٢٠٠٠

هذه ترجمة لكتاب:
L'IDENTITÉ DE LA FRANCE
Les hommes et les choses
*
تأليف:
FERNAND BRAUDEL
إصدار:
FLAMMARION
Paris, 1995

لوحة الغلاف:

ف. فان جوخ، جسر لانجلو، ١٨٨٨.

تمهيد

"تكمن الصعوبة فى العثور
على الافتراضات التي لها
صلة بالواقع"(١)
چوان روبنسون

في الفصول السابقة (في المجلد الأول من هذا الكتاب)، حاولت وضع تاريخ فرنسا في سياقه المكاني ـ وهو سياق مكاني جد واسع وجد ثري في تبايناته، مما ترتب عليه وجوب أن تحيا "فرنسات" عديدة جنباً إلى جنب. وإذا كنا ندرس هذا التاريخ نفسه الآن ضمن أطره **الزمانية** الرئيسية، فسوف نكتشف هذه المرة سلسلة من الفرنسات المتعاقبة، المتشابهة وغير المتشابهة في الوقت نفسه، والتى تعرف، بشكل تناوبي، الاتساع أو الانكماش، والسعادة أو العذاب، والامتياز أو الحرمان. والحال أن هذا التعاقب للمجريات الواقعية وللتحولات، أو ما أفضل تسميته **بالدورات الشاملة**، هو ما أود رصده هنا، إذ أن بالإمكان النظر إليها بوصفها علامات كثيرة في الزمن، بل وربما بوصفها تفسيرات. ففي جزرها ومدها، أثارت هذه الدورات جماهير تاريخنا الحية، مثلما تثير الأمواجُ مياه البحر.

كنت في الأصل قد عنونت الجزء الأول من هذا المجلد بـ "**الدورات الطويلة الأجل في التاريخ الفرنسي**". ثم خشيت من احتمال أن يؤدي هذا العنوان إلى التباس، حيث إن كلمة **دورة**، كقاعدة، لا تستخدم عادة إلاً من جانب الاقتصاديين. وفى لغتهم، تحكي كل دورة حكايةً من فصلين، رحلة صاعدة ورحلة هابطة، مع ذروة في المنتصف. أولاً تجيء المرحلة الصاعدة، النمو الصاعد؛ ثم المرحلة الهابطة، الركود، بينما ترمز الذروة إلى الخط الفاصل. والصعود يبدأ من نقطة منخفضة، بينما ينتهي الهبوط عند نقطة منخفضة أخرى. وأنا أنوي بالفعل تتبع تذبذبات هذا النموذج العام، ولكن مع عمل ذلك على الأجل الطويل، وهو شيء لم يحاوله عادة الاقتصاديون أو حتى المؤرخون. ومع ذلك فإنني أعتقد مخلصاً أن التاريخ يحتاج إلى هذا المفهوم وإلى الإطار التصوري المخاطر نوعاً ما والذي ينطوي عليه.

ولنكن واضحين بشأن ما نتحدث عنه: إن هذه الدورات الطويلة، التي تغطي عدة

قرون، ليست ذات منشأ اقتصادي بشكل خالص. إنها لا تتطابق مع مادية تاريخية تفترض أن الاقتصاد هو السبب الأساسي والقوة المحركة لكل وجود بشري. فكما هي الحال دائماً، تختلط الأسباب والنتائج وتترابط في نسق تفاعلي حيث يمكن لكل شيء أن يصبح بدوره سبباً أو قوة محركة أو نتيجة. والحال أن أية فترة لانحطاط طويل الأمد وأي ارتفاع طويل الأجل في المستويات المعيشية وأي ركود اقتصادي لا يصحح نفسه في الأجل القصير إنما يعني بالضرورة اجتماع عوامل قد تشمل كل شيء: السياسة، المجتمع، التكنولوچيا، الحرب، وهلمجراً. إن المركَّب **ككل** هو الذي إمَّا أن يتوقف عن العمل بشكل ملائم ويبدأ في تدمير نفسه، أو يستعيد بدلاً من ذلك قدراته ويحفز استعادة النشاط. وبعبارة أخرى، فإن من السهل تماماً رؤية الانحطاط العام أو الإحياء العام، مع أنه قد يكون من المستحيل عملياً تحديد أسبابهما الحقيقية.

وفي الختام، فإننى واثق من أن القاريء العام سوف يكون على علم كاف بلغة الاقتصاد (ولو من صحيفته اليومية) بحيث يقبل توسيع المعنى الذي أعطيته لكلمة **الدورة**. وقد يكون المؤرخون أكثر عزوفاً عن قبول هذا التوسيع. فنحن على أية حال قد اعتدنا من الناحية المهنية على أن ننظر في الوقت الواحد إلى واحدة من "الفرنسات" المختلفة التي تعاقبت واحدة إثر الأخرى: وصفوفنا تضم متخصصين في ما قبل التاريخ أو غاليا المستقلة أو الفترة الغالية ـ الرومانية، ومتخصصين في العصر الوسيط وفي العصر الحديث وهلمجراً. وهذا صحيح ومناسب. لكن هذه الفرنسات المختلفة كلها يجب، بشكل ما، الجمع فيما بينها. فهل من الشطط زعم أن تاريخها هو بشكل ثابت تاريخ دوري؟ إن كل واحدة منها تولد وتزدهر ثم تنحط. وكل واحدة منها تعقب سابقتها، ولكن دون أي انقطاع.

وإذا كنتُ قد اخترت في هذا المجلد الثاني أن أتكلم بلغة الديموجرافيا والاقتصاد حتى يتسنى لي عرض الخطوط العريضة للماضي، فإن ذلك إنما يرجع إلى أنهما يقدمان لنا العلامات الأكثر وضوحاً، والأيسر على التقييم، لهذه الحركات العميقة. كم كان عدد الناس في الماضي؟ وكيف تسنى لهم أن يحيوا وأن يواصلوا البقاء، بينما كانت عوامل مادية ترغمهم أحياناً على التحرك إلى الأمام أو إلى الوراء من الموقع الذي كانوا قد بلغوه؟ إن السكان (أو، بتعبير آندريه پياتييه: "رأس المال البشري") يمكن أن يكونوا مؤشراً رئيسياً: إنهم، كما يقول جي بوا(٢)، "المعيار الأقل تعسفاً من بين جميع المعايير". ومن ثم فإن الفصلين الأولين (١، ٢) من هذا المجلد مكرسان للسكان

بالـدرجة الأولـى: **العدد والتقلبـات الطويلة منذ ما قبل التاريـخ إلى العام ألف. العدد والتقلبات الطويلة مـنذ العام ألف إلى أيامنا.** أمّا الفصلان الثالث والـرابع فهما مكرسان للاقتصاد تحت العنوان الذي سـوف أشرحه في الوقت المناسب: **اقتصاد فـلاحي حتى القرن العشرين ـ البنى التحتية. اقتصاد فلاحي حتى القرن العشرين ـ البنى الفوقية.**

الجزء الأول

العدد والتقلبات الطويلة

الفصل الأول
السكان
منذ ما قبل التاريخ إلى العام ألف

تذهب تقديرات غير متزنة، إن كانت على أية حال قادرة على مساعدتنا على تكوين صورة، إلى أن العدد الإجمالي للبشر الذين سبقونا على الأرض منذ أن تأكد النوع البشري، أي منذ أن أصبح الإنسان إنساناً، إنما يتراوح بين سبعين ومائة مليار. فياله من رقم خرافي! وقد كتب إليّ الفريد سوفي مازحاً: "أين يا تُرى سوف يتواجد مكان لهذه المليارات من البشر في يوم الحساب الأخير؟"(١). ووفقاً لهذه التقديرات، ربما جاز تصور أن إجمالي نحو مليار إنسان قد عاشوا في أوقات مختلفة على الأرض "الفرنسية"، حيث تنفسوا وعملوا وتركوا ميراثاً، وإن كان طفيفاً، يمكن دمجه في موروثنا الضخم. واليوم يحيا في فرنسا نحو خمسين مليوناً من الناس؛ ومن شأن الموتى أن يُضاعفوا هذا الرقم بنحو عشرين مرة. ولا يجب أن ننسى أنهم مازالوا موجودين "تحت أقدام الأحياء". إن تربة مزرعة كروم في شامپانيا أو ميدوك أو في بورجونيا، "هي تربة اصطناعية، صاغتها ألفا سنة أو نحو ذلك من سنين العمل"(٢).

ولذا فليس غريباً أن الأرض التي نطلق عليها فرنسا قد جرى حرثها على مدار آلاف السنين، أو أنها قد أصبحت تدريجياً مغطاة بالطرق وبالدروب وبالأكواخ وبالبيوت وبالقرى الصغيرة وبالقرى وبالمدن ـ "مزروعة بالفلاحين"، كما تجاسر أحدهم يوماً على القول. والحال أن مجرد عدد الناس قد أدى إلى إيجاد اختلاف منذ البداية، مؤثراً على مسار الأحداث، ومكرساً نجاحات التاريخ، بل ونجاحات ما قبل التاريخ، سواء فكرنا في أمجاد لاسكو، العصر الذهبي للأضرحة أو للأنصاب الحجرية قبل التاريخية، أو أمجاد العمارة الرومانية أو القوطية. . . كما أن حجم السكان، والذي يضاعف كل شيء، قد لعب دوره في انتشار الدين، وتقدم الدولة، والرأسمالية الجديدة للمدن ـ الدول الإيطالية منذ القرن الثاني عشر وهلمجراً. وقد عمل أحياناً في الاتجاه الآخر، خلال تلك الانهيارات أو التقهقرات التي كان مالثوس نبيها المتشائم.

لا يمكن لأحد اليوم أن يعجز عن رؤية أن حجم السكان يملك تأثيراً قوياً على مصائر العالم: في عام ١٩٨٠، عاش على الأرض أربعة مليارات وأربعمائة ألف من

البشر. ووفقاً للخبراء الذين يصعب (للأسف) أن يكونوا مخطئين تماماً، فإنه "بحلول عام ٢٠٠٠، سوف يكون هناك ستة مليارات على الأقل، وبشكل واقعي، فمن غير المرجح أن يستقر العدد عند أقل من عشرة أو أحد عشرة ملياراً"(٣) في القرن القادم.
وفي القرن السابع عشر، ساد الاعتقاد بأن القوة تكمن في الأعداد. وقد لاحظ الاقتصادي الفرنسي آنج جودار في القرن الثامن عشر "إن القاعدة الأوسع شيوعاً في السياسة إنما تتمثل في أن العدد الكبير من السكان هو وحده الذي يمكنه خلق دولة جبارة". وقد تساءل: ما هي "المصالح الحقيقية لملوكنا؟". وأجاب: "إن قوتهم تكمن في عدد رعاياهم"(٤). لكن الأرقام لها أيضاً مثالبها: فمن الذي يجرؤ اليوم على تطبيق صيغ جودار على الحاضر، حيث ندرك كلنا المشكلات التي تواجهها الهند أو الصين في حاجتهما إلى تحقيق انخفاض حاد في معدل المواليد؟

لم تكن تلك هي الحال في الماضي بلا شك. ليس لأن فيض السكان النسبي لم يمارس من حين لآخر مثالبه. وإنما لأن المجاعات والأوبئة كانت تتكفل بعلاج هذه المثالب. وفي الأزمنة الحديثة وحدها، أخذنا نشهد تزايد سكان العالم بشكل متواصل، وإن لم يكن بشكل منتظم، حيث لا يوجد، على الأقل، ركود شامل.

I
حول السكان في الأزمنة قبل التاريخية

"إن الموقف الذي يتألف من الاعتراف
بصدارة التاريخ على كل ما سبقه
هو موقف غير نزيه، ثم إنه، علاوة
على ذلك، يفتقر إلى الصرامة العلمية".
جان ماركال(٥)

لا تقولوا أبداً إن ما قبل التاريخ ليس تاريخاً. لا تقولوا أبداً إنه لم توجد غاليا قبل غاليا أو فرنسا قبل فرنسا. أو تحاولوا نفي أن سمات كثيرة لكل من غاليا وفرنسا يمكن تفسيرها بآلاف السنين التي ترجع إلى ما قبل الفتح الروماني. بل فكروا بالأحرى في "مجمل فعل الأزمنة قبل التاريخية، خلال العصر الأطول للجنس البشري" ـ كما خطر ببال نيتشه في وقت من الأوقات(٦). إن امتدادات للزمن المعيش يتعذر تخيلها، متراكمة الواحد فوق الآخر، إنما تترامى إلى زمننا الحاضر، بالرغم من أننا قد لا نكون على علم بها. فكيف إذاً يمكن نفي الصلة، الاستمرارية بين التاريخ وما قبل التاريخ؟ في وقت من الأوقات، إعتاد المؤرخون على ربط مجدهم بالقدرة على أن يستكشفوا، من كل من الجانبين، الحدود المصطنعة المقامة بين العصر القديم والعصور الوسطى(٧)، أو بين العصور الوسطى والعصر الحديث. والحال أن التحدي الكبير لزماننا لابد بالتأكيد من أن يكون هو الحد الفاصل بين ما قبل التاريخ والتاريخ.

لسوء الحظ، لا ترجع دراسة ما قبل التاريخ إلاّ إلى قرن ونصف قرن بالكاد. ففي عام ١٨٣٧، اكتشف بوشيه دو بيرت لأول مرة أدوات صوانية مطمورة في الضفاف الغرينية لنهر السوم نحتها بشر قبل تاريخيين وجرى تمييزها بهذه الصفة ـ أي ميزها بهذه الصفة مكتشفها، لأن بوشيه دو بيرت وجد صعوبة كبيرة في إقناع أي أحد آخر باستنتاجاته حتى عام ١٨٦٠ على الأقل. فالحال أن المجلدات الأولى من عمله **آثار سلتية وعتيقة**، المنشورة في عام ١٨٤٧ وأعوام تالية، قد قوبلت بالشك وبالاستهزاء عينهما اللذين قوبل بهما **أصل الأنواع** لداروين في عام ١٨٥٩. وفي العام نفسه، عام ١٨٥٩ اجتاز عالمان إنجليزيان بارزان المانش لكي يدرسا اكتشافات بوشيه دو بيرت

ومنحاه تأييدهما(٨). وكان مثل هذا التأييد خطوة ثورية، ذلك أن الاعتراف ببشرية آثار كائنات عاشت في ذات الوقت الذي عاشت فيه أنواع حيوانية منقرضة الآن، كان يعني بالضرورة إعادة وضع أصول البشرية في ماضٍ أبعد وكان هذا يعني بدوره الإطاحة بافتراضات سادت لزمن طويل، مما يشكل ثورة في الفكر يصعب علينا اليوم تخيلها. فقبل ذلك، كان العلماء أنفسهم يقبلون التفسيرات التقليدية للتوراة، والتي تذهب إلى أن الإنسان لم يُخلق إلاَّ منذ أربع آلاف سنة قبل ميلاد يسوع المسيح. والحال أن اسحق نيوتن، الذي كان مهتماً بأشياء أخرى إلى جانب الرياضيات وعلم الفلك، كان قد عَرَّضَ لوابل من السخرية التواريخ التي سجلها الكتاب المصريون القدماء الذين قال إن الغرور قد وصل بهم إلى حد الزعم بأن مملكتهم القديمة "أقدم بعدة آلاف من السنين من العالم"(٩) (قياساً إلى حساب التفسيرات التوراتية التقليدية لزمن العالم بالطبع. - المترجم).

وهكذا ففي غضون عقود قليلة، بفضل عمل بوشيه دو بيرت وبالأخص بفضل عمل معاصره تشارلز داروين، وقد أُعتبرا كلاهما في حياتهما نصابين بشكل أو بآخر، جرى توسيع مدى التاريخ البشري توسيعاً يجاوز الخيال يمتد إلى أزمنة سحيقة في الماضي، أكان فيما يتعلق بأصول البشرية أو بالأشكال الأولى للزراعة وللقرى الأولى وللمدن الأولى. وبطبيعة الحال، فقد اتسع، إلى جانب سواه، موضوعنا الراهن، أي تاريخ فرنسا.

وكما هي الحال دائماً، وبشكل منطقي تماماً، لأن الأمر يتعلق بانتقال من مجال ثقافي إلى آخر، فإن هذه المنظورات عن ما قبل تاريخ جديد تماماً لم تؤرق المؤرخين آنذاك على الفور: فبالنسبة لهم، ظلت المنظورات الجديدة مسألة قليلة الأهمية أو عديمة الأهمية تماماً، وغائبة في ضباب الزمن. وفي أفضل الأحوال، جرى التعامل معها على سبيل التمهيد، حيث يشار إليها في حاشية تلميحية أو في قليل من الصفحات التمهيدية، قبل الدخول في السرود التاريخية العادية من جديد، وكأن شيئاً لم يحدث.

إلاَّ أنه بما أن ما قبل التاريخ قد بدأ في طرح المزيد والمزيد من الشواهد والتقديرات والافتراضات، فقد أخذ في الواقع يحفر حفرة لا قاع لها، تسبق زمنياً قرون التاريخ المسجل. ولتأخذوا بعين الاعتبار أن التاريخ كما نحسبه عادة لا يمثل غير أقل من واحد على ألف من الزمن الإجمالي للتطور البشري. وحتى لكي يصبح ذلك التطور قابلاً للتخيل، كان لابد من الجمع بين مختلف العلوم التي تسنى لدارسي ما قبل

التاريخ الاستفادة منها: الپالينولوچيا (دراسة الرواسب اللقاحية القديمة) والپانيونتولوچيا والتشريح المقارن والهيماتولوچيا الاسترجاعية والچيولوچيا وعلم الحيوان وعلم النبات وأيضاً، مؤخراً جداً، دراسة الشعوب البدائية الحالية، وأخيراً الايثولوچيا (علم سلوك الحيوان)، لأن الجنس البشري، الغارق في الطبيعة، والمتروك لقواه المحدودة، كان، على مدار المليارات من السنين، نوعاً حيوانياً بين الأنواع الأخرى، غير قادر على البقاء مثلها إلاَّ بفضل روابطه الاجتماعية، المشابهة لروابط المجتمعات الحيوانية.

وكل هذه الاسهامات العلمية لا تسهل مهمتنا: إذ لابد على أية حال من إعادة تفسيرها. وكما أشار كولن رنفرو، فليس بوسعنا أن نتوقع من العلوم المتصلة تقديم "إجابة جاهزة" عن تساؤلاتنا(١٠). ثم إن التطور الأحدث للمناهج الجديدة لتحديد التواريخ (عن طريق الكربون ١٤، أو الپوتاسيوم ـ أرجون، أو الدندروكرونولوچيا، دراسة طبقات خشب الأشجار الحولية التي يمكن بها تقدير عمر الأشجار، أو مناهج أخرى أكثر حذقاً بكثير) قد أدى إلى إعادة تقدير عميقة ومحيرة للأطر الزمانية ولأنماط التأثير الثقافي التي حددها جيلان أو ثلاثة أجيال سابقة من مشتغلين بارزين في حقل ما قبل التاريخ. والحال أن ما قبل تاريخ أوروبا بوجه خاص قد تعينت إعادة تفسيره منذ البداية(١١).

وكل هذه الظروف تجعل ما قبل التاريخ علماً مثيراً وفاتناً وإن كان ساحةً ماكرة أيضاً: إنه لا يسمح لنا بالاقتراب من الحقيقة إلاَّ عبر تتابعات أليمة للأخطاء وللتصويبات وللافتراضات المؤقتة. إنه علم خاضع لمراجعة متصلة ولتجديد متواصل.

وفرة زمانية

فيما يتعلق بالمسألة الأساسية بالفعل، مسألة أصول الجنس البشري، لا يمكن قول شيء بيقين. فالاكتشافات التي تتم في قارة بعد أخرى إنما تؤدي بشكل متواصل إلى تعديل الصورة الإجمالية التي تسهم كلها في رسمها.

وفي الحالة الحاضرة لمعارفنا، فإن السعي إلى تتبع آثار الشجرة البشرية بالعودة إلى فروعها الأولية وشبه البشرية عبر نوع بشر إفريقيا الشرقية الاستراليين (وتبعاً للتعريف الذي قد نقبله في تلك الأثناء لأشباه البشر الأوائل)(١٢)، إنما يمضي بنا إلى خمسة أو خمسة عشر أو حتى أربعين مليوناً من السنين قبل يسوع المسيح. وكما لاحظ جابرييل كامبس مستسلماً، فمع كل اكتشاف جديد "تتقهقر أصولنا

أبعد فأبعد في الماضي"(١٣).

بيد أننا لو قصرنا تساؤلاتنا على الـ **Homo** (الإنسان) بشكل محدد، فإن التفكير الحالي يُرجع ظهور الجنس البشري إلى اللحظة التي انتصب فيها النوع ـ أي إلى مليوني سنة خلت، أو ربما إلى وقت أسبق قليلاً. والحال أن هذا الكائن المنتصب الأول (**Homo habilis**)، لم يكن أول مخلوق يشكل الصخور لكي يستخدمها كأدوات. ذلك أن بعضاً من نوع البشر الاستراليين كانوا قد فعلوا ذلك بالفعل. لكن الانتصاب حرر يدي هذا الكائن، واعتباراً من تلك اللحظة أيضاً أخذت سعة دماغه تتزايد بثبات، من ستمائة سنتيمتر مكعب في البداية إلى سبعمائة سنتيمتر مكعب(١٤). واجتماع هذا الدماغ عالي التطور، جهاز القيادة، مع اليد التي تخدمه، "هو الذي مكن الإنسان من تطوير قدراته العجيبة مختلفة الأنواع" ـ الضمير، الذاكرة، اللغة(١٥). وبعد الـ **Homo habilis**، الذي يبدو أنه ظهر لأول مرة في إفريقيا، جاء الـ **Homo erectus**، الذي سكن المناطق المعتدلة ثم جاء الـ **Homo sapiens**، وأخيراً جاء الـ **Homo sapiens sapiens** ـ حيث يشكل هذا الأخير آخر مراحل التطور ـ أنت وأنا.

وبقدر علمنا، فإن الـ **Homo erectus** ربما يكون قد وجد على الأرض "الفرنسية" نحو عام ١,٨٠٠,٠٠٠ قبل المسيح. ففي شيلاك، في اللوار الأعلى، في المسيف الأوسط، اكتشفت مؤخراً بعض "الكوارتزات التي لا شك في أنها قد شكلتها (يد بشرية) مع بقايا حيوانات من العصر الرابع القديم (Villafranchien)"(١٦). ويعتقد أن هذه هي أقدم آثار بشرية يتم العثور عليها حتى الآن في أوروبا. لكن الآثار المكتشفة في سوليلاك في الإقليم نفسه، والتي ترجع إلى نحو مليون سنة خلت، إنما تنقلنا إلى أرضية أكثر رسوخاً من الناحية الزمانية(١٧). ونجد علامة أخرى في المخلفات، التي ترجع إلى نحو ٩٥٠,٠٠٠ سنة، والتي اكتشفت خلال التنقيب الذي تم بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦٣في الكهف المعروف بالترو دي رينارد (وكر الثعالب)، بجوار الفالونيه، وهو نهر صغير في كومون روكبرين (آلب ـ ماريتيم). فهنا، تم العثور على بقايا حيوانات قديمة مختلفة ـ قرود الماكاك، **Elephas meridionalis**، جياد وقطط ـ إلى جانب عظام وصخور منحوتة نحتاً فجاً. ولم تكن هناك آثار بشرية، للأسف (فالصخور تبقى زمناً أطول من الهياكل الأحفورية) إلاّ أنه كان من الواضح أن الكهف قد عاش فيه بشر. وحتى الآن، فإن هذا الموقع هو أقدم موقع معروف سكنه الإنسان في أوروبا(١٨).

وعندما يتذكر المرء أن ما قبل التاريخ، على الأرض الفرنسية، يغطي الفترة الممتدة حتى العصر الحديدي المتأخر، نحو عام ٥٠٠ قبل ميلاد يسوع المسيح، فإنه يدرك أية فترة زمنية خيالية نتعامل معها: نحو مليوني سنة أو ألفي ألف سنة أو عشرين ألف قرن! ولكي نهتدي إلى طريقنا في هذه الامتدادات الزمنية الشاسعة والتي تتحدى الفهم والتخيل، يجب أن نعتمد أولاً على عون الچيولوچيين. لقد قاسوا العصور المتعاقبة التي عرفتها الأرض وخصصوا للتطور التاريخي للجنس البشري ـ للتأنسن ـ مجمل العصر الرابع (أو **البلستوسيني**)، مضيفين إليه المرحلة الفيلافرانشية (التي تنتمي إلى أواخر العصر الثالث) وخاصمين منها أواخر العصر الرابع، أي الفترة التي نحيا فيها الآن (والمسماة **بالهولوسين**).

وضمن هذا المدى الزمني الشاسع، يميز علم الچيولوچيا أربعة عصور جليدية طويلة، أطلق عليها البرشت بينك أسماء مجار مائية في الألب البافارية حيث رصد دلائل على تجلدات كبرى، قديمة جداً، وهي تعرف، بحسب ترتيبها الزمني بالجونز والمندل والرس والفورم. ويبدأ تجلد الجونز قبل نحو مليوني عام قبل ميلاد يسوع المسيح، في حين أن الفورم ينتهي في عام ١٠,٠٠٠ قبل ميلاد يسوع المسيح. وبين هذين الحدثين الجليديين، اللذين جاء كل منهما بشكل جد تدريجي، كانت هناك بالطبع فسحات زمنية بين العصور الجليدية ارتفعت فيها درجة الحرارة وكانت هذه الفسحات هي أيضاً طويلة جداً وغير منتظمة. ومن هنا الفترات الفرعية (رس ١ و٢ و٣؛فورم ١ و٢ و٣ و٤ و٥) والتي تتطابق مع سلاسل من التغيرات البطيئة في المناخ والتي كانت آنذاك شبه عصية على أن تكون ملحوظة، وإن كانت قد مثلت على نحو تراكمي انقلابات ضخمة(١٩). وقد انتقل البشر والحيوانات والنباتات شمالاً أو جنوباً تبعاً لما إذا كان السائد هو الدفء أم البرد: فالأنواع المعتادة على مناخ معتدل قد انتقلت إلى الجنوب فراراً من البرد، في حين أن الصيادين المعتادين على العيش على قطعان الرنة أو الخيول البرية قد تحركوا إلى الشمال مطاردين لها خلال الفترات الأكثر دفئاً. وكانت البيئة كلها تتحول في كل مرة.

ولكي نكوّن فكرة عما كان يعنيه ذلك (وبما أن ما حدث مرة في الماضي البعيد يمكن من الناحية النظرية أن يتكرر في المستقبل الأبعد) تخيلوا ما قد يكون عليه عصر جليدي جديد ، بعد عدة آلاف أو مليون سنة من الآن ، علي فرض أن القارات سوف تبقي في مواقعها النسبية الحالية (٢٠) . في أوروبا ، سوف تغطي طبقة كثيفة من الجليد

كل شبه الجزيرة الإسكندنافية وهولنده وألمانيا وبولندا وروسيا الشمالية والجزر البريطانية حتى لندن في اتجاه الجنوب. وسوف تنجو فرنسا من المَجْلَدات الضخمة، كما فعلت في الماضي، باستثناء المناطق الجبلية، الألب خاصة. لكن الحوض الباريسي، بما في ذلك باريس نفسها، ومعظم فرنسا، سوف يُغَطّيان مرة أخرى بتوندرا من النوع السيبيري أو بالسهوب أو بالغابات. وسوف يكون هناك غزو جليدي، وغزو لحياة نباتية ولأشجار جديدة، مع ما يترتب على ذلك من نتائج لا نهائية بالنسبة للناس وللحيوانات وللعالم الطبيعي برمته. وإذ يتجمد الماء في أنهار جليدية ضخمة، فإنه سوف يتراجع إلى مستوى البحر، الأمر الذي سوف يكشف من جديد عن امتدادات عظيمة لأعماق بحرية، بما يؤدي إلى ربط جزر كثيرة، من بينها بريطانيا العظمى، بالقارة. وفي مقدمة أنهار الجليد، سوف تؤدي الركامات المجروفة إلى حشد كتل ضخمة من الأنقاض الناتجة عن النحر الجليدي، في حين أن المادة السطحية الأرقّ سوف تجرفها الرياح بما يؤدي إلى تكوين مهاد من الرواسب، مثلما حدث في الماضي في الصين وعبر أوروبا. ومن المعروف أن رواسب حوض الدانوب أو سهل الألب وغرين الهضاب المحيطة بباريس هي من منشأ كهذا بالتحديد، والحال أن هذه التربات الخفيفة، سهلة الحراثة، كانت المواقع المختارة لزراعة الأرض في كل من فرنسا وبقية أوروبا.

وحتى يتسنى تحديد تاريخ أي موقع قبل تاريخي، فإن الشيء الأول الذي يتعين تحديده، من ثم، هو العصر الجليدي أو الفترة الواقعة بين عصرين جليديين والتي يتناولها المرء، وذلك عن طريق تحديد الآثار الحيوانية والنباتية أو نوع الغذاء الذي تشير إليه محتويات الروابي التي كانت سكناً للإنسان الأول. والحال أن سكان الكهف على نهر الفالونيه والذي سبق أن أشرنا إليه، وهو أول موقع أوروبي معروف لنا، قد عاشوا قبل نحو مليون عام، خلال الفترة المعروفة بالفيلافرانشية، عندما كان جنوب البحر المتوسط عرضة لزوابع عصر الجونز الجليدي. وقد عُثر هناك على صخور حطمها الصقيع إلى جانب أحجار صوانية مشذبة وبقايا حيوانات مناخ بارد(٢١).

وقبل ميلاد يسوع المسيح بنحو عشرة آلاف عام، عندما انتهى العصر الجليدي الأخير (الفورم) وساد مناخ معتدل ـ مشابه إلى حد بعيد لمناخ اليوم ـ عادت الرنة إلى الشمال؛ أما حيوانات الماموث، العاجزة عن التكيف، فقد أخذت في الانقراض. وقد عثرت بعثات استكشافية علمية منذ وقت قريب جداً على بعض هذه الحيوانات الماستودونية، متجمدة سليمة تماماً في جليد سيبيريا السرمدي. لكنها كانت قد ظهرت

منذ زمن طويل في أساطير قبائل سيبيريا الشمالية. والحال أن الياكوت والتونجوز، الذين عثروا عليها أحياناً متجمدة وهي واقفة، كما لو كانت قد ماتت لتوها (والذين كانت كلابهم تلتهمها على الفور) قد تخيلوا أنها خُلدات ضخمة، تحيا تحت الأرض، أو أنها مخلوقات مائية تموت فور خروجها إلى الهواء والضوء(٢٢).

كما أن المناخ المعتدل كان متغيراً ـ ولذا فقد تتالت سلسلة من المناخات السائدة المختلفة: قبل شمالي، شمالي، أطلسي، شبه شمالي وشبه أطلسي(٢٣). وقد مال كل مناخ إلى أن يكون ملائماً لهذا النوع أو ذاك من النباتات أو الحيوانات؛ الماشية، الخيول، أشجار الدردار، أشجار البلوط، أشجار الزان، أشجار الكستناء أو أشجار البندق ـ وكانت لهذا بدوره نتائج تلقائية بالنسبة لعادات ولغذاء الناس.

الأجسام والأدوات

على مدار آلاف كثيرة من الأعوام، هامت البشرية على وجهها بين الحيوانات المفترسة، عبر التوندرا المتجمدة أو عبر الغابات التي كانت تصبح مشبعة بالمياه كلما أصبحت الأرض أكثر دفئاً من جديد. على أن علامات على سير البشرية ما تزال باقية: أجزاء من العظام أو هياكل عظمية كاملة، آثار المواقد والسكن والمخيمات، وخاصة الأدوات التي لا حصر لها والتي لابد أنه كانت هناك ملايين منها، وإن كان الكثير منها قد أصبح الآن مكسوراً، وضاع في أعمال الحفر أو عمليات صرف المياه أو سرقه من المتاحف هواة جمع العاديات قبل التاريخية.

والحال أن الأجسام، أو ما بقي منها، تشكل الجانب الرئيسي من الدلائل. لكن أقدم الهياكل العظمية قد اختفت، وتحللت بفعل تأثير التربة الحامضة. وفي فرنسا، ترجع أقدم الأدوات المعروفة إلى ما يزيد عن مليون سنة قبل الأحفورات البشرية الأولى المكتشفة حتى الآن ـ وهي عبارة عن فك بشري عثر عليه في عام ١٩٤٩ في كهف قرب مونموران (البرانس ـ الشرقية). والحال أن هذا الفك الذي يكاد يشبه فك موير الشهير (٦٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد) إنما يرجع إلى تاريخ غير مؤكد وإن كان من المؤكد أنه أحدث (ربما ٤٥٠٠٠٠ أو ٤٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد)(٢٤) ومن المرجح أنه يسبق بنحو مائة ألف سنة أو مائة وخمسين ألف سنة إنسان توتافل (قرية بالبرانس ـ الشرقية)، والذي أدى اكتشافه إلى إثارة صخب عظيم في مناسبتين: أولاً في عام ١٩٧١، عندما عُثر على الجدار الأيسر لجمجمة تخص شاباً عمره نحو عشرين سنة:

الشكل ١

توزيع الماموث بين عامي ١٥,٠٠٠ و١٠,٠٠٠ قبل الميلاد

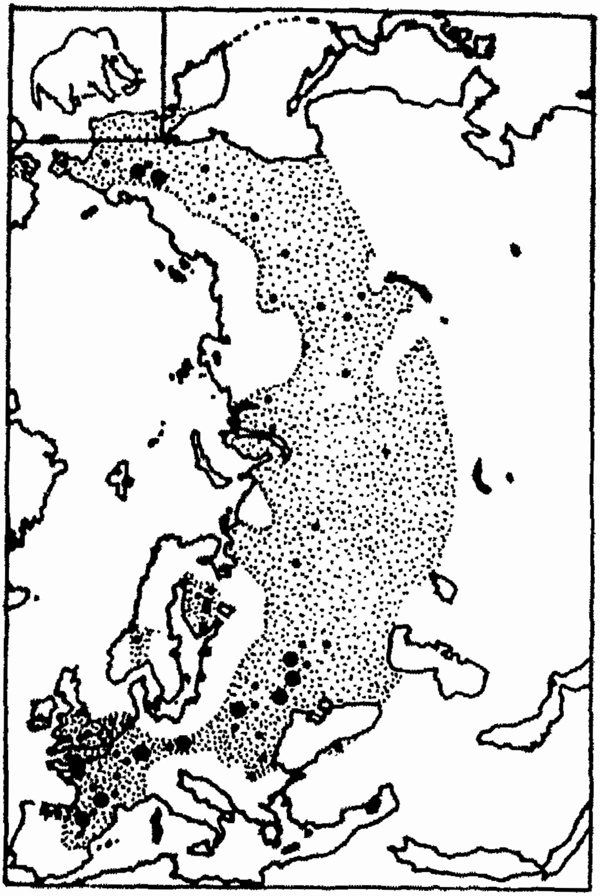

خلال هذه الفترة، عندما كان الجليد يغطي معظم أوروبا وآسـيا، كانت هناك منطقة شاسعة للسهوب وللتوندرا، تمتد من إسبانيا الشمالية إلى سيبيريا، كان يتحـرك فيها البشر والحيوانات غير المستأنسة (خاصة الماموث والرنة). وكانت فرنسا كلها تقريباً موجودة ضمن هذه المنطقة المميزة.

نقلاً عن:

L.-R. Nougier, *Naissanee de la civilisation*, 1986.

ثم في عام١٩٧٩، عندما عُثر على بُعد نحو ثلاثة أمتار على الجدار الأيمن للجمجمة نفسها، الأمر الذي سمح بإعادة تشكيل مجمل جمجمة **إنسان منتصب** تصل طاقة جمجمته إلى نحو ١١٠٠ سنتيمتر مكعب؛ وعلاوة على ذلك، فإن السطح الداخلي لعظم الجبهة كان يتضمن تلافيف دماغية متطورة بدرجة تطور التلافيف الدماغية للبشر الحاليين. ومن هنا الاستنتاج المثير الذي يذهب إلى أن هذا الكائن قبل التاريخي كان بوسعه الكلام، بصرف النظر عن ماهية اللغة التي كان يتكلمها(٢٥).

ومن الناحية الأخرى، فقد كان يأكل اللحم الذي يصطاده. وفي كهف لاكون دو لاراجو، حيث عُثر على هذه البقايا، قبالة الوادي الضيق لنهر الفيردوبل (وهو أحد روافد نهر آجلي)، لم يُعثر على آثار للمواقد(٢٦)، مع أن استخدام النار يرجع إلى نحو خمسمائة ألف سنة خلت وقد عُثر على مواقد كثيرة في أكواخ تيراً آماتا، قرب نيس (نحو عام ٤٠٠٠٠٠ قبل الميلاد)(٢٧). والحال أن وادي الفيردوبل، المحصور بين وجهي جرفين صخريين شاهقين، قد أتاح ملاذاً طبيعياً، لا شك في أنه كان يتميز بقيمة خاصة بالنسبة لإنسان توتافل، الذي عاش في زمن العصر الجليدي المندلي؛ ولابد أيضاً أنه كان مؤاتياً للحيوانات الكثيرة التي يمكن التعرف عليها من العظام التي راكمتها على مستويات مختلفة داخل الكهف أجيال من الصيادين: خيول وأفيال وثيران برية وموفلونات وثيران يستخرج منها المسك وأيائل ورنة وأسود.عرين وثعالب أركتكية ودببة وسنانير وفهود وأرانب وحشية. وتختلط بالعظام الحيوانية بقايا بشرية جرى سحقها بهدف استخلاص نخاع العظام أو المخ ـ بما يشكل على ما يظهر دليلاً على أكل لحوم البشر(٢٨)، والذي نعثر عليه أيضاً في مواقع قبل تاريخية أخرى، حتى في الألف السادسة قبل يسوع المسيح. وهذا الأكل للحوم البشر يبدو أحياناً أنه كانت له أهمية طقسية، ويتجلى ذلك بأوضح ما يكون عندما يُعثر عليه مقترناً بالدفن(٢٩).

وقبل حوالي مائة ألف سنة، أخلى الإنسان المنتصب مكانه لـ **Homo sapiens**، أي لما يسمى بإنسان نياندرتال(٣٠). ومما لا شك فيه أن النياندرتال قد سكنوا مجمل الشرق الأوسط وأوروبا، بما في ذلك فرنسا. أمّا وجودهم خارج هذه الساحة الشاسعة فما يزال موضوع خلاف وجدل على الأقل فيما يتصل بشكلهم الأوروبي، والذي يتميز بخصائص واضحة ويمكن التعرف عليه بسهولة. وقد جرى الآن رد الاعتبار إلى إنسان نياندرتال، الذي كان يُنظر إليه لزمن طويل على أنه نوع غليظ البنية ووحشي فظ: فهذا الإنسان الذي يتميز بدماغ "كبير" أكبر حتى من دماغ الإنسان الحالي (١٦٠٠ سنتيمتر

الشكل ٢

التعقد المتزايد للأدوات

١٥٠٠٠ - ١٠٠٠٠ قبل الميلاد

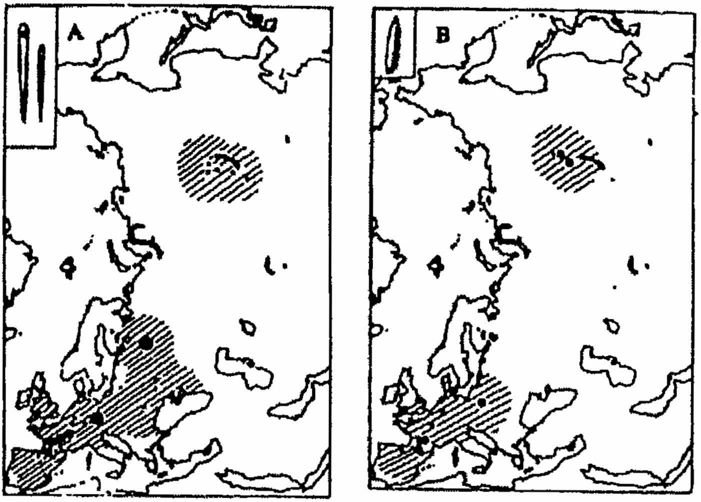

A. آثار إبر ذات ثقوب (قبل ٢٠٠٠٠ سنة من ميلاد يسوع المسيح).

B. آثار أدوات مركبة، تتألف من شفرات أو مستدقات أطراف مصنوعة من حجر الصوان أو من العظام، وكان يجري تعشيقها في فتحات قابض من الخشب أو من العظام.

نقلاً عن:

L.-R. Nougier, *op, cit.*

مكعب بالمقارنة مع ١٤٠٠)، كان ماهراً في التعامل مع الأدوات، وكان يتميز بقدرات لغوية واضحة(٣١). ويتمثل أحد التفاصيل الحاسمة في أن إنسان نياندرتال كان أول نوع بشري يدفن موتاه. وهو يمثل، في هذا الصدد، "إنساناً كامل التطور"، "إنساناً كاملاً"، بحسب تعبير بييرشوني. والنماذج الكثيرة المكتشفة (نحو مائة في فرنسا وحدها) تقدم سمات واحدة عبر كل أرجاء أوروبا، أكان من حيث أسلوب الحياة والأدوات الصخرية أم من حيث النواحي التشريحية المحددة. والحال أن ما نحن بإزائه هنا هو نوع يتميز بخصائص محددة بوضوح ظلت هي هي نفسها من حيث الجوهر على مدار مجرد ستين ألف سنة أو ستمائة قرن!

ثم فجأة، ولغير ما سبب يمكن البرهنة عليه، اختفى هذا النوع، على مدار فترة قوامها خمس آلاف سنة (وهي فترة قصيرة بمعايير زمن التطور)، مخلياً السبيل أمام الـ **Homo sapiens sapiens**، وهو نوع مختلف بالكامل من الناحية التشريحية، ويعد مطابقاً بالفعل للإنسان الحالي. فكيف حدث هذا التحول؟ إن الباحثين في مجال ما قبل التاريخ لا يملكون حلاً جاهزاً يمكنهم اقتراحه، أكان من زاوية المناخ أو أي شيء آخر، خاصة وأنه لم يُعثر على أية بقايا بشرية مهمة ترجع إلى زمن الفترة الانتقالية الحاسمة. ويمكن استبعاد تطور عام للنوع البشري برمته: فمثل هؤلاء السكان الوفيرين والمستقرين، الذين يتمتعون بتبادل جيني حر، ما كان بإمكانهم أن يتطوروا إلاَّ ببطء بالغ. وهكذا فمن الناحية النظرية إذاً، كان النياندرتال مواجهين ـ على نحو سلمي أو غير سلمي ـ بجماعة سكانية جديدة، جماعة كانت الظروف في صالحها إلى حد بعيد (وإن كنا لا نعرف لماذا أو كيف) بحيث إنها أزالت السكان الأصليين في مدى زمني قصير تماماً. ومن هنا الافتراض، الذي ما يزال تخمينياً بالكامل، والذي يذهب إلى أنه كان هناك نوع ما من "غزو" أجنبي، وإن كان لا أحد يعرف من أين جاء القادمون الجدد، حيث إن هؤلاء البشر "الحديثون" كانوا، قبل ظهورهم في أوروبا، موجودين بالفعل في أماكن مختلفة من الأرض، من استراليا إلى العراق، ومن الصحراء إلى النرويج. ومن المحتمل أنهم وصلوا إلى أوروبا من فلسطين حيث كانوا موجودين في هذه الأخيرة بالفعل قبل ميلاد يسوع المسيح بنحو خمسين ألف سنة، إلى جانب النياندرتال الحقيقيين، الذين لم يتلاشوا في ذلك الإقليم إلاَّ بعد ذلك بوقت طويل(٣٢).

وقبل نحو خمس وثلاثين ألف سنة على أية حال، كان الـ **Homo sapiens sapiens** موجوداً في كل مكان تقريباً على الأرض، ومن المؤكد أنه كان قد احتل كل

الشكل ٣

التوزيع الجغرافي لآثار إنسان نياندرتال

(٧٥٠٠٠-٣٥٠٠٠ قبل الميلاد)

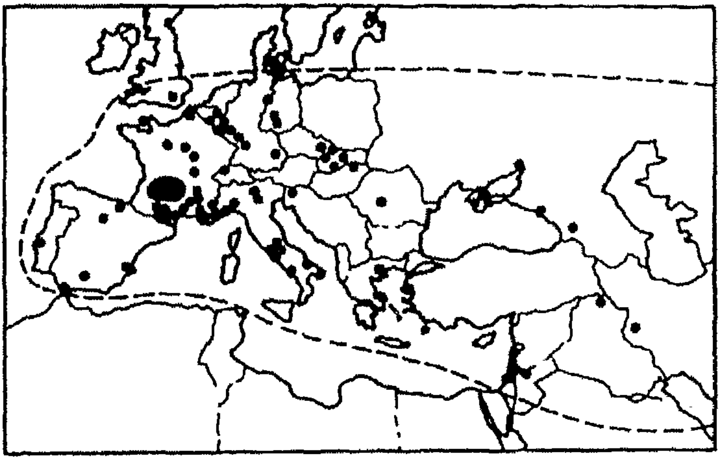

أكبر تركز لهذه الآثار يوجد في فرنسا، في غربي المسيف الأوسط (الدائرة السوداء).

الأرض التي تتألف منها فرنسا الآن. وكان هذا الإنسان بالفعل الإنسان "الحديث"، المتميز بخصائص تشريحية يمكن لطب اليوم التعرف عليها، وإن كان باختلافات إقليمية تستشرف البنيات الجسمانية المختلفة في فرنسا الآن: متوسطية، ألپية، نوردية(٣٣). ومن المرجح أن الشواغل الدينية الواضحة للقادمين الجدد تشير إلى تكوين نفسي ليس مختلفاً عن تكويننا النفسي. ومع هذا النوع البشري يظهر، كما لو كان عن طريق معجزة ما، حس بالفن وبالشكل. ومنذ أواخر العصر الحجري القديم (العصر الپاليوليتي الأعلى) تظهر للمرة الأولى التماثيل الصغيرة غير العادية والتي تمثل على ما يبدو ربات الخصوبة، كما تظهر بالأخص ثروة الرسوم والمنحوتات والنقوش التي تزين جدران الكهوف، وكذلك الكثير من أشياء الحياة اليومية، المصنوعة من الحجارة والعظام والعاج أو من قرون الأيائل والرنة. والواقع أن رسوم الكهوف الرائعة، التي لم تكتشف إلاَّ في وقت متأخر نسبياً، إنما تعد محيرة بقدر ما تعد جميلة.

والحال أن هذا الفن متعدد الوجوه قد تطور ببطء، من الرسوم الفجة إلى واقعية لاسكو غير العادية، قبل أن ينحدر في نهاية المطاف إلى علامات هندسية، لا شك في أن لها دلالة رمزية(٣٤). لكن هذا التطور قد امتد على مدار مائتي قرن (بين نحو ثلاثين ألف سنة وعشرة آلاف سنة قبل الميلاد) بما يشكل أبدية في نظر المؤرخ الحديث. ولنتصور إلى أي مدى هو قصير، قياساً إلى ذلك، عصر الفن الروماني أو الفن القوطي، ناهيك عن مدارس كالانطباعية أو التكعيبية، التي لم تكن غير عمل ما لا يزيد عن جيل واحد.

ومن هذا الفن المبكر، تحوز فرنسا وإسبانيا الشمالية حصة الأسد. وفي وادي الفيزير الأدنى في البيريجور، حيث يشكل النهر تعرجات عميقة، يشير پيير جاكسوت إلى "مواقع قديمة تعد وفيرة حول وفوق ليز ايزي: كرو مانيون، لاموت، لي كومباريل، فون دو جوم، لو كاب بلان، لوسيل، لا لوچيري، لي مارسّي، لا مادلين، لو موستييه ولاسكو" ـ وهي كثرة من "الأماكن المقدسة للبشرية، لها عين المكانة التي لمصر ولنينوى ولأثينا ولروما"(٣٥).

وقد ثار جدل كثير حول أهمية هذا الانفجار الفني الأول؛ فلا أحد يرغب في النظر إليه على أنه فن مجاني، على أنه فن للفن. فهل يسعى الصيادون الشرهون الذين رسموا ونقشوا على جدران كهوفهم قطعان الحيوانات البرية التي عاشوا بينها وعليها ـ حيوانات الماموث والثيران البرية والبيسون والخيول والوعول والدببة ـ إلى إلقاء تعاويذ

الشكل ٤

فن جدران الكهوف الذي يصور الحيوانات، ١٥٠٠٠-١٠٠٠٠ قبل الميلاد

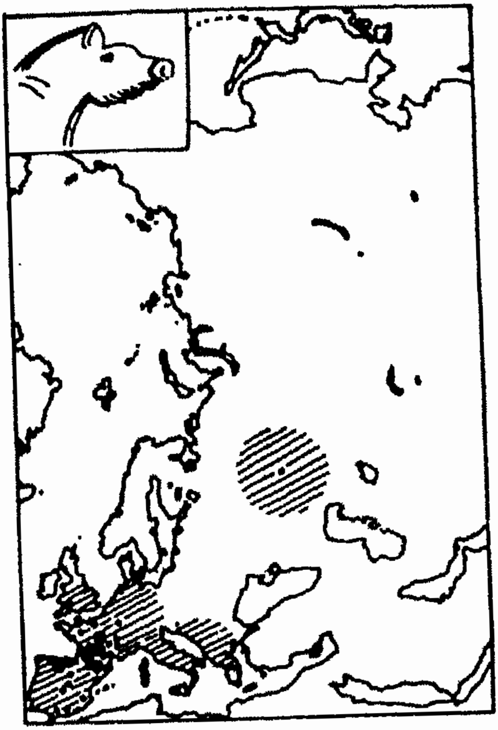

موجود بالدرجة الأولى في فرنسا وفي شمال إسبانيا.

نقلاً عن:

L.-R. Nougier, *op, cit.*

سحرية على طرائدهم؟ وهل الرجال المُقَنَّعون، الواثبون مرحاً قبالة الحيوانات في كهف التروا ـ فرير في الماس دازيل وفي أماكن أخرى، شامانات أو آلهة أو مشاركون في طقوس لا نفهمها؟ وما هو المعنى الرمزي لهذه "الكتابة" التي نجدها مثيرة وغامضة إلى هذا الحد؟ إن القوة التي يجري التعبير بها عنها إنما تستثير ما هو أكثر من الإعجاب. بل إن فرانك بوردييه قد زعم أنها دليل على التفوق الثقافي لهذه الوديان الفرنسية والإسبانية الجنوبية الغربية على بقية العالم. وهو تفوق فقدته أوروبا بعد ذلك ولن تستعيده، لتحتفظ به من جديد على مدار قرون، إلاَّ في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بعد المسيح.

ومن الناحية المادية، عاش الـ **Homo sapiens sapiens** بشكل سهل، بل وبشكل مريح إلى حد ما، خلال الألف الأخيرة من العصر الجليدي الفورمي، والذي يُعرف أحياناً بعصر الرنة. فقطعان الرنة، التي كان من السهل صيدها، قد قدمت اللحم والجلود والعظام والقرون ـ أي الغذاء والكساء وأسقف الخيام والمواد الخام اللازمة لكثير من الأدوات الصغيرة. بل إنه خلال الفترة المعروفة بالفترة المجدلينية، منذ نحو ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، كان هناك بالتأكيد قدر من التوسع الديموجرافي، حيث انتشر الاستيطان وامتد إلى الجبال وإلى أوروبا الشمالية(٣٦). كما أن التحسن العام في صناعة الأدوات كان علامة على كل من الرفاهية والتقدم التقني. وكان تشكيل الحجارة قد وصل إلى مستويات ملحوظة من الكمال.

ومع أننا نجد تباينات للتقنية من مكان إلى آخر، ودلائل على انقطاعات واستمراريات، إلاَّ أن الاتجاه العام في كل مكان كان نحو الإبداع الابتكاري. وكان النياندرتال قد حسنوا الفأس ذات الوجهين وكاشط الجلود والمثقاب. وعندئذ تأخذ في الظهور سلاسل من الأدوات الصغيرة جداً، ذات المقابض أحياناً، وكلها متخصصة، وبعضها ما يزال يُصنع من الحجر، وبعضها الآخر يستخدم تقنيات جديدة لتشكيل العظام. وهكذا نجد أنواعاً محسنة من الكاشطات الصوانية، الناعمة والمشرشرة، وأدوات النقش والسكاكين الحجرية ومستدقات الأطراف والأبر ذوات الثقوب والحدائد المعقوفة المخصصة لصيد الأسماك ورماح صيد الحيتان ذات الأشواك المنحوتة بعناية. بل إن الثقافة السوليوترية الغربية(٣٧)، التي لم تدم غير ثلاثة آلاف سنة فقط ولم تخلف تلامذة لها، قد تركت خلفها شفرات حجرية رقيقة رائعة ذات وجهين، يقل سمكها عن سنتيمتر واحد ويصل طولها أحياناً إلى ٣٠ أو ٣٥ سنتيمتراً. وقد جرى تحسين تقنيات

صيد الحيوانات والأسماك (أسماك السلمون بوجه خاص). وكانت الرماح والسهام التي تُطلق في الهواء تسمح بالفعل بإتاحة إمكانية القتل عن بُعد. لكن السلاح الثوري بالفعل ـ القوس ـ لم يظهر إلاّ بشكل متأخر جداً، في الساعات الأخيرة من العصر الپاليوليتي، قبل أن يتغير كل شيء، نحو عام ١٠٠٠٠ قبل الميلاد، مع الفترة الدافئة التي أعقبت العصر الجليدي الأخير ودشنت المناخ المعتدل الذي ما يزال هو المناخ السائد اليوم.

من العصر الحجري إلى الزراعة: التغير العظيم

خلافاً لما قد يتوقعه المرء، لم يؤد تزايد دفء الأرض إلى تحسن فوري في وضع الإنسان. والواقع أنه قد أربك بشكل خطير الثقافات القائمة، المعتمدة اعتماداً كبيراً على الصيد. لقد انبثقت غابات كثيفة، في حين أدى الماء المتحرر من التجلد إلى تكوين أنهار وبحيرات في كل مكان، وارتفع مستوى البحر وأغرق المناطق الساحلية. ولم تعد هناك قطعان للرنة أو للخيول يمكن مطاردتها في التوندرا المتجمدة. وكان يتعين إعداد كمائن للأيائل وللخنازير البرية في الغابات الكثيفة، وكان على البشر أن يعتادوا على المملكة النباتية الجديدة، التي فرضت تغيرات كثيرة على عاداتهم السابقة. وقد تغير الغذاء، الذي أصبح يتألف الآن من قدر أقل من لحوم الطرائد الكبيرة وقدر أكبر من لحوم الحيوانات الصغيرة التي كان صيدها أسهل؛ وقد شمل الغذاء قدراً أكبر من المواد النباتية ـ الحبوب، الأعشاب، ثمار البندق، جوز البلوط، ثمار الكستناء، ثمار العلّيق؛ كما اعتمد الغذاء أخيراً بشكل ضخم على الأسماك من البحار والبحيرات والأنهار، وخاصة على المحار والقواقع، كما نعرف من أصدافها التي لا حصر لها والمتراكمة في أكوام ضخمة، مختلطة ببقايا طعام أخرى.

ومن مثل هذه الدلائل، غالباً ما جرى استنتاج أنه كان هناك نوع ما من "التقهقر" أو "الانحطاط" بين صفوف أحفاد الـ **Homo sapiens sapiens**، خلال الفترة الانتقالية الصعبة المعروفة بالعصر **الميزوليتي**(٣٨). ونحن اليوم أكثر ميلاً إلى اعتبار هذه الفترة فترة تكيف، تتطلب حذقاً وابتكاراً. وفي حين أن رسوم الكهوف تختفي قبل نهاية العصر الجليدي الأخير، فإن تقنيات صنع الأدوات لا تنحدر من حيث مستوى تعقيدها. على العكس: إننا نجد تخصصاً متزايداً في أدوات دقيقة جداً، يجري صوغها بدقة كما يجري على نحو ذكي دمجها في أدوات مركبة ذات مقابض أو مَسَّاكات مصنوعة من

الخشب(٣٩). وكان الصيد قد أصبح أصعب، لكن الصياد الآن أخذ يملك قوساً وسهماً، وكان بوسعه أن يصوب سهمه إلى فريسته ويصيبها عن بُعد. والحق إن السهام بوسعها قتل البشر مثلما أن بوسعها قتل الحيوانات. بل إن روبير آردريه يؤكد متصوراً، دون شك، أنه لا مفر من المبالغة حتى تصل الفكرة "أن اختراع القوس والسهم كان مهماً بالنسبة للإنسان قبل التاريخي أهمية اختراع الأسلحة النووية بالنسبة للإنسان الحديث"(٤٠).

وأخيراً، منذ الألف السابعة قبل الميلاد، تبدأ في الظهور في فرنسا العلامات الأولى للثورة الزراعية التي سوف تؤدي، في غضون ألفي أو ثلاث آلاف سنة، إلى تحويل الصيادين قبل التاريخيين إلى فلاحين. والدليل الأسبق هو الجمع المتزايد للنجيليات، وللبقيات خاصة (في الفار مثلاً)، بل وأحياناً الحبوب كالعدس والبازلاء (كما في الأيَرول). وإذا كانت الزراعة بوصفها زراعة لم تكن قد وُجِدت بعد، فإن الأغذية النباتية كانت على الأقل تُجمع وتُخزن بصورة منتظمة(٤١).

والعلامة الثانية، والأكثر وضوحاً بكثير، هي ظهور رعي الأغنام، الذي يبدو أنه جاء إلى فرنسا من الشرق الأوسط البعيد، حيث كان قد تسنى تدجين الأغنام بحلول الألف العاشرة أو التاسعة قبل الميلاد. كما كانت تلك هي فترة الملاحة المبكرة في بحر إيجه. ولذا فليس من الغريب أن الأغنام (التي لا يوجد أي من أسلافها في المملكة الحيوانية الأوروبية) تظهر في الألف السابعة في أوروبا الشرقية وبحلول نحو عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد على شواطئ غربي البحر المتوسط (بما في ذلك شواطئ جنوبي فرنسا). وبعد ذلك بألف سنة، كانت تجري تربية الأغنام في آكيتين، وبحلول عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد كانت قد وصلت إلى ساحل بريتانيا(٤٢).

وهكذا ففي غربي البحر المتوسط، سبقت تربية الأغنام التحول العظيم الذي نسميه بخلق الاقتصاد النيوليتي، بعبارة أخرى ذلك التدرب الثوري على الزراعة والذي دشن ميلاد غاليا، أو ما سوف يصبح يوماً ما فرنسا، بل ومجمل أوروبا، بمساعدة الحقول المحروثة والمراعي والبيوت والقرى وجماعات السكان الفلاحين المستقرة.

وهذه الثورة الزراعية ـ المهمة أهمية الثورة الصناعية الإنجليزية في القرن الثامن عشر بعد الميلاد ـ جاءت من الشرق الأوسط، موطن نباتات الحبوب البرية. والحال أن ممارسة فلاحة الأرض، والتي كانت الابتكار الحاسم، قد رافقت أو تلت ابتكارات أخرى: الاستقرار في مكان ثابت، تربية الحيوانات الداجنة، اختراع أدوات زراعية

كالمنجل وحجر الرحى (وهو حجر يجري الآن تشذيبه وصقله لا نحته) وأخيراً ابتكار صناعة الفخار. والحال أن هذه السلسلة من المكتسبات الحضارية قد استغرقت عدة آلاف من السنين حتى تصبح منتشرة: فقد وصلت إلى أوروبا عبر طريقين محددين بوضوح: الوادي الطويل لنهر الدانوب، من الشرق إلى الغرب، والطرق البحرية للبحر المتوسط. وقد ساعد تحديد الأزمنة بالراديو ـ كربون على رصد المراحل المختلفة لهذا الانتشار بشيء من الدقة. والآن يمكننا أن نرى بالفعل تشكل شطري فرنسا: شطر في الجنوب وشطر في الشمال.

تباين الخواص، التنوع

إن المنطقة التي تحتلها الآن فرنسا، والتي حكمت عليها المقادير بأن تلعب دور ملتقى الطرق، كانت الوجهة التي اتجهت إليها موجتان متمايزتان من الزراعة النيوليتية. فقد تأثرت فرنسا الجنوبية أولاً، قبل الميلاد بنحو خمس آلاف سنة، عن طريق البحر المتوسط. أما فرنسا الشمالية والشرقية فقد تأثرتا بعد ذلك بنحو خمسمائة سنة، من اتجاه الدانوب. وما نحن بإزائه هو سياقان ثقافيان منفصلان، يقع كل منهما بشكل مميز في منطقة خاصة (أنظر الشكلين ٥ و٦).

وفي الجنوب، تعتبر الأساليب الجديدة، وإن كانت أسبق في المجيء، أصعب على رصد دروب وصولها، ومن المؤكد أنها قد جاءت عن طريق البحر، لأنها امتدت إلى المناطق الداخلية من الساحل. إلاّ أنها لم تتخذ شكل استعمار، يحمل استنارة إلى أراض جديدة. وما كان ممكناً حتى الآن من التحليل الأنثروبولوجي (على عدد محدود من الهياكل العظمية بالفعل) قد قاد ريمون ريكيه إلى استنتاج أن التغيرات "لم تكن مصحوبة بأية هجرة"(٤٣). لم يكن هناك، على أية حال، انقطاع مفاجيء، بل سلسلة من "الاتصالات، ونقل الأفكار والتقنيات، مما أدى إلى إبداعات أصيلة داخل المجتمعات الأصلية"(٤٤). كما يعتقد چان جيلين أن النموذج الأول ـ الزراعة على نحو ما تطورت في شرقي البحر المتوسط ـ قد جرى نقله بشكل عشوائي، وبأشكال تبدلت من جراء توقفاته الكثيرة في واحد أو آخر من أحواض المتوسط التي لعبت دور "مرشحات كثيرة". وعلى الأرض الفرنسية، تمثلت النتيجة في سيرورة بطيئة للتثاقف من جانب الجماعات السكانية المحلية، التي أخذت تدريجياً (وإن كان دون التخلي عن جميع تقاليدها السابقة) تتبنى تربية الأغنام والحياة المستقرة والزراعة ونوع صناعة الفخار

الشكل ٥

الجماعات الفلاحية الأولى في فرنسا، من القرن السادس إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

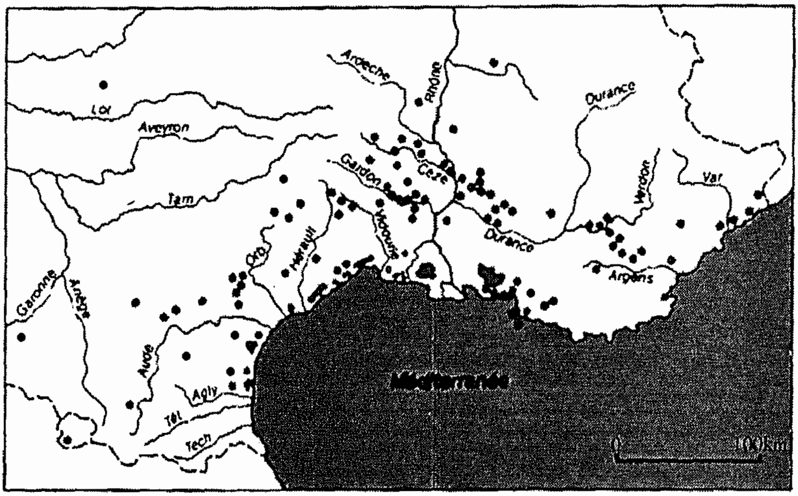

كانت هذه الجماعات مبعثرة على طول جانب البحر المتوسط الممتد من الألب - ماريتيم إلى روسييون. وكان اختراق الأراضي الداخلية بطيئاً.

الموجود في جميع أرجاء غربي البحر المتوسط آنذاك ـ والموسوم غالباً بآثار القواقع البحرية (خاصة الـ **Cardium**، ومن هنا اسم الفخار الـ **Cardiale**، المخصص للثقافة النيوليتية في هذه المنطقة الجنوبية). والحال أن رعي الأغنام والماعز، الراسخ بالفعل، قد تطور إلى الدرجة التي أدى معها إلى نزع غابات وإلى تآكل التربة. وخلال الألف الخامسة قبل الميلاد، بدأت تظهر القرى الأولى؛ وكانت ما تزال أولية في تصميمها، إلاّ أنه على سفوح الكوربيير، مثلاً، يمكن بالفعل رصد منتجعات صغيرة للماشية، حيث توجد قرى شتوية في السهل، ومخيمات صيفية على التلال(٤٥).

وهذه الجماعة الثقافية المتوسطية، المقصورة على القطاع الساحلي في البداية، إنما تمتد ببطء إلى نحو نصف المسيف الأوسط وإلى الألب، قبل أن تتحرك في اتجاه أبعد شمالاً من جديد.

وفي الجزء الشمالي من فرنسا، كان الموقف جد مختلف. فهنا، كان يوجد بالفعل انقطاع. فالزراعة قد جرى غرسها هنا من لا شيء على أيدي مستوطنين قادمين أصلاً من وادي نهر الدانوب، والذي كان آنذاك مركزاً لجماعات فلاحية كانت قد أجادت التقنيات الزراعية إجادة تامة. والواقع أن هؤلاء المستوطنين كانوا متمايزين من الناحية الأنثروبولوچية عن السكان المحليين السابقين(٤٦). ومنذ نحو خمس آلاف سنة قبل الميلاد، كان هؤلاء الدانوبيون يتحركون في اتجاه الغرب، بحثاً عن أراضٍ غرينية جديدة مماثلة للأراضي التي اعتادوا فلاحتها. ونحو منتصف الألف الخامسة عبروا الراين، لكنهم لم يصلوا إلى مشارف الحوض الباريسي إلاّ بعد ذلك بخمسة قرون. وهنا واجههم عدد من الجماعات الصغيرة من الناس الذين كانوا ما يزالون يمارسون الصيد ويجمعون غذاءهم. إلاّ أنه بما أن القادمين الجدد قد اقتصروا على زراعة الأراضي الغرينية الخصبة في الوادي، فلم يجدوا صعوبة كبيرة في إرغام الجماعات السكانية الميزوليتية إما على التراجع إلى الأراضي الفقيرة أو على تبني أساليبهم. وقد بنى القادمون الجدد بيوتاً كبيرة وفق الأسلوب الدانوبي، من الخشب والطين، كل واحد منها كبير بما يكفي لإيواء أسرة كبيرة (نحو عشرة أفراد) وأحياناً ما كانت قراهم تضم زهاء مائتي نسمة. وكان هؤلاء الناس فلاحين حقيقيين، بشكل أدق من حال نظرائهم في حوض البحر المتوسط، وقد جلبوا معهم من بلدهم الأصلي أساليب زراعية مدروسة ومختبرة. ولما كانوا مزيلين لا يكلون للغابات، فقد زرعوا القمح والشعير على الأرض المحروثة، وربوا الماشية والخنازير (وإن كانوا نادراً ما ربوا الأغنام) وإذا كانوا قد

الشكل ٦

مناطق الغرين والطمي في أوروبا

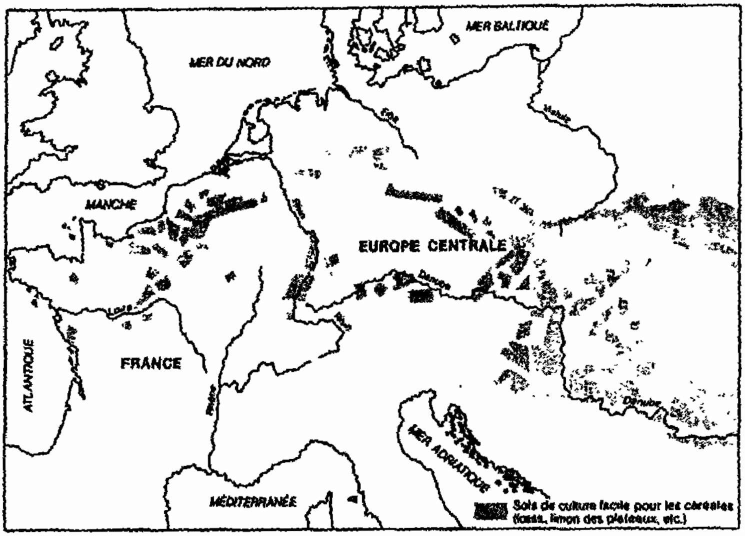

إن هذه الأراضي التي كان يسعى إليـها مزارعو وسط أوروبا الفلاحـون، إنما تشير إلى الطريق الذي أخذه انتشار الزراعة، على امتداد الدانوب وحـتى الراين وداخل الحوض الباريسي، خلال الألف الخامسة قبل الميلاد.

واصلوا صيد الطرائد البرية، فإن هذا الصيد لم يلعب غير دور ثانوي في توفير غذائهم من اللحوم. وهؤلاء هم الناس الذين يعرف فخّارهم أحياناً بالأواني **اللولبية**، نسبة إلى زخارفها اللولبية(٤٧).

وهكذا فإن الثقافة النيوليتية لم تكن بحال من الأحوال موحدة في المنطقة التي تحتلها فرنسا الآن: إن الثقافة الكارديالية، ثقافة الفخار الكارديال في الجنوب، والثقافة اللولبية، ثقافة الفخار اللولبي في الشمال، قد تطورتا بشكل مستقل الواحدة عن الأخرى. كما أن هذا لم يكن كل ما هناك. ففي الغرب، في اتجاه المحيط الأطلسي، توجد الثقافة النيوليتية، أياً كان منشأها (ربما عن طريق البحر)، في سياق أصلي، له فخاره الخاص، الذي لا هو كارديالي ولا هو لولبي، وتتميز خاصة بالعمارة الميجاليتية الحجرية غير العادية والتي ما تزال آثارها الضخمة باقية حتى يومنا هذا(٤٨). وعلى مدار زمن طويل، رفض علماء ما قبل التاريخ تصديق أن هذه الإنشاءات الضخمة يمكن أن تُنسب إلى "البرابرة" المحليين: فهي لا يمكن إلاّ أن تكون إبداعات "حضارة" حقيقية، ومن ثم قادمة من الشرق. وعلى أساس تشابهات معينة (خاصة مع المقابر ذات القباب في كريت في زمن سلالة المينوس المالكة)، تخيلوا جنساً ما من الملاحين المجربين من بحر إيجه، حملوا "ديانة ميجاليتية" يُعتقد أنهم أدخلوها إلى ضفاف المحيط الأطلسي، بدءً بإسبانيا (حيث توجد آثار ميجاليتية أيضاً هناك) في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد. وفي هذه المرحلة المتأخرة أيضاً، على ما يقولون، تعلم أسلافنا المتخلفون على ساحل المحيط الأطلسي دروس العصر النيوليتي.

والحال أن تحديد التواريخ عن طريق الراديو ـ كربون قد نسف جميع النظريات التي من هذا النوع. فالآثار الميجاليتية المعروفة الأقدم إنما توجد في بريتانيا والبرتغال (ليس في إسبانيا) وهي تسبق أية عمارة حجرية في شرقي البحر المتوسط. بما في ذلك مصر. ولأسباب ما تزال غامضة، انبثقت هذه الثقافة الجديدة، وهي ثقافة أصلية إلى حد بعيد، في الألف الخامسة قبل الميلاد، عندما أنشئت الأضرحة (قبل التاريخية) العظيمة الأولى ـ مثل ضريح بارنينيه، قرب مورلكس، والذي يمد على سبعين متراً مقابره الجماعية الإحدى عشر، ذات القباب المنحنية الجميلة، علاوة على قاعة يبدو أنها بمثابة حَرَم(٤٩). ونجد بين التحف الجنائزية فخاريات ناعمة غير مزخرفة. والحال أن هذه المجتمعات الميجاليتية الأولى، والتي من المرجح تماماً أنها مجتمعات فلاحية بالفعل، قد ظلت وفية لأسلوبها في البناء والذي نلقاه (مع بعض التنويعات الملحوظة،

بالطبع) علــى طول مجمل الساحل الأوروبي للــمحيط الأطلسي. وفي فرنســا الغربية، استمرت الهياكل الحجرية (الميجاليتيــة) لألفي سنة، ويبدو أنها قد وصلت فيما بعد إلى جنوب فرنسا، حيث تنتشر الأضرحة الحجرية في الألف الثالثة قبل الميلاد.

وهكذا، ففــي بداية الألف الرابعــة قبل الميلاد، يــمكن تمييــز ثلاث مناطق ثقــافية بالفــعل، يفصل بيــنها المسيــف الأوسط الذي لا ريب في أنه قــد تأثر بها كلــها. وفي الجزء الأخير من تــلك الألف، نشأت مع ذلك بعض الصــلات والروابط، مما أدى إلى ميل ثقــافة واحدة، أو بالأحرى عناصر ثــقافة واحدة، إلى الانتشار فــي مجمل الأرض التي تحتــلها فرنسا الآن، فيمــا عدا المقاطعات الشــرقية. وهذه الثقافة الأصــلية، التي سميت بالثقافة **الشاسية** يبدو أنها بدأت في جنوب بلادنا نحو عام ٣٦٠٠ قبل الميلاد، "حيث ترجع أصولها إلى السكان الموجوديــن هناك من قبل، وحيث تستوعب مبادرات ذات أصول متوسطية"(٥٠). ويبدو أن هذه الثقافة قد تميزت بالوفرة وبالثراء، كما يشهد على ذلك فــخارها الناجز، النــاعم، المحروق جيــداً، والمزخرف بعلامات هــندسية، وأدواتها الــمعقدة، ومن بيــنها نسبــة عالية من شــفرات القطع والســكاكين والمــناجل، ومجموعة متنوعة من رءوس السهــام وأنواع عديدة من رءوس الحراب وكل المواد التي يحتاج إليها آكلو الحبوب (المدقات، المجارش، أحجار الرحى).

ويبدو أنه تحت ضغط نمو سكاني ضخم، اتجهت هذه الثقافة إلى الاستيلاء بسرعة على المناطق المــجاورة، حيث تقدمت شمالاً عبر وادي الراين وغرباً نــحو آكيتين عبر الكوس وشِعب نوروز. ويستنتج چان جيلين أن النتيجة قد تمثلت في نوع من "حضارة نيوليتــية قومية"(٥١). وهذا لا يعني أنها قد محت جميع التــباينات الإقليمية، بل يعني أنها قد وضعت بصمتها المميزة على المجــموعة القائمة من الثقافات الإقليمية. وتحت هذا الدافع القوى طورت الأخيرة ما سوف يكون فيما بــعد طبعاتها الخاصة من "الثقافة الأم"، وإن كان باختلافات فردية ملحوظة.

وأنا أميل إلــى الاعتقاد بأن التوسع الــشاسي ربما كان يتــماشى بالفعل مع الــتثاقف المتأخر للجماعــات السكانية التي كانت قد ظلت بعيدة عن التــأثر بالابتكارات الزراعية الأولى للعــصر النيوليتــي. وفي سياق نمو سكانــي سريع، اختار الصيــادون والرعاة في نهاية الأمر أن يصبــحوا فلاحين. وقد خرجوا من غاباتهــم، أو بدأوا في محوها. وهذا على أيــة حال هو ما يوحــي به تحليــل ريمون ريكيــه للحضارة الــتي استقرت بــشكل مفاجيء تماماً في الحوض الباريسي نحو نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد(٥٢)، وقد وجد

الشكل ٧

التوزيع الجغرافي للأضرحة في فرنسا من الألف الخامسة إلى الألف الثالثة قبل الميلاد

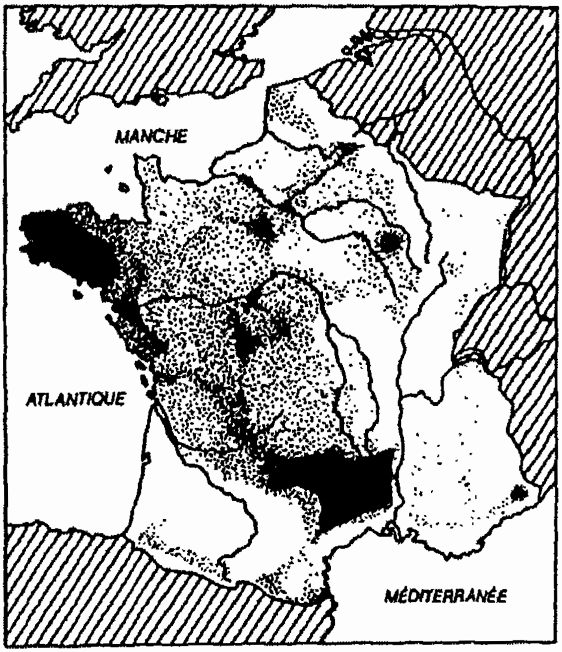

تبين هذه الخريطة الانتشار الذي حدث على مدار ألفي سنة للمقابر الجماعية الميجاليتية، من بريتانيا، مهدها في فرنسا، وحتى الجنوب.

الشكل ٨

المواقع الرئيسية لبدايات العصر النيوليتي في فرنسا من الألف السادسة إلى الألف الرابعة قبل الميلاد.

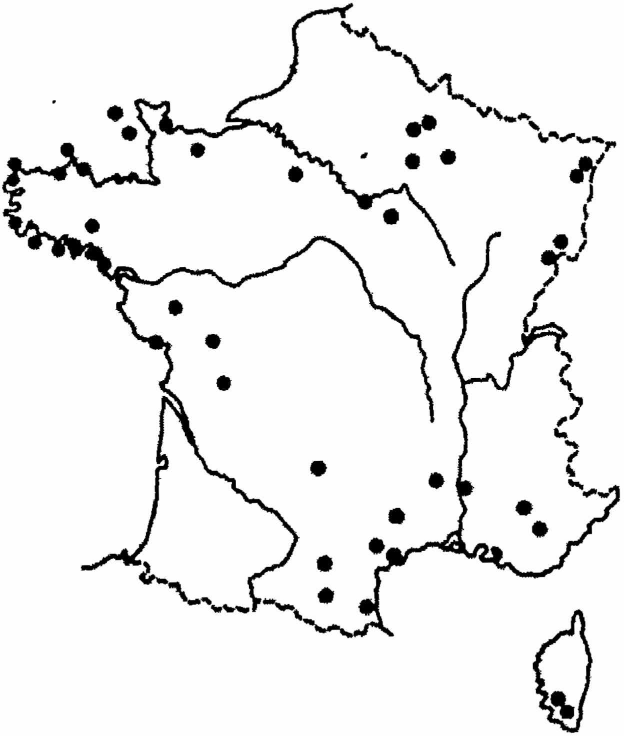

توضح ثلاث مناطق ثقافية مختلفة، تطورت كل واحدة منها بشكل مستقل، يفصل بينها حاجز المسيف الأوسط غير المسكون.

الشكل ٩

مواقع الألفين الرابعة والثالثة قبل الميلاد

تبين العلامات الأولى لـ"حضارة قومية"، بمعنى أن الثقافة الشاسية تنتشر، عبر التبادلات النشيطة، بحيث تشمل كل فرنسا تقريباً، ما عدا الشرق.

نقلاً عن:

J. Guilaine, *La France d'avant la France*, 1980.

الأنثروبولوجيون هنا بقايا بشرية جد مختلفة عن بقايا المزارعين المنتمين إلى ثقافة الفخار اللولبي، وإن كانت جد شبيهة بالجماعات السكانية الميزوليتية القديمة. وإذا ما تذكرنا علاوة على ذلك أن الحوض الباريسي، بالرغم من ارتباطه بالانتشار السريع للثقافة الشاسية عبر مجمل الأرض التي تحتلها فرنسا الآن، قد طور أدواته الخاصة، ذات الطابع القوي بشكل خاص والذي يبدو أنه يتناسب تماماً مع قطع الأشجار، فإن الصورة تبدو تامة لجماعة سكانية منخرطة في تطهير الأرض من الغابات وفي البحث عن أرض جديدة. وأليس ممكناً أن قوة التوسع الشاسي كانت مستمدة على وجه التحديد من تمكينه الثورة النيوليتية من اختراق مجمل البلد، مُزيداً بشكل يتناسب مع ذلك من الموارد المتاحة لجماعة سكانية آخذة في النمو والازدياد؟(٥٣)

وفي الوقت نفسه، كانت السلع قد أخذت بشكل متزايد في التحول إلى موضوع للتبادل. وهكذا، فبين التحف الموجودة في أضرحة فرنسا الغربية نجد الفخار الشاسي الجديد. وفي الاتجاه المقابل، نجد أن "الفؤوس المزررة"، التي أنتجها حرفيون في بليسيلين (كوت ـ دي ـ نور) من صخور جد صلبة تعرف بصخور الدورليريت، كانت توزع ليس فقط عبر مجمل بريتانيا وشمال غربي وغربي فرنسا، وإنما أيضاً على طول الراين، وفي الألب، وفي البرانس. وينطبق الكلام نفسه على الفؤوس المصقولة المصنوعة من الهورنبلند، والتي جاءت أصلاً من فينيستير(٥٤).

وقد أفادت مثل هذه التحركات من توسع أعم، مع تكاثر القرى وازدهارها. وقد أصبحت الزراعة راسخة. والحال أن عبادة الأرض الأم، ربة الخصوبة، وهي العبادة المشتركة بين جميع المجتمعات النيوليتية، قد اكتسبت مكانة جديدة، كما يشهد على ذلك ظهور تماثيل صغيرة، مصنوعة بوجه عام من الصلصال، لابد من قول إنها أقل عدداً وأقل إثارة من التماثيل الصغيرة التي لا حصر لها والتي تصور الأرض الأم، وكثير منها جد جميل، والتي نجدها في الشرق أو في وسط أوروبا. وهناك استثناء واحد: التمثال المثير في كاپدناك ـ لو ـ أو (لو) المكتشف في مخيم شاسي كان مسكوناً قبل الميلاد بنحو ثلاث ألف سنة. والواقع أن هذا التمثال قد حير الخبراء، حيث إنه لا يشبه أي شيء معروف آخر، ربما باستثناء بعض البللورات الصخرية المنحوتة في يوغوسلافيا والتي ترجع إلى الألف الخامسة قبل الميلاد!. وفيما عدا "فينوسات" قليلة، والوجه الجميل لـ "سيدة براسمپوي"(٥٥)، والذي يرجع إلى العصر الپاليوليتي الأعلى، فإن تمثال "ربة كابدناك" الغريب يمكنه أن يزعم أنه أقدم تمثال قبل تاريخي في فرنسا(٥٦).

عصر المعادن

ينتهي ما قبل التاريخ مع مجيء تقنيات صوغ المعادن ـ وقد ظهرت كل هذه التقنيات لأول مرة إمّا في الشرق أو في البلقان، مهد صناعة المعادن الأوروبية. وكان أول معدن يستخدم هو النحاس، نحو نهاية الألف الخامسة قبل الميلاد، ثم تبعه البرونز المخلوط وأخيراً الحديد ـ ومن هنا التقسيم المعروف إلى عصور النحاس والبرونز والحديد. ومع تأخر زمني ملحوظ، جرى إدخال تقنيات صوغ المعادن، واحدة بعد الأخرى، إلى ما أصبح الآن فرنسا: النحاس بين عامي ٢٥٠٠ و١٨٠٠ قبل الميلاد، البرونز بين عامي ١٨٠٠ و٧٠٠ قبل الميلاد، وأخيراً الحديد، بعد عام ٧٠٠ قبل الميلاد. وفي كل مناسبة، كانت الظاهرة مرتبطة بتغلغل شعوب أجنبية في الإقليم.

والواقع أن عصر النحاس كان عصر تعايش، حيث إن الأدوات الحجرية استمرت سائدة؛ ولذا فغالباً ما يوصف هذا العصر **بالعصر الكالكوليتي**، الذي يتميز بكل من النحاس والحجر. وقد تغلغلت هذه الحضارة في الأرض الفرنسية عن طريق إيطاليا الشمالية وشبه الجزيرة الايبيرية، حيث كانت أعمال صوغ النحاس قد ظهرت منذ نحو الألف الثالثة قبل الميلاد. ونحو منتصف الألف الثالثة قبل ميلاد يسوع المسيح، ظهرت مراكز عديدة لأعمال النحاس في جنوب فرنسا، ترتبط بركائز هذا المعدن الموجودة في السيفين والآفيرون والكيرسي ولوزير ولانجدوك(٥٧).

على أن مثل هذا الانتاج قد ظل محلياً، حتى نحو عام ٢٢٠٠ قبل الميلاد، عندما جرى استيعابه وازدهاره في الفلك الثقافي لما يسمى بالثقافة الجَرَسية(٥٨)، وكانت هذه ثقافة مستوردة، يمكن تمييزها في مختلف أرجاء أوروبا من خلال فخارها المميز (المعروف أحياناً بالفخار "الجرسي"، نظراً إلى شكله الذي يشبه جرساً مقلوباً) ومن خلال الكثير من الأشياء النحاسية التي تنتشر مع انتشارها. ويبدو أن الهجرة الأجنبية كانت مسئولة عن ذلك، وإن كان لم يتم حتى الآن تحديد المكان الأصلي الذي جاءت منه تحديداً مرضياً: لقد جرى طرح إقليم التاج وأوروبا الوسطى على حد سواء! فأي نوع من الناس كان هؤلاء؟ يرى بعض الخبراء أنهم مقاتلون يحبون الحرب ورماة بارعون هيمنوا على الأرض؛ ويرى البعض الآخر أنهم تجار ومبادلون نشيطون كانوا يبيعون فخارهم الرائع وأدواتهم النحاسية التي اجتذبت المشترين لما تتميز به من جدة وابتكار: الخناجر، مقصات الحدادين والمخارز والابر. ولابد أنهم كانوا رحالة عظماء على أية حال، حيث إنهم يظهرون في شبه الجزيرة الأيبيرية ووادي البو وسردينيا

وصَقلية ووادي نـهر الراين حتى منبـعه والبلدان الواطئة واسكـتلنده وإنجلترا وبـوهيميا ومورافيا وفي كل مكان تقريباً في فرنسا، مـع الاستثناء الغريب الذي يتمثل في الحوض الباريسـي، والذي يبدو أنه كان جـزيرة مقاومة. ومع هؤلاء الـناس المنتشـرين في كل مكان، يمكن للمرء أن يبدأ للمرة الأولى في الـتفكير من زاوية "فكرة معينة عن الوحدة الأوروبية". فهل كانوا أول من نشر اللغات الهندو ـ أوروبية في الغرب؟ لقد جرى طرح هذا الاحتمال "بدرجة معقولة من الترجيح"(٥٩).

على أن مستوطنات الـثقافة الجرسية لم تشكل في أي مكـان على الأرض الفرنسية جماعات موحدة ومتجانسة، قادرة على طرد أو استيعاب الشعوب الأصلية. بل يبدو أن العكـس هو الذي حدث: ففـي فرنسا، تـتشابك آثارهـم مع آثار الجمـاعات السكـانية المحلية في مقابر جماعية تقليدية (في حين أن القادمين الجدد، في أي مكان شكلوا فيه جماعـات موحدة، كانـوا يمارسون الدفـن الفردي). ويبدو أنـه كان هناك نـوع ما من التداخل ومن الانصهار.

على أنه في حين أن أعمال النحاس كانت مزدهـرة في فرنسا قبل الميلاد بنحو ألفي سنـة، فإن الشرق الأوسـط ووسط أوروبا كـانا قد هجـرا هذه الأعمـال قبل ألف سـنة متجهـين إلى البرونز، خلـيط من النحاس والقصـدير، أقوى وأقل هشاشة مـن النحاس الخالص. والحال أن هذا التقدم التقني الكـبير لم يمتد إلى الغرب إلاَّ بعد نحو ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد.

وعندما امتـد إلى الغرب، ترتبت عليـه نتائج عديدة: ففي المـقام الأول، تحركت الدوائـر التجاريـة من جراء البـحث عن القـصدير الضـروري؛ وثانياً، كـانت الأدوات الجديدة ذات نـوعية جد رفيعـة بحيث إنها طردت الأدوات الـحجرية الباقـية الأخيرة؛ والشيء الأكثر أهمية بـكثير، هو أنه أدى إلى تقسيم أكثر وضوحاً لـلعمل (إلى مزارعين ومنجميين وحرفيين وحدادين وتجار ومقاتلين) ومن ثم إلى تمايزات وهيراركيات طبقية. وهكذا فإن الناس الذين أدخلوا إلى فرنسا أعمـال البرونز قد أدخلوا أيضاً نموذجاً جديداً للمجتمع، تهيمن عـليه ارستقراطية محاربة، كما تهيمن عليه، ربـما، فئة من الحرفيين الحـدادين(٦٠). وتكشف شعائر الدفن الفردي عن بدايـات تشكل هيراركية اجتماعية: ففي المقابر المغطـاة بالحجارة، كان الأفراد المهمون يدفنون مع متعلـقاتهم الشخصية، وهي عبارة عن أسلحة جميلة وجواهر وحلي(٦١). كما أن أهمية البطل المحارب تبدو من الآلهـة الجديدة، وهي الآن ذكـورية ومسلحـة (تُلقي في الـظل الأرض الأم أو ربة

الخصوبة العزيزة على أفئدة المزارعين النيولـيتيين)، كما تبدو من العبادات الجديدة التي انتشرت، وهي عبادات للنار وللشمس.

وقد انتشرت هذه الثـقافة انتشاراً واسعاً. فبين عامـي ١٨٠٠ و١٢٠٠ قبل الميلاد، نجحت في طرد الدفن الـجماعي في كل مكان. كما أن الأضرحة القديـمة في بريتانيا، حيث كانت ما تزال تستخدم، لم تعد تضم غير جسد واحد. وكان هناك استثناء واحد: فالـجنوب المـتوسطي والـجنوب الـغربي، من الـبرانس إلـى آكيتيـن، قد ظلا وفيـين لتقاليدهما القديـمة في الدفن الجماعي(٦٢). على أن الجماعات السكـانية المحلية لم تجر إزالتـها جسدياً في أي مكان. بـل ربما جاز لنا أن نتـصور أنها يحتمل أنـها كانت خادمة للسادة الجدد ومشتغلة بالزراعة لحسابهم.

وبحلول عام ١٨٠٠ قـبل الميلاد، كانت عدانة البـرونز قد أصبحت منظمة تـنظيماً جيداً جداً. وقد اقتصرت في البداية على إقليم الـرون بمعناه الواسع (الفاليه السويسرية، وادي الرون نفسه، الجورا والألب) لكن مصنوعات البرونز ـ الخناجر الجميلة، الفؤوس القوية، الخرزات، السوارات، البروشات التزييـنية، المخارز والابر ـ كان يجرى تبادلها بشكل نشـيط في بورجونيا والمسـيف الأوسط وآكيتين بل وفي لانـجدوك ـ روسبيون. وهكذا بدأ وادي الرون يلعب دوره كرابطة بين البحر المتوسط وأراضي ألمانيا.

وبعد ذلك بثلاثمائـة سنة، ظهرت سلسلة جديدة من مراكز الأعمـال المعدنية على طول شاطـيء المحيـط الأطلسي. وقد ظـهر آنذاك ذلك الابتـكار الجوهـري ـ الانتاج المـتسلسـل للأدوات البـرونزية (والذي سـوف يؤدي إلى طـرد الأدوات الحجريـة إلى الأبد). وقد تخصص كل مركز في نوع معين من الفؤوس أو الخناجر أو رءوس الحراب أو السيوف. والحال أن هذه الأدوات التي كانت تُنتـج في سهول ميدوك أو في بريتانيا، وفي نورمـاندي أو بين اللـوار والجارون، كان يجري تـصديرها كلـها من مقاطـعة إلى أخرى وكانت تنتهي كلها إلى التجاور في أسواق واحدة(٦٣).

وبشكل مستقل عن هاتين المنطقتين ـ الأطلسية والرون ـ الألبية ـ يمكن تمييز منطقة انتاج ثالثة في سياق ثقافي مختلف اخـتلافاً طفيفاً، جاءت به هذه المرة شعوب من وراء الراين استقرت أولاً في الألزاس، ثم في الحوض الباريسي ووسط الغرب. وقد وجدت فؤوسها الثـقيلة وسكاكينها زبـائن في الجنوب، وعلى طول السـون، وفي الجورا، بل وفي المسيـف الأوسط، في حين أن الفخار المـميز لهذه الشعوب قـد وصل حتى إلى إقليم الشارانت(٦٤).

ونحو عام ١٢٠٠ ـ ١١٠٠ قبل الميلاد، حدث انقلاب ثقافي مهم. ففي أعقاب أحداث عاصفة في بحر إيجه، انتقلت شعوب جديدة إلى وسط أوروبا وفي نهاية الأمر، كما هي الحال غالباً، عبرت الراين. وكانت ثقافة هذه الأقوام ثقافة أصيلة تماماً، حيث إن القادمين الجدد كانوا يحرقون جثث موتاهم ـ ونحن نعرف إلى أي حد كانت شعائر الدفن مهمة. وكانت الجرار التي تحتوي على رماد الجثث تدفن متجاورة في مقابر تعرف بـ "حقول الجرار". وقد تأثرت ثلاثة أرباع فرنسا بـ "ثقافة دفن الجرار" التي ترسخت في سياق مؤات من الناحية الاقتصادية. والواقع أن التوسع الملحوظ للقرى في المنخفضات واستخدام المحراث واستيطان التلال وإزالة الغابات واستخدام العربة والحصان المستأنس كحيوان جر(٦٥) ـ كل هذه الأمور تشير إلى زمن نمو سكاني ضخم. أمَّا المنطقة الوحيدة التي ظلت خارج تأثير هذه الحركة فهي الغرب الأطلسي، وهو منطقة تمتد إلى الداخل حتى الحوض الباريسي، ومن ثم فقد أصبح مركزاً لأسواق نشيطة حيث تتنافس المؤثرات الأطلسية و"القارية" فيما بينها.

إلاَّ أنه حتى في المناطق التي استقر فيها القادمون الجدد، يظل وجود الثقافة المحلية ملحوظاً. ففي بورجونيا وأماكن أخرى، على مدار قرنين، كان دفن الجثث وحرقها يُمَارسان جنباً إلى جنب، في ساحة الدفن الواحدة نفسها أحياناً. وقد ظلت الاختلافات المحلية واضحة إلى حد كبير بحيث إن بعض الباحثين في مجال الآركيولوجيا، اعتقاداً منهم بأن الشعوب المختلفة لها ممارساتها الثقافية الخاصة بكل منها، قد تحدثوا عن خمس موجات متعاقبة من الغزاة. لكن چان جيلين يرى أننا يجب أن ننظر إلى مثل هذه الاختلافات على أنها نتاج سيرورات تطور مختلفة، بل لقد تساءل ما إذا كانت "قد حدثت أية غزوات بالفعل" أصلاً. وهو يسأل، لماذا لا يجب أن نفكر من زاوية التثاقف وحده، والذي ينتشر من مكان إلى آخر بفضل الاتصالات بين "تجار متنقلين أو جماعات صغيرة لكنها دينامية"(٦٦)؟

ومن الواضح على أية حال أن عصر البرونز كان، بشكل متزايد ومع مرور الوقت، عصر تبادل نشيط (غالباً ما كانت قوالب النحاس والقصدير ترحل إلى مسافات ملحوظة، من بريتانيا إلى الألب أو إسبانيا مثلاً)، عصر تعدد وتداخل لثقافات مختلفة.

كما أن عصر الحديد (من عام ٧٠٠ قبل الميلاد إلى الفتح الروماني) كان عصر انقلابات كثيرة. وقد تزامنت بدايته مع تدهور في المناخ، فقد أصبح أكثر برودة وأكثر رطوبة: وغمرت البحيرات ضفافها وغزت الأشجار سفوح الجبال ـ أشجار الزان

الشكل ١٠

مواقع عصر البرونز في فرنسا

كان هناك مجالان رئيسيان للإنتاج: على طول ساحل المحيط الأطلسي في الغرب وفي الإقليم الواقع بين الألب والألزاس في الشرق.

نقلاً عن:

J. Guilaine, *op. cit.*

وأشجار جار الماء وأشجار التَّنُّوب وأشجار البيسية. وطبيعي أن توسع الغابات سوف يكون في نهاية الأمر مفيداً لعدانة الحديد الجديدة، وهي تقنية لها مطالب أكثر مما لتقنية البرونز: فهي تتطلب درجات حرارة مرتفعة واستهلاكاً ضخماً للخشب. وبعد أن ظلت أعمال الحديد لزمن طويل سراً في أرضها الأصلية، المملكة الحيثية، انتشرت ولكن بشكل بطيء وعشوائي فقط، ونحن لا نعرف متى أو كيف وصلت لأول مرة إلى أوروبا الغربية، فمن المحتمل أن تكون قد وصلت عبر البحر المتوسط، على أيدي الفينيقيين، أو على الطرق البرية الأوروبية في إثر موجات مختلفة للهجرة كانت، كالعادة، تعبر الراين(٦٧).

وضمن عصر الحديد، يمكن تمييز فترتين رئيسيتين: ثقافة الهالستات(٦٨)، التي تبدأ في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد؛ وثقافة لا تين، منذ نحو ٥٠٠ سنة قبل الميلاد. ونحن نعرف هاتين الفترتين معرفة لا تتفوق كثيراً على معرفتنا للفترات الأسبق، ومن هنا وفرة المشكلات التي تواجهنا والتي غالباً ما يتعذر علينا حلها (ومن الذي يمكنه أن يستغرب ذلك؟).

وينطبق هذا بالتأكيد على فترة الهالستات. فنحن لا نعرف سوى القليل عن القادمين الجدد، فيما عدا أنهم كانوا أول فرسان يظهرون في الغرب. (كان الحصان مستقراً في الغرب بالفعل منذ عدد من القرون، ولكن كمجرد حيوان للجر). كما كانوا أيضاً أول من جلبوا معهم تكنولوچيا صناعة الحديد، وكانوا يحوزون مجموعة متنوعة من الأدوات والأسلحة الجديدة، تشمل السيف العريض الحد والذي منحهم تفوقاً لا يُقهر على أي خصم لا يزال مسلحاً بالخنجر البرونزي القديم. والحال أن الدوريان، الذين كانوا هم أيضاً فرساناً من شمالي البلقان، كانوا قد تمكنوا بشكل مماثل من تدمير الحضارة الميسينية الرائعة في اليونان نحو عام ١١١٠ قبل يسوع المسيح، قبل قرون من ظهور الهالستات.

ومثل هذا الدمار لم يحدث في "غاليا" التي كانت بالأحرى مسرح تسلل وتراكب وحكم أجنبي. فمجمل المنطقة الواقعة "جنوب خط من اللورين وشامپانيا إلى مصب اللوار" كان محتلاً من جانب الغزاة. ويمكننا تتبع آثارهم من روابي مدافنهم(٦٩) والتي دائماً ما كان موتاهم من المحاربين سواء كانت جثثهم محروقة (كما في زمن دفن جرار رماد الجثث) أو مدفونة، مصحوبين بدروعهم وسيوفهم، وأحياناً مركباتهم أو أغطية سروج جيادهم. ومن السمات الحاسمة أنه بين هذه المقابر الفردية يمكن دائماً تمييز

الشكل ١١

مواقع العصر الأول للحديد (٧٠٠-٥٠٠ قبل يسوع المسيح)

تتركـز هذه المواقع في المنطقة التي احتلهـا الغزاة الذين تعرف حضـارتهم بحضارة الهالسـتات: في جنوب وفي شرق اللوار.

نقلاً عن:

J. Guilaine, *op. cit.*

مقابر الرؤساء من خلال ما تتميز به من فخامة. ومن الواضح أن مجتمع الفرسان هذا كان تراتبياً بشكل قوي، وهو أمر سوف يكون إحدى الخصائص الرئيسية لغاليا، وسوف يستمر حتى الفتح الروماني وبعده.

ولكن من كان هؤلاء الناس الذين استشرفوا غاليا؟ يقول البعض إنهم كلتيون بدائيون. ويرى البعض الآخر أنهم هندو ـ أوروبيون لكنهم ليسوا كلتيين على الإطلاق، ويذهب هذا البعض الآخر إلى أن الكلتيين "الحقيقيين"، المنتمين إلى ما يسمى لفترة لا تين، قد دمروا المواقع الحصينة لسابقيهم عندما وصلوا. ولا يمثل هذا الكلام حجة قاطعة بالمرة: فالقبائل الكلتية كانت، على أية حال، تتحارب فيما بينها. وطبيعي أن المعيار المقبول الوحيد لتحديد الجماعات الكلتية لابد من أن يتمثل في لغتها. لكننا لا نعرف شيئاً عن لغة شعب الهالستات. على أنهم قد جاءوا من وسط أوروبا، مثلما سوف يفعل الكلتيون فيما بعد، وقد امتد نفوذهم امتداداً واسعاً، من الأودير إلى إسبانيا.

بيد أنه في تزامن مع مجيئهم، ساعد عدد من المؤثرات الأخرى على تحويل مشهد ومجتمع ما سوف يصبح يوماً ما غاليا. فقد شهدت القرون السابع والسادس والخامس قبل الميلاد نمو وتوسع مختلف حضارات البحر المتوسط، مع خلق مستعمرات من جانب الدول ـ المدن الإغريقية ومن جانب الفينيقيين والايترورريين. وفي غاليا الجنوبية، أنشأ الفوسيان مدينتهم ماساليا، مرسيليا الآن، في عام ٦٠٠ قبل يسوع المسيح: ولما كانت تحتل موقعاً مثالياً، فقد أصبحت مركزاً مزدهراً، يجذب إليه عبر ممر الرون ـ السون موارد "سوق" غاليا (بما في ذلك القصدير البريطاني)؛ ويحافظ على انفتاح العلاقات التجارية مع البحر المتوسط، بالرغم من الهجمات المتكررة من جانب القرطاچنيين والايترورريين. والحال أن هؤلاء الأخيرين الهابطين من إيطاليا الشمالية، قد وصلوا إلى غاليا عابرين الممرات الألبية، التي كانت مسكونة بالفعل. وقد جاء القرطاچنيون أصلاً عبر إسبانيا وقبل انقضاء وقت طويل، راحوا يستخدمون الممر البحري الأطلسي(٧٠).

فهل كان انفتاح غاليا هذا على التجارة الجنوبية هو السمة الرئيسية لفترة الهالستات التالية؟ في تلك اللحظة ظهرت لأول مرة المدن ـ القلاع، أو على أية حال القرى الجبلية الحصينة، وفي المقابر الأميرية حيث كان الأشخاص المهمون يدفنون تحت ركام من الحجارة مع مركباتهم وكل ممتلكاتهم، اكتشف الآركيولوچيون أشياء مستوردة

ثمينة ذات أصل إغريقي أو ايتروري. والحال أنه عند الطرف الأدنى لواحدة من هذه "المدن" التلية، أوپيديوم فيكس في بورجونيا، جرى في عام ١٩٥٣ اكتشاف مقبرة رائعة لشابة ترقد في مركبة مزينة بجميع حليها(٧١). وكان إلى جانبها ثلاث طاسات برونزية ايترورية الأصل، وطاسة فضية وكوبان أثينيان واوينوكوي برونزي وأخيراً إناء فيكس الشهير، وهو قطعة برونزية ضخمة طولها ١,٦٥ متر ومزينة بإفريز يصور محاربين ومركبات(٧٢). وهو لافت ليس فقط بسبب روعته وإنما أيضاً لأنه لابد وأنه قد قطع مسافة عظيمة حتى يصل إلى فيكس من مكانه الأصلي: إما كورنثه أو ورشة في اليونان الكبرى، ربما فوسيه في آسيا الصغرى.

وترجع مقبرة فيكس إلى نهاية القرن السادس قبل الميلاد. وبحلول ذلك الوقت، نجد أن الغزاة المنتمين إلى ما يسمى بحضارة لا تين، والذين يسود الاعتقاد عموماً بأنهم كلتيون(٧٣)، كانوا قد بدأوا يصلون بالفعل إلى غاليا الشرقية. وقد جرى تدمير فيكس تدميراً وحشياً في الأعوام الأولى للقرن الخامس قبل الميلاد وهو ما حدث أيضاً لقلعة لو بيج، في الدروم. وبعد ذلك بوقت قصير سوف يجيء الدور على قلعة لا كامب دي شاتو في الچورا والتي سوف يتم هجرها(٧٤). لقد كان المجتمع الهالستاتي آخذاً في التفكك لأن فتحاً أجنبياً جديداً - سريعاً وعنيفاً ومتفجراً - كان يجري على الأرض "الفرنسية"، وسرعان ما سوف يغطي الجانب الأعظم من مجمل هذه الأرض، ومن المؤكد أن القادمين الجدد كانوا محاربين بواسل وفرساناً ذوي عزيمة، ومعدنين مجربين وحرفيين لا نظير لهم في المهارة، كما أنهم كانوا علاوة على ذلك جالبي ميثولوچيا باهرة، وديانة وثقافة أصيلتين، ولغة هندو - أوروبية كانت ملكهم وحدهم. هؤلاء كانوا "أسلافنا الغاليون".

كلتيون أم غاليون:
عن حضارتهم، بأكثر مما عن تاريخهم

مع كلتيي ثقافة لا تين نغادر بالفعل ما قبل التاريخ وندخل منطقة شبه التاريخ الفجرية. لكننا لسنا بعد في رائعة نهار التاريخ، والذي يرجع في أقدم المواعيد إلى زمن الفتح الروماني (من ٥٨ إلى ٥١ قبل الميلاد). وهكذا فإن المعلومات الدقيقة عن المقدمة الطويلة لـ "التاريخ الفرنسي" ضئيلة ومتفرقة.

كان الغاليون كلتيين. ولكن ماذا كان الكلتيون؟ لقد كانوا هندو - أوروبيين - لكن

ذلك لا يمضي بنا خطوة إلى الأمام، لأن الهنـدو ـ أوروبيين، الذين ترجع أصولهم إلى الألف الثالـثة قبل الميلاد، قد ضـموا مجموعة متنـوعة من الشعوب التي انـتشرت في مجمل العالم القديـم، من المحيط الأطلسي إلى نهر الجانج. وقد جـمعت بينهم سمة واحدة فقط: لقد كانوا يتكلمون لغات متصلة فيمـا بينها، مما يسمح لخبراء اللغة بتمييز الواحدة عن الأخرى. وقبل وقت غير بعيد، كان هناك قبول لتفسير بسيط تماماً للظاهرة الكلتية: لقد كان الهندو ـ أوروبيون في الأصـل شعباً واحداً، يحيا جنوب چوتلاند على حافة البلطيق وبـحر الشمال، ثم تفرق هذا الشعب فيما بعـد، حيث شق كل فريق من فرقائه طريقه الخاص وطـور لغته الخاصة. ومما يؤسف له أن هذا التفسـير المطمئن قد تم التخلي عنه ولم يحل محله بعد تفسير آخر.

وهكذا فـإن الكلتيـين، الذين ينتـمون إلى فرع غربـي من الهندو ـ أوروبيـين (شأن الهالستات وشعوب ثقـافة دفن رماد الجثث البشرية في الجرار قبلـهم وربما أيضاً شعب الثقافـة الجرسية الذي يـرجع إلى أواخر الألف الثـالثة قبل المـيلاد)، قد تعين تـحديد موقعهم في ماضٍ غامـض وغير محدد. ونحو القرن السابع قبل الـميلاد، من المرجح أنهم كانـوا يعيشون في الـمربع الذي توجد فيـه بوهيميا الآن، فـي وسط أوروبا، وهو ملتقى ومفرق طرق لـمؤثرات كثيرة. ولذا لا يمكن وصف الكلتييـن بأنهم جنس؛ فقد اكتشف الأنثروپولوچيون عناصر أقوام قصيرة الرأس وأقوام طويلة الرأس بينهم. وبحلول القرن الخـامس قبل الميلاد، "كانـوا غير متجانسيـن بدرجة عدم تجانس السـكان اليوم تقريـباً"، وسوف يصبـحون غير متـجانسين بـدرجة أكبر بكـثير مع احتـلالهم لأراضٍ جـديــدة(٧٥). كما أنه لا يمـكننا أن نتحدث بالفـعل عن شعب ـ فحتى هـذه الكلمة الغامضـة قوية بشكل زائد عـن الحد ـ ومن المؤكد أنـه لا يمكننا الحـديث عن دولة. وربما كانـوا قد جاءوا من قبيـلة فرضت قيادتهـا، قبيلة تمكـنت فيما بعـد من إخضاع الآخرين؛ وقد جرى تصدير ثقافتهم فيما بـعد على نطاق واسع ثم تسنى في نهاية الأمر تكوين كُلٍّ متماسك.

والشيء الذي يدعو إلى الاستغراب هو أن تتشكل مثل هذه الجماعة المتماسكة على الإطلاق: ولابد أن ذلك كان نتاج كثير من القوى التي تفـاعلت فيما بينها، والكثير من الظروف التي تلاقت، والكـثير من التطورات والنجاحات. وتفسير باري كـانليف تفسير جد مغرٍ، لأنه التفسـير الوحيد الذي يضفي معنى معيناً عـلى سيرورة ناجزة(٧٦). فهو يرى أن انقلاباً بعيداً في الأزمنة السحيقة مـن الماضي هو المسئول عن كل شيء: فنحو

الشكل ١٢

غاليا الكلتية في القرن الثاني قبل يسوع المسيح

تبين الخريطة مختلف قبائل غاليا قبل فتح الرومان لبروفانس في عام ١٢١ قبل الميلاد.

عام ١٢٠٠ قبل الميلاد، أدت غزوات الشعب الدوري والأفعال التي ما زال يكتنفها الغموض والتي قامت بها "شعوب البحر" إلى الانهيار المفاجيء للحضارة الإيجية المؤثرة التي كانت قد جعلت من شرقي البحر المتوسط، من مصر إلى اليونان وإلى المملكة الحيثية في آسيا الصغرى، مركزاً غير عادي للتبادل التجاري والثقافي، له امتدادات وتشعبات في طول الأرض وعرضها(٧٧). ويمكنكم أن تتخيلوا مصباحاً، كمصباح الصيادين والذي يجتذب الطرائد من جميع الجهات. وعندما انطفأ المصباح، كان على أوروبا الوسطى، المحرومة من نوره، أن تصنع نورها الخاص وتعتمد على مواردها الخاصة، مثلما سوف يتعين على أوروبا الشمالية، المتمحورة حول البلاد الواطئة، بعد ذلك بألفي سنة، أن تبني نفسها من لا شيء حتى تصبح واحداً من المراكز النشيطة في أوروبا العصر الوسيط. وهو يذهب إلى أن هذه السيرورة كانت في صالح تلك المناطق العليمة بأحدث تقنيات صوغ الحديد. والحال أن العدانة التي حافظ الحيثيون لزمن طويل على أسرارها، ثم انتقلت بعد ذلك غرباً عبر ايلليريا والبلقان، كانت عاملاً مساعداً، شجع على ظهور شعب من صائغي المعادن والمحاربين الشرسين. وعلى شكل أحفاد لمثل هذا الشعب، ظهر الكلتيون بعد ذلك بعدة قرون ـ وهم أحفاد وفيرو الأعداد بشكل كاف ومزدهرون بشكل كاف لأن يشنوا سلسلة طويلة من حملات الفتح.

والحال أن التوسع الكلتي، الذي تألف من سلسلة من الغارات المباغتة والتقدمات الخاطفة، قد دام ثلاثة أو أربعة قرون وامتد على مساحة جد واسعة. وفي الشكل ١٣ الذي أخذته عن جاك هارمان(٧٨)، يتضح على الفور اتساع المساحة التي شملها التوسع. وعلى مدار قرون، كان العدوان الكلتي هو البديل الوحيد لتدخل دول ـ مدن البحر المتوسط ـ الإغريق أو الرومان أو الشعب الايترروري ـ والقوة المحاربة الوحيدة القادرة على صدهم لأي مدى زمني وعلى بث الخوف في صدورهم.

والواقع أن التحركات الكلتية الأولى خارج إقليم بافاريا، قد دفعت الكلتيين في اتجاه الغرب. وبعد استعمار بلاد الراين الأوسط والأدنى، استقروا، بحلول القرن السادس قبل يسوع المسيح، بين الراين والمارن. ومن هذه القاعدة الراسخة تحديداً، شنوا فيما بعد حملات ظافرة عبر مجمل غاليا وعبر البرانس، إلى داخل الشطر الغربي لشبه الجزيرة الايبيرية (الكلت ـ ايبير). وبحلول القرن الثالث قبل الميلاد، من المرجح أنهم كانوا قد وصلوا إلى بريطانيا العظمى ثم إلى ايرلندا.

الشكل ١٣

الفتوحات الكلتية (بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد)

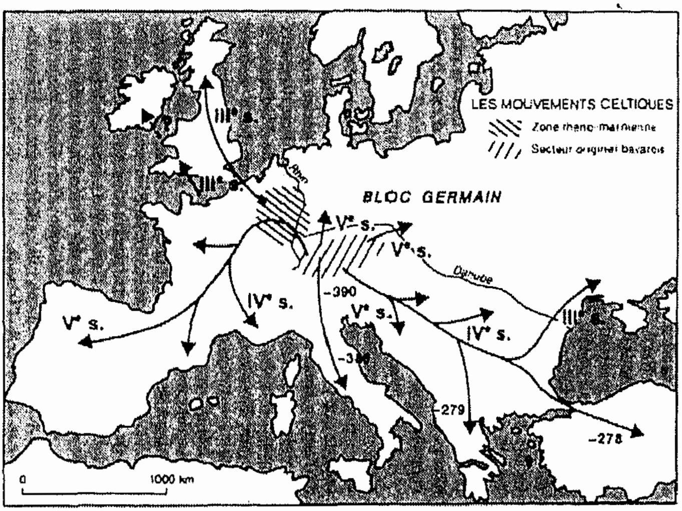

من قاعدتها الأصلية في بافاريا والمنطقة الواقعة بين الراين والمارن (والمحتلة منذ القرن السادس قبل الميلاد)، تمتد هذه الفتوحات بشكل واسع في كل اتجاه، ما عدا الشمال حيث أوقف تقدمها المجال الجرماني.

على أنه، منذ القرن الخامس قبل الميلاد، جرى شن غارات أخرى من بافاريا، عبر ممري برينر وسان ـ جوتارد. وهكذا فتح الكلـتيون إيطاليا، واستولوا على روما في عام ٣٨٦ قبل الميلاد واستقروا في وادي البو (غاليا عبـر الألبية)، بين الفينيت والايتروريين والليجور. بـيد أن تقدمهم في إيطاليـا الجنوبية سوف يصده الـرومان والايترورريون(٧٩) ولن يـحتلـوا في نهـاية الأمر غـير شريـط جد ضيـق من الأرض بيـن الألب والبـحر الأدرياتي.

وأخيراً، في تطلع الكلتيين إلى الشرق، تغلـغلوا عميقاً في البلقان وآسيا الصغرى، متخذين طريق وادي الدانوب في تحركهم، وقد نهبوا ديلفي في عام ٢٧٩ قبل الميلاد، وعبروا البُسـفور في عام ٢٧٨ قبل الميلاد، وفـي العام نفسه أقاموا دولـة جالاتية دامت حتى عام ٢٣٠ قبل الميلاد. ولكن هنا، كما في إسبانيا، بعيداً عن بلادهم، عند أقصى حدود توسعهم، واجه الكلتيون مشكلة الأعداد المتناقصة. وكان عليهم أن يتصالحوا مع الشعوب الـمقيمة، وأدى تأثـيرهم، مع أن بالإمكان رصـد ملامحه، إلى "مسـتوطنات مختلطة، ذات درجات متباينة من الكلتية"(٨٠).

وهذا السيـناريو الزماني، الـذي أعاد تركيبه چـاك هارمان، والافتراضي بـالضرورة (فالنصوص الباقية من الـعصر القديم تسمح بتفسيرات مختلفـة)، إنما يبدو لي معقولاً. وربما جاز لنا أن نـتصور هذه الغارات الظافرة علـى أنها شبيهة بالغارات الـتي شنها في ١٠٢ ـ ١٠١ قبل المـيلاد السيمبـر والتيوتون (قبائـل جرمانية، وإن كانـت ذات عناصر ثقافة كلتية)، أو بشـكل أرجح شبيهة بهجرة الهلفيت والتي سوف يـوقفها قيصر في عام ٥٨ قبل الميلاد عند بداية الحروب الغاليـة: طوابير طويلة من الرجال والنساء والأطفال والمركبات وراكـبي الخيول ـ شعب بأسره يتـحرك، في مسيرات غير منـظمة أثرت مع ذلك على مجمل مـصائر أوروبا والبحر المتوسط على مدار قـرون من الزمن. وخلقت مواجهة بـين أوروبا الداخليـة وأوروبا المتوسطيـة، وبين القبائـل والدول ـ المدن(٨١)، وبين البرابرة والمتحضرين، وبين اقتصاد بـدائي واقتصاد قائم على النقود. وفي عهدهم الطويـل، لم تكن للـكلتيـين قط أية مدن حـقيقية ولا دولـة ذات هياكل مـتطورة ولا، بالأحرى، **امبراطـورية**. ولـم تكن لديهم أية أهداف سياسية طويلة الأجل ولا فتوحات مخطـطة بدهاء. فروح المـغامرة واشتهـاء الأسلاب وأحياناً أيضـاً، دون ريب، الأفواه الإضافـية التي يـجب إطعامـها، هي التـي دفعتهـم إلى غزواتهـم. وكان بوسعـهم أن يختـصموا فيـما بينـهم أو أن يؤجروا أنـفسهم كـمرتزقة لـلإغريق في صـقلية أو آسـيا

الصغرى، أو لـلمصريين وللقـرطاجنيين. ويقول لـنا ميشليه "إن أي واحد يـبحث عن الشجاعة العمياء والدم الذي يراق عن طيب خاطر، كان يستأجر غاليين"(٨٢).

غاليـون أم كلتيون، لا فـرق هناك فهم شعـب واحد. فالكلـتيون المعـروفون لدى الإغريق **بالكيلتوي**، قد سُموا عندما استقروا في غاليا **بالجاللي** - الغاليين - من جانب الرومان. وتيسيـراً للأمر، سوف أسميهم بالكلـتيين عندما أتحدث عن الـجماعة ككل، بينما سوف أسميهم بالغاليين عندما أتـحدث عن سكان ما سوف تصبح فيما بعد فرنسا. إلاّ أنه عندما يعرض قيصر في بداية **التعليقات** أقسام غاليا، نجد أنه يصف بـ "الكلتي" القسـم الأوسط من البلد الـمعرض للهجـوم - من الجارون إلى الـسين - تمييـزاً له عن آكيتين جنوباً (بين البرانس والجارون) وبلجيكا شمالاً (من السين إلى الراين).

وبعد أن غزا الـكلتيون غالـيا من جهة الشرق، اسـتقروا بأعداد كبـيرة في الألزاس واللورين وشـامپانيا وبورجـونيا(٨٣)، حيث استـخدموا الغابات وركائز الـحديد. وفي الأماكـن الأخرى، كان تركـزهم أقل كـثافة - إذ نادراً مـا سكنـوا في المورفـان أو في المسيف الأوسط. وفي اتـجاه الجنوب، واجهوا مقاومة من الايبيـريين في الغرب ومن الليجور في الشرق؛ فعلى كل مـن جانبي وادي الرون الأدنى، أمكن وقف زحفهم. إلاّ أنه أياً كان الأمر، فإن السكان المحليين، وإن كـانوا قد تعرضوا للإخضاع وللقمع بهذه الدرجة أو تلك، لم يتم محوهم فـي أي مكان. والحال أن هنري هوبير(٨٤)، الذي مـا تزال أعماله حول الـكلتيين من الكلاسيـكيات، يشدد على أعداد الغزاة الـضخمة جداً: بعبارة أخرى، لابد من النظر إلى الامتدادات اللغوية والثـقافية والاجتماعية لغاليا الكلتية على أنها نتاج لتـمازج عرقي مهم. والواقع أن هؤلاء الكلتيين - وهم بـالفعل خليط من الأجناس عند نقطة انطلاقهم في أوروبا الوسطـى، كما تسنى لهم، شأن جميع الشعوب المهاجرة، ضم كـتلة من جماعات أجنبيـة أخرى على طريق تحركهم - قـد قضوا وقتاً طويلاً فـي غاليا، حيث تـصرفوا بوصفهـم سادة، بما سمح لـهم بالاختلاط بالـسكان المفتوحين. وقد حدثت سيرورة استيطان وتثاقف على مدار عدة قرون.

وتتمثل نجاحات الكلتيين في أنهم قد مدوا وفرضوا لغتهم وأسلوب حياتهم في كل مكان في غاليـا، فيما عدا الجنوب، ويمكن جزئـياً تفسير نجاحهم الثقـافي بالاقتصاد: لقد ازدهر وشجع التـبادل. ويجب أن نلاحظ أن الكلتيين لم يجـلبوا لا زراعة الحبوب ولا المهارات الحرفية إلى غاليا: فقبل وصولـهم، كانت تجرى زراعة المحاصيل حيثما سمحت بذلك الغـابات أو السبخات أو فيضانات الأنهار (الواقع أن الـغابات كانت أكثر

انتشاراً مما هي الحال اليوم، خاصة في شمال اللوار: فقد كانت تغطي البوس والأورليانيه والجاتينيه والبليزوا والپيرش...)(٨٥). وكان الشعير والقمح يُزرعان منذ قرون بالفعل، شأنهما في ذلك شأن الدُخن. وما لم يكن موجوداً بعد هو حشيشة الدينار والشوفان والكستناء وبالأخص أشجار الكروم؛ لكن هذه الأخيرة، بما أنها قد جاءت إلى پروفانس بعد وقت قصير من فتح روما لها في عام ١٢١ قبل الميلاد، لن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تصل إلى الأرض الكلتية. وبالمثل، كان الغاليون يتبنون تقليداً أقدم بكثير من تقليدهم الخاص عندما أرسلوا إلى الرعي (في الغابات عادةً) قطعان الأغنام والماعز والثيران والخنازير بأعداد كافية تمكنهم من تصدير اللحوم المملحة والصوف إلى روما، حتى قبل الفتح. ومن الناحية الأخرى، ربما كان الكلتيون مسئولين عن التبني الواسع الانتشار للحصان ـ أحد أهوائهم الكبرى(٨٦) ـ ومن المؤكد أنهم كانوا مجددين في تكنولوچيا صوغ الحديد في مقاطعات كثيرة كانت ما تزال تجهل هذه التكنولوچيا في أوائل فترة لا تين. ثم إنهم كانوا مسئولين عن التطوير الواسع النطاق للأدوات الحديدية في **الزراعة**، وهي الأدوات التي كانت ما تزال نادرة نسبياً في زمن الهالستات.

وأياً كان الأمر، فإن الريف الذي اجتازه قيصر خلال حروبه الغالية كان بحلول ذلك الوقت مأهولاً بمزارعين مجربين من المؤكد أنهم كانوا أكثر تقدماً من الرومان. ومن غير المحتمل (بالرغم من مزاعم بعض المتحمسين) أنهم قد ابتكروا المحراث الثقيل: فشفرات المحاريث الحديدية الكثيرة التي عُثر عليها كان بالإمكان أن تتناسب مع مجرد محراث يدوي، وليس مع المحراث ذي العجلات الحقيقي الذي يقلب التربة في عين الوقت الذي يحفر فيه أخدوداً. إلاً أن من المؤكد أن الغاليين قد حسنوا تقنيات الحراثة، لأنهم كانوا عشية الفتح يزرعون تربات ثقيلة كان من شأن المحراث اليدوي البسيط أن يكون غير كاف للتعامل معها(٨٧)، وكان الايدوان، حول بيبراكت، قد تبنوا ممارسة تكليس الأرض(٨٨). كما أن الغاليين قد استخدموا أدوات زراعية ممتازة ـ مناجل كبيرة للحصاد، مناجل عادية، فؤوس، بل وأداة تدعو إلى العجب لم يُعثر على مثيل لها في مختلف الأماكن، وهي عبارة عن حصّاد ـ درّاسة، يوضح پليني الأكبر أنها "آلة تتألف من حاوية ذات حافة مسننة، مركبة على عجلتين ويجرها ثور، بحيث إن سنابل القمح تسقط في الصندوق". وكانت غاليا غنية بنباتات الحبوب ـ وهي نعمة ذات حدين، حيث أن غزاتها لم يجدوا صعوبة في العيش على حساب الأرض أثناء شقهم لطريقهم شمالاً.

وفي غاليا، سوف يجد الرومان أيضاً حرفيين ذوي مهارة غير عادية. وهؤلاء الحرفيون الذين كانوا صائغين للحديد لا منافس لهم وتمكنوا من تكنولوجيا كلٍ من الحديد المطاوع والقصدرة (الواقع أن بليني ينسب إلى البيتوريج ابتكار القصدرة)، كانوا أيضاً صاغة بارعين للرصاص وللفضة وللذهب. وتجاوباً مع عشق الغاليين للحلي، صاغ حرفيوهم مجوهرات جميلة وحلياً رائعة مطلية بالمينا (أحد تخصصاتهم) ودروعاً رائعة ولجامات جد مزخرفة للجياد، وقد استخرجوا الحديد والذهب في أماكن مثل براسمپوي على حافة الليز ـ دو ـ فرانس في السيفين: وهنا، في عام ١٨٥٠، نجد أن الطحان المحلي، الذي كان أيضاً چيولوچياً هاوياً، قد "عثر على عملات معدنية ترجع إلى زمن غاليا قبل الرومانية"(٨٩). كما أن السيوف الكلتية، من القرن الرابع إلى القرن الأول قبل الميلاد، تعد دليلاً على استيعاب متزايد لتقنيات طرق وكربنة الحديد، بينما تظهر نحو ذلك العصر نفسه مجموعة متنوعة غير عادية من الأدوات المتخصصة لتشكيل الجلود وللحفر على الخشب وللنقش على المعادن ـ أي مجمل سلسلة الأدوات الحديثة تقريباً(٩٠).

كما كان الغاليون نساجين لكل من الكتان والصوف، وكانوا يصبغون منسوجاتهما بالألوان الزاهية التي كانوا مغرمين بها. وكانوا أكفاء في أعمال الخشب والجلود، حيث استخدموا تقنيات غير معروفة للرومان: إن برميل النبيذ، وهو بديل مناسب لقارورة الأمفورة، كان ابتكاراً كلتياً. وكانوا أول شعب في أوروبا يصنع الصابون، ولم يكونوا فقط صناع أحذية أكفاء (ينتجون القباقيب الثقيلة ذات النعال السميكة والمعروفة **بالجاليكاي**)، بل كانوا أيضاً صناع خزف وفخاريات جيدين.

كما شهدت غاليا قبل الفتح ظهور المدن، مدشنةً بذلك ما يمكن وصفه دون مبالغة بصناعة حرفية حضرية. ودون رغبة من جانبي في مد المقارنات إلى مسافات بعيدة، فإن ظهور طوائف الحرف في مدن فرنسا في القرن الثاني عشر الميلادي يبدو بالمثل أنه قد رمز إلى نقطة تحول في الحياة الحضرية والصناعية ـ كما سوف نرى فيما بعد(٩١). فهل يجب أن نلحظ ذلك بشكل خاص في غاليا؟ وبما أن الجزء الأدنى من المدينة في بيبراكت قد شمل مركزاً بأكمله مخصصاً للحرفيين، فهل يجب أن نعتبر ذلك علامة على تقسيم متزايد للعمل، هو الظاهرة المصاحبة بالضرورة للتقدم الاقتصادي؟

إن هذا الاقتصاد القائم على الزراعة والحرف قد شجع عليه تدفق رشيق تماماً للحركة. فقد وفرت غاليا قبل الرومانية سبلاً مختلفة للنقل. ولم تكن طرقها البرية قد

أصبحت بعدُ، ربما، طرقاً بالمعنى الصحيح للكلمة، لكنها كانت موجودة مع ذلك كما كانت هناك طرق بحرية ونهرية. وسوف ترث روما هذه الطرق. ومن غير الممكن تصور أن الطرق كانت سيئة إلى الحد الذي وُصفت به، فهي قد حملت عربات تتحرك على عجلات: ليس فقط العربات الباذخة ـ **الايسيدوم والكاربنتوم** ـ وهي مركبات سريعة وخفيفة كالعربات المستخدمة في الحرب ـ وإنما أيضاً العربات الثقيلة التي تتحرك على أربع عجلات، **الكارّوكا والريدا والبيتوريّتوم** (كل العربات الكلتية التي صنع الرومان نماذج منها في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد) والتي كانت تجرها حيوانات(٩٢). وعلاوة على ذلك، فإن الانتقال عبر غاليا من الشمال إلى الجنوب إنما يؤدي إلى مد طرق الكهرمان العظيمة، بل وبدرجة أكثر أهمية بكثير، طريق القصدير من بريتانيا وإنجلترا، والذي كان يمر عبر رووان ثم يهبط السين والسون والرون إلى مارسيليا. ويمكن وصف الجزء الأخير من هذا الطريق بأنه طريق الآرفيرن، الذين سيطروا على مساره على طول الرون.

كما كانت هناك ممرات بحرية. ولم يكن الكلتيون شعباً يتعامل مع البحار، وأسباب ذلك واضحة. لكنهم وجدوا في آرموريكا بناة مراكب وبحارة محليين، خاصة في البحر الداخلي لخليج موربيهان، بجزره وجزره الصغيرة. وكان ذلك البلد هو البلد الشهير للفينيت الذين كانت مصائرهم البحرية (إذا ما صدقنا آلان جيليرم(٩٣)) قد شجع عليها أو أكدها ظهور سفينة فينيقية قبالة الساحل البريتوني في القرن الخامس (رحلة هيميلكون). ويبدو أن هذا قد دشن بداية أسطول الفينيت الشهير؛ إن سفنهم الكبيرة والمتوسطة الحجم، المبنية في غاليا، قد قامت برحلات منتظمة بين سواحل المحيط الأطلسي والمانش، وإلى إنجلترا وإلى جزر سكيلي حيث كانت توجد إمدادات ثرية من القصدير. وبترتيب مع قرطاجنة، نقلت هذه السفن خام القصدير من كورنواي إلى ميناء فيجو الكبير، وطالما كانت قرطاجنة مسيطرة على إسبانيا، فقد واصلت الملاحةُ من موربيهان التوسع شمالاً وجنوباً، مثلما فعلت ملاحة بلاد الأوسيسم (فينيستير الحالية). لأن أسطول الفينيت، مع أنه كان الأسطول الأكبر، لم يكن الأسطول الوحيد في الإقليم. وقد تعاون، مثلاً، مع السفن المتحركة بين فينيستير والايسكو. ثم إن سفن البيتكون والسانتون، بين اللوار وجيروند، سوف يصادرها قيصر لاستخدامها في حملته ضد آرموريكا(٩٤).

ويستخدم قيصر في **تعليقاته** مصطلحين لوصف مدن غاليا: إما أوبيّدوم، أي

الحـصن، أو **أوربـس**. ولكن هل كان يستخدم الكلمة الأخـيرة (والتي تشير من الناحية النظرية إلى مدينة متطورة تماماً) كمجرد مرادف لتجنب التكرار؟ إنه يسمي آليزيا، مثلاً، **أوربس**، تارةً، **وأوبيّدوم**، تارة أخرى. والحق إن شبكات المدن ـ القرى في غاليا قبل الفـتح كانت فـي واقع الأمر شبـكات بورجـات ـ قرى ـ قرى صغـيرة. وكانت الـقرى الصغيـرة مجرد مجموعـات عشوائية من الأكواخ الـمبنية من اللـبن والمسقوفـة بالقش وعديمة النوافذ (كان الدخان يخرج عبر السقف). وربما كانت البورجات قد أدت بعض الوظائف الحضرية، لكنها مجرد وظائف أولية. أمَّا المدن الوحيدة المهمة فهى الأوبِّيدا. ولذا فقد جـرت العادة على اعتبار كـل مدينة قلعة وكل قـلعة مدينة. وفيمـا عدا بعض المعاقل المحمية بالماء ـ مثل بورج (آفاريكوم)، عاصمة البيتوريج ـ كانت **الأوبيدا** تبنى على التلال عـادة، وتلك حالة بيبراكت وجيـرجوفيا... وكانت تُحمى عمـوماً بخندق مائي عميق وسور سمـكه نحو أربعة أمتار، **المورس جالـليكوس** الشهير (الـمبني من الحجارة والتراب والذي يعتمد على دعامات خشبية)، الذي يحيط بها ويترك في الداخل مساحة شاغـرة واسعة (١٣٥ هكتاراً في بيبراكـت، ٩٧ في آليزيا(٩٥)). وفـي أوقـات الخطر، كانت هذه ملاذات للناس من المناطق المجاورة ولقطعانهم. لكن هذه المساحة كانت تشغلها أحياناً بيوت، وأحياناً مـجمع ارستقراطي أو معبد أو ورش حرفيين ـ وهو تفصيل مهم، كما أشرنا بالفعل. والمشكلة هي ما إذا كان يجب أم لا يجب اعتبار هذه الحصون مدناً بالمعـنى العادي للكلمة، أي مراكز سياسية ودينـية واقتصادية ـ أياً كانت أهميتها أو كفاءتها من هذه الناحية الأخيرة. والحال أن فينشيلاس كروتا، وهو واحد من أكثر المتخصصين دراية بالتاريخ الكلتي، إنـما يشدد على أنها كانت مدناً حقيقية؛ لكن مؤرخين آخرين كثيرين ينفون ذلك.

على أنـه يبدو لي أن الدليـل على دورها الحـضري تقدمه الـتحولات المرئيـة التي جرت في القرنين الثانـي والأول قبل يسوع المسيح. فخلال هاتين المائـتين من السنين ظهـرت **الأوبيّـدا** لأول مرة. وحتى ذلك الحين، لم يكن الـكلتيون قد شيدوا حصوناً؛ فمن المرجح أن قوتهم التي لا تواجه تحدياً قد وفرت الأمن، نوعاً من **السلام الكلتي**. وسوف يصدُق هذا الكلام نفسه على الأزمنة الأولى **للسلام الـروماني** في غاليـا. فهل يجب إذاً أن نعتـبر نمو المدن التلية والـحصون الملاذات مجرد نتيجـة لانحدار في قوة القبائل الكلتية، مع تكاثر الصعوبات والمخاطر حول هذه القبائل؟ ويخطر ببالي احتلال "بروفانس" من جانب الرومان في عام ١٢١ قبل يـسوع المسيح، أو الهجرات الدرامية

من جانب السيمبر والتيوتون في عامي ١٠٢ و١٠١ قبل الميلاد. وهؤلاء الناس الذين لا نعرف بشكل مؤكد أرومتهم، وهي جرمانية على الأرجح، لكنهم يحيون على الحدود الشمالية للأرض الكلتية الأصليّة، على البلطيق وبحر الشمال، جنوب جوتلاند، قد تأثروا بانتشار الحضارة الكلتية (بل إن قادتهم كانت لهم أسماء كلتية). إلاّ أنهم، سواء أكانوا قد تكلتوا أم لا، قد جاءوا كغزاة، ينهبون المدينة والريف. ومع أن فينشيلاس كروتا يميل إلى التقليل من شأن التهديد الذي مثلوه (زاعماً أن المخاوف الرومانية قد بالغت في تصويره(٩٦))، فمن المؤكد أن الحرب كانت متوطنة بين القبائل الغالية. ولذا فلابد أن **الأوپيدا** قد أدت وظيفة دفاعية، حيث وفرت ملاذاً للسكان المحليين. ثم إن هذه المدن التلية سرعان ما سوف تثبت أنها السبيل الوحيد لمقاومة الرومان، في داخل غاليا وخارجها. ولم يتم قهرها إلاّ عبر حصارات طويلة: نومانس في إسبانيا (١٣٤ ـ ١٣٣ قبل يسوع المسيح)، آليزيا في غاليا (٥٢ قبل يسوع المسيح).

حسناً، ولكن هل هناك أي سبب لأن يؤدي الدور الدفاعي لهذه المدن، وهو دور كل مدننا في العصر الوسيط، تلك المدن المحاطة دائماً بالأسوار، إلى حرمانها من دور اقتصادي؟ إن فينشيلاس كروتا، على العكس من ذلك، إنما يربط ظهور **الأوپيدا** بتغير اجتماعي أدى إليه انتهاء التوسع الكلتي، وهو تغير أصبح حاسماً بحلول عام ٢٢٥ قبل يسوع المسيح. فحتى ذلك الحين، لم تكن هناك مدن: إن "الفلاحين المسلحين"، وهم نوع من "ميليشيا ريفية"، قد عاشوا كرجال أحرار في قرى صغيرة تتألف من بيوت قليلة، مستعدين دائماً للسير خلف زعيم ما في مغامرة مرتزقة ما أو فتح جديد. وبمجرد انتهاء التوسع، تجمع السكان في نقاط معينة من الأرض، وهو تطور أدى إلى وضع الفقراء في وضعٍ تابعٍ بدرجة أكبر، وإلى هيراركية أكثر وضوحاً وإلى التقدم الاقتصادي العام الذي كانت **الأوپيدا** نتيجته بشكل محدد(٩٧). فكيف لا يمكننا أن نتفق مع كروتا هنا؟ إن الأمر لا يقتصر فقط على قيام مجتمع فلاحي نشيط بخلق الوظائف الحضرية التي يؤديها البورج، بل إن وجود طرق تجارية منتظمة عبر غاليا من شأنه هو نفسه أن يتطلب سلسلة من مواقع الانطلاق المنتظمة، ومن شأن تبادل السلع والخدمات أن يميل إلى التشجيع على الاستقرار البشري الدائم. ألم يصادف قيصر على أية حال، خلال حروبه الغالية، تجاراً من الرومان يحيون في سينابوم (أورليان) ونوفيودونوم (نيفير) وكابيللونوم (شالون ـ سور ـ سون)(٩٨)؟ وعندما تبنى فيرسينجيتوريكس تاكتيك حرق المدن أمام الرومان الزاحفين الذين كان من عاداتهم الحصول على امدادات منها،

الشكل ١٤

غاليا قبل الفتح الروماني

رفض البيتوريج السماح بتعريض عاصمتهم آفاريكوم لهذا المصير، بسبب "بهائها".

وطبيعي أننا لا يجب أن نتصور أن هذا "البهاء" كان معمارياً؛ إذ لم يتم العثور على بنايات حجرية في مواقع المدن الغالية. فالبيوت كانت تُبنى غالباً من الوتَل والجص، وقد تساءل شيشيرون: "هل هناك أي شيء أكثر قبحاً من **أوبِّيدا** غاليا؟"(٩٩). يجب علينا بالأحرى أن نفكر من زاوية "بهاء" اقتصادي. وفي هذا السياق، دافع البيتوريج عن مدينتهم دفاعاً كلفهم غالياً. وعندما سقطت، وجد قيصر كميات ضخمة من الحبوب المخزونة هناك(١٠٠). ومن المؤكد أن مركز بيبراكت الحرفي يقدم دليلاً أقوى بكثير في هذا الاتجاه نفسه. ولا شك أن هذا كان هو رأي البيرجرينيه في مقال كُتب منذ وقت طويل، عن أعمال التنقيب هناك(١٠١). فهل يُعتبر الآن جيليرم محقاً إذاً عندما يفسر ترددات پول ـ ماري ديفال المتعقلة حول هذه المسألة على أنها دعم لرأيه هو ـ والذي يذهب إلى أن الغاليين لم يعرفوا لا المدن ولا الدول(١٠٢)؟ من المؤكد أن پيير بونّو محق أكثر عندما يقول إنه "في حين أن الغاليين لم يعرفوا بالفعل مدناً بالمعنى الأصيل للمدن، إلاّ أن جميع العناصر الصالحة للمدن كانت موجودة بالتأكيد بينهم... ومن هذه العناصر ولدت مدن أوروبية كثيرة في غرب ووسط أوروبا، وكان بعضها متواضعاً، بينما كان كثير منها كبيراً جداً"(١٠٣).

إن هذا العرض السريع جداً لاستقرار الكلتيين في فرنسا قد ترك جانباً عن عمد المشكلة الأساسية التي يطرحونها: كيف يمكننا أن نعرف الحقيقة عن حضارتهم ككل؟ وهل كانت هذه الحضارة تتميز بأي تماسك شامل، يتجاوز تبعثر الكلتيين إلى قبائل مختلفة، بل وإلى دول مستقلة، كل واحدة منها تغار من الأخريات غيرة قاتلة؟ عند النظر في إمكانية مثل هذه الوحدة، سنجد أن مشكلة التنظيم الاجتماعي والعقيدة الدينية مشكلة محورية، ودور الدرويد يمكن أن يكون أي شيء إلاّ أن يكون مجرد حكاية. وسوف أعود إلى هذا الموضوع في فصل آخر.

انتصار العدد

هل يمكننا استخلاص أية استنتاجات مهمة من هذا العرض العام السريع ـ القصير جداً والطويل جداً في الوقت نفسه بما لا يجعله صالحاً لإيجاز ما قبل التاريخ الفرنسي؟ فهو قصير جداً إذا ما تذكرنا مجموعة المعلومات التي نحوزها، والحق إنها جزئية ومبعثرة؛ لكنه طويل جداً بالنسبة للقاريء غير الملم بمثل هذه الأمور، بحيث يتعذر

عليه أن يتذكر تفاصيل الصورة التي حاولنا رسمها.

ربما تعين، بشكل خاص، استنتاج أن المنطقة التي تغطيها فرنسا كانت منذ أزمنة جد مبكرة مأهولة بشكل غير عادي. وجزئياً، يمكن تفسير عدد السكان الكبير بالموقع الجغرافي: فقد كانت هذه المنطقة مفرق طرق، ونقطة التقاء، وموقع تلاق. وقد وصف إيمانويل دو مارتون(١٠٤) أوروبا مرة بأنها قُمع من الشرق إلى الغرب، حيث تضيق أراضيها عندما يقترب المرء من المحيط الأطلسي. وهكذا كانت فرنسا هي عنق الزجاجة الذي يمر به كل شيء قبل أن يتوقف عند وصوله إلى ساحل المحيط. وهكذا أصبحت شبكة، أو مصيدة، كان على الجماعات السكانية أن تمتزج فيها الواحدة مع الأخرى. ويرى كولان رنفرو أن تركز الناس على ساحل البحر، وهو تركز ملحوظ بالفعل في الأزمنة الميزوليتية، إنما يفسر ظهور الميجاليتات في بريتانيا ـ الظاهرة الأكثر غرابة في ما قبل التاريخ الفرنسي. وهو يذهب إلى أنه بعد إدخال الزراعة على أيدي المهاجرين الجدد، لابد أن النمو السكاني السريع قد أدى إلى أن تصبح الأرض نادرة. ومن ثم فإن كل جماعة قد سعت إلى أن تتجمع حول معالمها المميزة، والتي كانت في آن واحد عبارة عن موقع دفن جماعي ورمزاً لملكية الأرض(١٠٥).

ويقال إن جماعات سكانية مختلفة قد تجمعت وتمازجت هنا: يقول الباحث الأنثروبولوجي ريمون ريكيه(١٠٦) إن الزيجات المختلطة قد اتخذت أبعاداً ضخمة في فرنسا، بحيث إنه بحلول الأزمنة النيوليتية كان السكان "قد أصبحوا حديثين ببساطة تامة"، متخذين "مظهراً فرنسياً أكثر وضوحاً بالمعنى الحالي للمصطلح"، أي مظهراً دالاً على التنوعات العرقية المميزة للشعب الفرنسي اليوم ـ الجماعات الألبية والشمالية والمتوسطية واللورينية. وهذا الكلام يدعم ملاحظة فردينان لو الاستفزازية: "إذا كان فرنسي معاصر يريد أن يعرف الشكل الذي كان عليه أسلافه، فما عليه إلاَّ أن ينظر حوله أو في المرآة"(١٠٧).

وطبيعي أن الشيء الأهم بالنسبة لاستنتاجاتنا هو مسألة الأعداد. ترى كم كان عدد أسلافنا؟ لا أهمية كبيرة لواقع أننا لا نستطيع تقديم رد حاسم على هذا السؤال. وعلى مدار عشرين سنة على الأقل، أخذ الباحثون في مجال ما قبل التاريخ يبدون اهتماماً متزايداً ببيئة السكان قبل التاريخيين وبحجمهم وبكثافتهم وبتوسعهم. وفي هذه المناقشة، نحتاج إلى بعض المعايير. فعندما تتزايد الكثافة السكانية (كما ذكّرنا بذلك كولان رنفرو)(١٠٨) فمما لا شك فيه أن كل شيء آخر إنما يتأثر بذلك: الاستيطان،

كثافة الزراعة، الهيراركيات الاجتماعيـة، تقسيم الأرض. وبعد آلاف من السنين التي لا تُعد، والتي قضاها الإنسان في الترحل والصـيد وجمع الثمار، أصبح "الإنسان الصياد" "الإنســان الـزارع"(١٠٩). وقد استـقرت الزراعة تدريـجياً، بيـنما زاد السكـان قبل التاريخـيين زيادة متواصلة، ربـما بمعدل ١٠ إلى ١ أو حتى ١٠٠ إلـى ١. وأصبحت "فرنسا" تدريجياً ساحـة تغطيها القرى والقرى الصغيرة والأراضي المـنتزعة من الغابات والأراضي الزراعية والناس، خاصة في الألف الثـالثة، حتى نحو عام ١٨٠٠ قبل يسوع المسيح. ونـحو هذه الذروة، إذا ما قبلنا حسـابات لوي ـ رينيه نوچييـه المفيدة(١١٠)، فربما كانت الأرض التي عرفت فيما بعد بغاليا قد ضمت زهاء خمسة ملايين من البشر، وفي الحـد الأدنى مليونـين ونصف ملـيون إنسان. ويـمكن عقد مـقارنات مفيـدة بين الخرائط التي تبـين المناطق الزراعية النيولـيتية والمناطق الزراعية الحـالية. بل إن هناك أقاليم كانـت المواقع السكانية فيـها في زمن التوسع الكاسّي أوفـر عدداً مما هي الآن. وسوف يكون الباحثون في مجال ما قبل التاريخ محقين عندما يذكروننا بأن هذه المواقع ليست كلها بالضـرورة معاصرة أحدها للآخر، وبأنه لا يمكن الجمع بـينها ببساطة دون خطر الوقـوع في الخطأ. لكـن هناك علامات أخرى علـى فائض سكاني: الـقرى التي تحيط نفسها بأسوار وبخنادق مائية حـامية، والتي تراكم مخزونات ضخمة من الأغذية، استعـداداً للحرب. وفي مـواقع الدفن الـجماعي، وجد الـمنقبون أكـواماً من الهـياكل العظمية التي تخترقها رؤوس سهام(١١١).

ألا يمكننا أيضاً أن نعتبر الانحسار الـطويل والعميق الذي حدث خلال الألف الثانية قبل الميلاد علامة على فائض سكاني سـابق؟ هناك علامات واضحة على الشقاء خلال هذا الانحدار الذي لم يتم بعدُ التـوصلُ بشكل مؤكد إلى أسبابه(١١٢). فهل يحـتمل أن هذا العصر كان عـصر أوبئة، كوباء الطاعون الأسود، الـذي دشن إلى هذا الحد أو ذاك حرب الأعوام المائـة المتواصلة في أوروبا؟ إن مـثل هذه الأوبئة، والتي جرى تـقديمها كتفـسيرٍ بالنـظر إلى غياب أي تـفسير أفضل، ربـما تكون قد تـرتبت على تـدهور في المناخ. إلاّ أن بالإمـكان طرح افتراضات أخرى: المـجاعة مثلاً، والتي ربمـا تكون قد نتجت على وجه التحـديد من الزيادة السكانية المفرطة (كما كـانت الحال قبل الطاعون الأسود بوقت قصير)؛ أو الحروب ذات النوع التدمـيري، والتي نتجت إمّا عن نقص في الأراضي الجديدة، أو عن غزو أجنبي وهو ما يبدو أنه كان الأمر الذي حدث في أواخر عصر الحديد الأوْل، في الألف الأولى قبل يسوع الـمسيح. وأياً كان السبب، فقد كان

الشكل ١٥

الاستيطان في حوض اللوان في الأزمنة النيوليتية واليوم

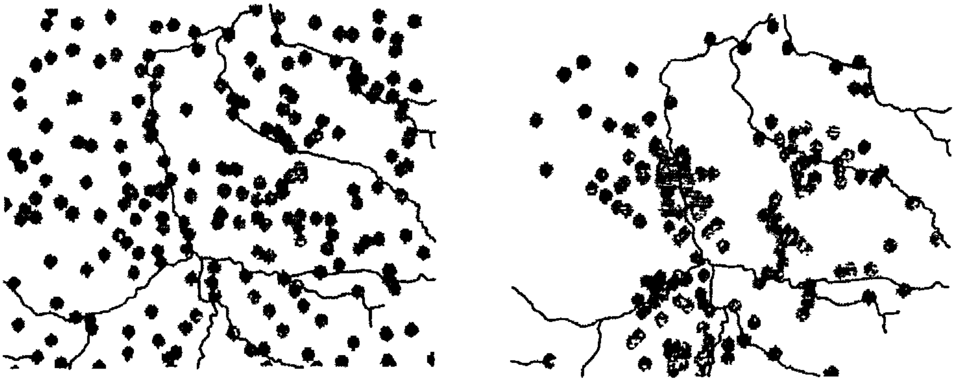

يكمن الفارق في أنه لم تكن هناك مستوطنات نيوليتية في الوديان الغرينية للوان وللفاي، ولا شك أن السبب في ذلك هو أن هذه الوديان كانت سبخة، في حين أن الهضاب تترك اليوم إيثاراً للوديان. ويرى ل. ر. نوجييه أن كثافة الاستيطان في الأزمنة النيوليتية في هذا الإقليم (حيث كانت هناك مواقع أكثر مما هي الحال اليوم، وإن كانت أصغر بكثير) كانت تتراوح بين ١٠ و٢٠ في الكيلومتر المربع الواحد.

نقلاً عن:

L.-R. Nougier, *Le Peuplement préhistòrique*.

هناك استئناف واضح للنمو خلال عصر الحديد الثاني، وقد استمر النمو حتى عشية الفتح الروماني.

ومن غير المحتمل أن غاليا قد ضمت بحلول ذلك الوقت العشرين مليوناً أو أكثر من السكان الذين تحدث عنهم هنري هوبير والكسندر مورو دو چونّيس وفردينان لو وألبير جرينييه وكاميل چوليان. لكن الاحتلال الكلتي، هنا كما في أماكن أخرى من أوروبا، لا مراء في أنه قد تزامن مع عصر زراعة كثيفة، في أرض مزدهرة وكثيفة السكان أيضاً (بل وتشكو من فائض سكاني بحسب الكتاب اللاتينيين الذين اعتبروا ذلك سبباً لنزوح أعداد كبيرة من الغاليين). ومن المحتمل أن السكان قد وصلوا إلى الملايين العشر التي قدرها يوليوس قيصر نفسه. ويقترح كارل يوليوس بيلوك حداً أقصى قوامه خمسة ملايين وسبعمائة ألف(١١٣)، أمّا جوستاف بلوخ فيقدر عدد السكان بخمس ملايين(١١٤)، بينما يقدره يوچين كافينياك بثماني أو تسع ملايين(١١٥)، بعد قيامه بتحليل نقدي للإحصاء الذي أورده قيصر في **الحرب الغالية**، خاصة التقديرات المتعلقة بالتعزيزات التي حشدها الغاليون خلال حصار آليزيا (٥٢ قبل يسوع المسيح).

فهل يجوز لي أن أقول إن هذه الأرقام الأخيرة تبدو لي منخفضة إلى حد ما ـ خاصة وأن الناربونّيه، التي كانت بالفعل ولاية رومانية منذ أكثر من سبعين سنة، كانت مأهولة بالكثافة التي كانت إيطاليا نفسها مأهولة بها؟ إن كارل فردينان فيرنر، إذ يقبل رقم "أكثر من سبع ملايين" بالنسبة لغاليا وحدها، إنما يؤيد رقم "ما بين ٧ ملايين و١٢ مليوناً" في مجمل المجال الغالي، أي غاليا والولاية الرومانية(١١٦). وأياً كان الأمر، فإن بوسعنا على أية حال أن نحسب من هذه الأرقام أن "غاليا قبل غاليا" ـ من الألف الثالثة قبل الميلاد إلى العصر المسيحي أو نحو ذلك ـ كانت مسرح تحولات سكانية مختلفة طويلة الأجل، صاعدة أولاً، ثم هابطة، ثم صاعدة مرة أخرى. وما نحن بإزائه هنا هو دورات **متعددة القرون** كما أشرت بالفعل، تشبه، وإن كانت أطول زمنياً، الدورة الكلاسيكية، إن جازت هذه التسمية، والتي بدأتْ في القرن الحادي عشر الميلادي ووصلت إلى الذروة نحو عام ١٣٥٠، لتنحدر بسرعة على مدار السنوات المائة التي استغرقتها حرب الأعوام المائة بالتحديد (من عام ١٣٥٠ إلى عام ١٤٥٠). ولم يشهد ما قبل التاريخ مثل هذه الدورات "السريعة" في المنطقة التي شغلتها غاليا، لكن تناوب هذه الحركات الدورية يشبه في عمقه تناوب الحركات الدورية التي حدثت بمعدل مختلف في فرنسا في العصر الوسيط.

على أن مثل هذه الدورات، حتى عندما تكون جد بطيئة ولا نهاية لها على ما يظهر، إنما تنطوي على تماسك معين: إذ لا يحدث تمزق مطلق للاستيطان، بل تبرز درجة ملحوظة من تبادلات السلع والثقافة والتكنولوچيا والناس - بعبارة أخرى يبرز شيء يصبح بالفعل أكثر شبهاً بالتاريخ، الذي لا يمكن إلاَّ أن يكون نتاج أو أثر درجة معينة من الكثافة، مستوى معين للسكان.

وهكذا فقد كانت هناك "غاليا قبل غاليا"، بعبارة أخرى، كانت هناك استمرارية بين ما سبق غاليا وغاليا نفسها. وأنا أميل إلى أن أقبل (بالرغم من التحفظات المقدمة على حجة نوچييه الأساسية: عدد القرى والمستوطنات) رقم الملايين الخمس كرقم للسكان قبل التاريخيين نحو عام ١٨٠٠ قبل يسوع المسيح. ولو كان ذلك هو الواقع، فمعنى ذلك أن التكوين البيولوچي كان بالفعل **قد استقر** بحلول نهاية العصر النيوليتي، وأن المزيج العرقي كان قد تحقق بالفعل وأصبح محسوماً. والحال أن الغزوات التالية - خاصة غزوات الكلتيين - بالرغم من عنفها وجبروتها، وبالرغم من قوتها من حيث آثارها الثقافية، سوف يتم استيعابها في كتلة الجماعات السكانية الموجودة من قبل، والتي سوف تُقهر وأحياناً تُطرد من أرضها، لكنها تتزايد عدداً من جديد وتستأنف الازدهار. وطبيعي أن هناك أماناً في الأعداد. ألن يصدُق الأمر نفسه في وجه الفتح الروماني وغزوات البرابرة في القرن الخامس الميلادي، بل وحيال المهاجرين الكثيرين الذين سببوا شيئاً من القلق في فرنسا الآن؟ إن ما كانت له الأهمية في نهاية المطاف هو الكتلة، الأغلبية المستقرة. فعلى المدى البعيد، لا مفر من استيعاب الجميع فيها.

لكننا لسنا بحاجة الآن إلى التطرق إلى هذه المشكلات. فمهمتنا الآن إنما تتمثل في تحديد مكانة التراث الحي الواسع لزمن ما قبل التاريخ. ففرنسا والفرنسيون هم أصحاب هذا التراث ومواصلوه، حتى ولو كانوا غير واعين بذلك. وما يزال علم الدم التاريخي في طفولته(١١٧). ولكن هل هناك ما يدعو إلى العجب إذا ما كانت اكتشافاته قد أشارت بالفعل إلى أن الدماء التي تجري في عروق الشعب الفرنسي اليوم هي بشكل ملحوظ عين الدماء التي جرت في عروقه في أزمنة ما قبل التاريخ؟ لابد لهذا من أن يجعلنا متنبهين إلى تاريخ يمد جذوره في أعماق الزمن.

II

من غاليا المستقلة إلى غاليا الكارولينجية

بعد غاليا قبل التاريخية، تظهر أربع صور تتعاقب واحدة بعد الأخرى" أولاً ما يسمى بغاليا الكلتيين "المستقلة" (شبه التاريخية)؛ ثم تليها بحسب الترتيب غاليا الرومانية والميروفينجية والكارولينجية. وهذه التجارب الطويلة تبدو، الواحدة بعد الأخرى، أنها قد أخذت مسارات متشابهة: فكل واحدة قد ازدهرت بدورها ثم انحدرت بشكل منتظم، وكأن كل واحدة منها كان محكوماً عليها منذ البداية بالإخفاق وبالتلاشي، بصرف النظر عن الظروف الخاصة لأفولها.

هل كان هناك نسق معين فاعل في هذا، سيرورة متكررة أساسية معينة؟ ألا يُحتمل أن هذه التغيرات، الملحوظة على المدى البعيد، إنما ترتبط بالجزر وبالمد البطيئين لتقلبات دورية تستغرق عدة قرون؟ من المؤسف أن تفسيرات مثل هذه **الاتجاهات** ما تزال بعيدة جداً عن متناولنا نظراً إلى غياب البراهين التاريخية. بل هل نحن على ثقة من أن هذه الاتجاهات كانت موجودة أصلاً؟ إن مؤرخاً أو مؤرخين اثنين فقط هما اللذان اهتما بهذه المسائل.

ولا يتجاوز هدفي إدخال قدر من اللغة الاقتصادية إلى هذه المشكلات البعيدة، وإظهار أنه في حين أن العوامل الاقتصادية لم تكن بحال من الأحوال العوامل الوحيدة الفاعلة في تلك القرون البعيدة، إلاَّ أن من المحتمل مع ذلك أن تكون قد لعبت دوراً. ولكن من الذي لا يدرك ذلك سلفاً؟

من هذه الزاوية، يكمن الشيء المهم الذي يجب رصده في أنه خلال هذه التجارب الطويلة الأربع، والتي تغطي فيما بينها نحو ألف سنة تقريباً، وبصرف النظر عن الارتفاعات والانخفاضات الاقتصادية، لم تحدث سيرورة ثورية من شأنها تحويل الهياكل، توازنات الحياة العميقة: أي لم يحدث شيء مشابه لإيجاد الزراعة، قبل ذلك بعدة آلاف من السنين، أو لثورة الطاقة في العصر الوسيط، والتي سوف نناقشها حالاً. وكما لاحظ روبير فوسيه محقاً، فإنه "لم يحدث تحول مفاجيء بين الأزمنة الرومانية والقرن التاسع". بل إن المرء قد يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، مع ميشيل روبلان الذي يرى أن "التطور الثابت قد استبعد أي انقلاب مفاجيء أو بعيد الأثر بين القرن الأول الميلادي والقرن الحادي عشر"(١١٨).

تفسير فتح الرومان لغاليا، إذا كان ذلك ممكناً

أدى الفتح الروماني الخاطف والدموي إلى سحق غاليا المستقلة. والحال أن الأحداث ـ حصارات جيرجوفيا وآليزيا ـ، والشخصيات ـ آريوفيستوس، يوليوس قيصر، فيرسينجيتوركس ـ، معروفة جيداً. وأنا لا أنوي إعادة قصة محفورة في ذاكرة كل تلميذ فرنسي. ليس لأنني أعارض رواية القصص، فالتاريخ هو أيضاً قصة وشكله ليس أقل إثارة. وآمل أن تتاح لي الفرصة في مجلدات تالية من هذا الكتاب لكي أحكي حكاية التاريخ الفرنسي عبر العصور. لكن ما أنا منخرط فيه الآن هو "تجربة" مختلفة. فهذا الفصل يهدف، كما قلت، إلى إلقاء قدر من الضوء على المراحل الرئيسية في التاريخ الفرنسي، مولياً انتباهاً خاصاً للشواهد المتصلة بالسكان، على أمل تحديد إيقاعات تاريخ أساسي. ولذا فإنني مضطر الآن إلى الاقتصار على قطاع واحد من المشهد التاريخي. وفي حين أنني سوف أنظر إلى غاليا المستقلة، فإنني لن أحاول حتى رسم صورة عامة لشعبها ومؤسساتها وأحداثها ومجتمعاتها واقتصادها أو حضارتها السرية المعجزة من أكثر من ناحية. وسوف يتعارض هذا مع منطق محاولة تهدف إلى التفسير. لكن تناولات وتفسيرات أخرى سوف تجيء بعد ذلك. فسوف أعود في نهاية المطاف إلى النظر في ضوء جديد إلى المشهد الذي سوف نمر به الآن مروراً سريعاً. والحال أن القارىء الذي يتحمل السير معي إلى هذه النهاية، سوف يرى أنه إنما يعود إلى مجتمع غاليا الكلتية القاسي والفظ، وإلى الدرويد الذين يقطعون أغصان نبات الهدال الطفيلي بمناجل ذهبية، وإلى المدن الغالية ـ الرومانية الأولى بتوليفاتها من الثقافات المختلفة.

والسؤال الذي أود طرحه الآن هو كيف تندرج سيرورة الفتح العنيفة في المنظور التاريخي لغاليا المستقلة؟ مما يؤسف له أن التفسيرات التي قدمها المؤرخون ليست مرضية أو غير متحيزة تماماً، حيث تفسدها المشاعر المتحيزة: بشكل لا مفر منه، ربما، بالنظر إلى الموضوع.

والمفاجأة الأولى هي أن غاليا قد فُتحت في غضون أعوام قليلة (بين عامي ٥٨ و٥٢ قبل يسوع المسيح) بينما احتاجت روما إلى قرنين من الزمان حتى تتمكن من إخضاع إسبانيا. وكان سترابون (الجغرافي الإغريقي الذي ولد قرب زمن فتح غاليا) واحداً من أوائل من أشاروا إلى هذا الفارق(١١٩).

ومع ذلك فإن غاليا "ذات الشعر المسترسل" كانت لديها إمكانيات المقاومة: عدد كبير من السكان، **ربما** عشر ملايين نسمة أو أكثر؛ كثافة أعلى للاستيطان مما في

الشكل ١٦

فتح قيصر لغاليا (٤٨-٥٢ قبل يسوع المسيح)

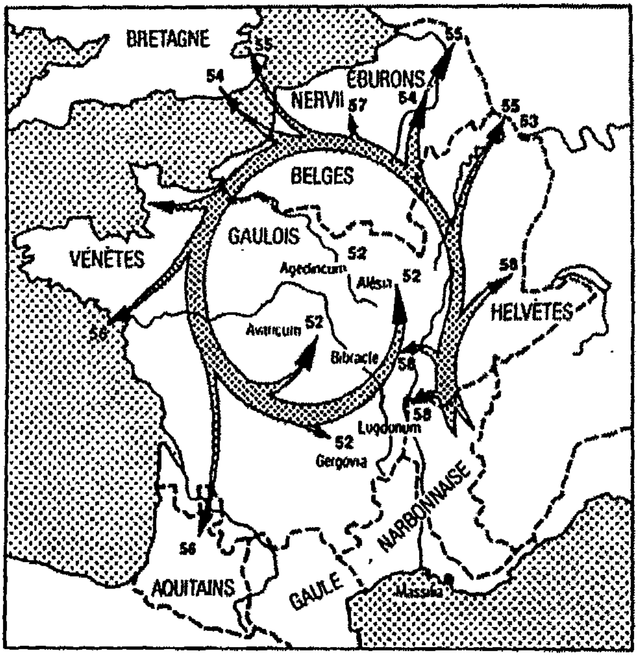

يثبت التقدم السريع للجيش الروماني عبر مثل هذه الساحة الواسعة أن غاليا لابد أنها كانت تتمتع بشبكة جد متطورة من الطرق وبموارد زراعية كافية لإطعام الجنود والجياد.

الأقاليم المتوسطية الخاضعة للحكم الروماني؛ درجة من الحيوية، بل درجة من الازدهار، مع أن هذه الكلمة قد تبدو غير مناسبة ـ إذ يرى عدد من المؤرخين أن غاليا كانت تمر آنذاك بالفعل بأزمة اقتصادية حادة تماماً، قبل وصول قيصر مباشرة. لكن هذه الأزمة، إن كانت هناك أزمة، لم تؤد إلى محو شواهد التماسك الاقتصادي والعافية الاقتصادية. ومثل هذه الشواهد لابد لها من أن تحذرنا من أي تفسير بسيط أو وحيد البعد للانهيار.

يجب أن نحذر مثلاً من إرجاع كل شيء إلى الفيالق الرومانية الأكثر تفوقاً أو إلى العبقرية العسكرية التي تميز بها قيصر (الذي تمكن على الفور من عزل غاليا بصد الهيلفيت ثم الجرمان، والهبوط إلى "بريطانيا" (إنجلترا) وسحق أسطول الفينيت. وطبيعي أننا لا يجب أن نقلل من شأن دور قيصر وبُعد نظره وتحركاته السريعة. ولكن هل يكفي القول بأن الغاليين، الذين كانوا على أية حال مقاتلين بواسل، مسلحين بسيوف ممتازة ومدعومين بسلاح فرسان قوي، قد استسلموا ببساطة لدى أول انتكاسة؟ إن ذلك سيعني أنهم قد أبدوا الخصال والمثالب التي ينسبها الناس أحياناً إلى فرنسيي اليوم.

إن هزيمة الغاليين لا تتطلب تفسيراً **واحداً** بل **عدة** تفسيرات. ويجب أن نتذكر أن فتح غاليا لم يكن الفصل الأول بل الفصل الثالث والأخير في مسلسل متتابع. فبعد رعب الحرب البونية الثانية الخيالي، وقبل هزيمة قرطاجنة، كان الرومان قد خاضوا ثلاث حملات ضارية (في أعوام ١٩٧ و١٩٤ و١٩١ قبل يسوع المسيح) في محاولة لإخضاع غاليا المواجهة للألب، والتي كانت قد قاومتهم مقاومة شرسة ـ كان محاربوها قد وصلوا إلى روما نفسها وحاربوا عرايا ضد الرومان، من باب السخرية من دروعهم الثقيلة. ثم في عام ١٢١ قبل يسوع المسيح، كان الرومان قد احتلوا "الولاية"، الناربونيه، وهي المنطقة الأكثر ازدحاماً بالسكان في غاليا عبر الألبية، أي بين الألب وآكيتين. وبهذا الانتصار الحاسم، لم تفتح روما فقط الطريق إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، بل وجهت أيضاً ضربة قاتلة إلى الهيمنة الآرفرنية، واحتلت أرض الآللوبروج، من الرون إلى بحيرة چينيف. ووفرت الولاية قاعدة أمامية للزحف على الشمال.

وهكذا فإن فتح قيصر لغاليا قد سبقته مقدمات لها وزنها، أدت، كما يقول آلان جيليرم، إلى تفكيك "المجال الكلتي"(١٢٠). وصحيح أن آخر هذه الأحداث قد وقع قبل ستين سنة من حملات قيصر. لكن هذا لا يلغي وجود صلة بين هذه الأحداث

والانهيار السريع لغاليا المستقلة. وقد تتمثل إحدى المقارنات في الأسلوب الذي احتلت به فرنسا الاستعمارية الجزائر أولاً (١٨٣٠) ثم تونس (١٨٨١ ـ ١٨٨٣) قبل أن تشق طريقها بعد ذلك بوقت قصير إلى مراكش (١٩١١ ـ ١٩١٢).

أليس من الوارد ـ بشكل واضح تماماً ـ أن غاليا قد جرّت الهزيمة على نفسها من جراء انقساماتها، إفتقارها إلى الوحدة السياسية، "فوضاها"، بحسب تعبير ميشليه(١٢١)؟ ولو كانت غاليا "أمة" أو حتى وحدة سياسية متماسكة، لأمكن الحديث بشكل مبرر تماماً عن خيانة: من جانب الايدوان والريموا وكثيرين غيرهم من "المتعاونين مع الغزاة" ـ كل أولئك الفرسان الغاليين مثلاً الذين ساروا على متون الجياد جنباً إلى جنب قيصر أو اللينجون، وهم قوم أقوياء في إقليم لانجريه أقرضوا الغازي نقوداً أكثر من مرة. الواقع أن غاليا كانت موزاييك من "القبائل" المتحاربة أبداً فيما بينها، تبلغ نحو خمسين إلى ثمانين **سيفيتات**، كما سماها الرومان؛ وكان كل قسم من هذه الأقسام منقسماً هو نفسه. باختصار، كانت غاليا مقسمة بشكل ميئوس منه؛ لقد كانت بلداً "كانت التنافسات فيه أقوى من أخوة الجنس أو وحدة اللغة والعقيدة والثقافة"(١٢٢). بل إن الدرويد كانوا عاجزين عن توحيد الغاليين ضد الغازي، بالرغم من كل ما بذلوه من جهود في هذا الاتجاه. وهكذا كان البلد فريسة سهلة. وكان بوسع قيصر أن يستخدم جماعة ضد أخرى، اعتماداً على مبدأ **فرِّق تسُد**. ومن الممكن دائماً تصور أن غاليا متحدة بما يكفي لأن تشكل دولة قوية ربما كان بوسعها أن تصمد بشكل أفضل في وجه الرومان.

حسناً، هذه وجهة نظر. إلاَّ أن بوسع المرء طرح وجهة النظر المقابلة دون أن يسقط في مفارقة. فإذا ما عدنا إلى التباين الصارخ بين فتح غاليا السريع وإخضاع إسبانيا الذي استغرق زمناً طويلاً، سوف نلاحظ أن الجغرافيا ربما تكون قد لعبت دوراً. فغاليا، التي تقع شمال البرانس، كانت أرضاً مكشوفة، غنية، مأهولة بعدد كبير نسبياً من السكان، وكانت بها شبكة من الطرق الصالحة للاستخدام: أي أنها لم تطرح أية مشكلات فيما يتعلق بتوفير العلف للجياد أو المؤن للجنود. أمّا إسبانيا، جنوب البرانس، فقد كانت شرسة العداء خلف متاريسها الطبيعية، وكانت جرداء، لا توفر غير القليل من الموارد(١٢٣). ويرصد سترابون فرقاً آخر، من المرجح أنه كان حاسماً: ففي حين أن المقاومة الإسبانية كانت مبعثرة بشكل واسع، وكانت مكرسة لما نسميه اليوم بحرب العصابات، سنجد أن المقاومة في غاليا سرعان ما أصبحت متمركزة، الأمر الذي لم

يجعلها أقـل حيوية، لكنه جعلها أكثـر هشاشة، إذ أصبحت معرضة للانهـيار في حملة واحدة. باختصار، يمكــن القول إن تماسك غاليا نفسه، والذي ساعد عـلى تعبئة جيش مساعد جرار، هو الذي ساعد على سحقها فـي مواجهة رئيسية واحدة، حصار آليزيا في عام ٥٢ قبل يسوع المسيح. وكان ممكـناً، من جهة أخرى، لحرب عصابات أن تلاحق العدو وتعطل زحـفه بشكل خطير. والحال أن مـلاحظات سترابون إنما تدعمـها تجربة فتوحات "كولونيالـية" أخرى في التاريخ. خذوا الفتوحات الإسلاميـة في القرن السابع الميـلادي مثلاً: لقد اجتـاحت بسرعة بـلاد الشام (عام ٦٣٤) ومصـر (عام ٦٣٦)، بل وفارس (عام ٦٤١) الـتي كانت قـبل مجرد سـنوات قليـلة قد تصـدت بمفردهـا لروما جوستنيان وألحقــت بها ضرراً فادحاً. ومن ناحية أخرى، سوف يحتـاج المسلمون إلى خمسـين سنة (٦٥٠ ـ ٧٠٠) حـتى يفرضـوا سيطرتـهم، وبشكـل جزئي فقـط، على المغرب الأقل تنظيماً. لكن إسبانيا القــوط الغربيين، وهي وحدة متماسكة، قد سقطت في أيدي المسلمين بضربة واحدة في عام ٧١١.

وأياً كان الأمر، فليس من السهل تفسير نـجاح قيصر. وربما يرجع ذلك إلى انقسام الرأي فيمـا بين المؤرخين. والـحال أن كتاباً معيـنين، خاصة في المـاضي، قد أشادوا بانتصار روما على أسـاس أنه قد دفع فرنسا إلى تبني ثقافة لاتينـية، هي أحد المكونات الرئيسية لحضارتنا الحالية. وهذا هو الرأي الـذي تبناه جوستاف بلوخ في المجلد القيِّم الذي أسهم به فـي عام ١٩١١ في كتاب *Histoire de France* (**تاريخ فـرنسا**) الـذي حرره أرنـست لافـيس(١٢٤). بينـما رأى آخرون، مثل فرديـنان لو(١٢٥)، أن الـفتـح الروماني هو الـكارثة الكبرى في تاريخنـا القومي، حيث خنق التطـور الخاص، وقضى على ما كان يمكن أن تكـونه "فرنسا". أمَّا كاميل چوليان، والذي تعتبـر نزعته القومية أكثر وضـوحاً بكثيـر، فهو يذهب إلى حـد تصور أن غاليـا، من غير روما، ربـما كان بالإمكان استيعابهـا في الحضارة الإغريقية لمارسيليا (والتـي تأسست في عام ٦٠٠ قبل يـسوع الـمـسيـح)(١٢٦) ـ وهي أطروحة تـصعب البرهنة عـليها. والحق إن غـاليا قد استخدمت بالفعل الأبجدية-اليونانية وإن هذه الأبجدية لم تكن قاصرة على نخبة مثقفة. ويذهب سترابون إلى أن "الغاليين كانوا يحررون عقودهم التجارية باليونانية"(١٢٧).

والحقيقـة أن المسألة مفتوحة لأي افـتراض يتعارض مع الحقـائق، ذلك الهوس أو تلك الحاجة إلـى إعادة كتابة التاريخ بشكـل يخالف ما جرى به بالفعـل. فآلان جيليرم مثـلاً واثق من أن غـاليـا لو كانـت قد تُركـت لحالـها لاستـوعبـت وحيدت چـرمان

آريوفيستوس(١٢٨)، في حين أن غاليا الرومانية لم تكن قوية بما يكفي في القرون التالية لكي تصمد في وجه غزوات البرابرة التي أسقطتها في نهاية الأمر. ومادمنا في هذا المقام، فلماذا لا نخترع سيناريو آخر: ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن قيصر خسر حصار آليزيا ثم تخلت روما عن محاولة فتح غاليا، مثلما تخلت بعد فشل فاروس (في عام ٩ بعد يسوع المسيح) عن محاولة إخضاع جرمانيا التي كانت أقل تقدماً من غاليا مائة مرة وكانت لهذا السبب عينه (بين أسباب أخرى) أصعب على الاستحواذ عليها؟ ولكن لماذا لا نتخيل العكس أيضاً؟ لو كانت روما قد تمكنت من مد حدودها على طول الإلب، بدلاً من الراين، فربما تغيرت كل مصائر أوروبا.

تبقى حقيقة أن غاليا، بمجرد فتحها، سرعان ما خضعت للمنتصر، فاتحة أبوابها لحضارة إيطاليا والبحر المتوسط؛ وسواء كان هذا قد تم عن طيب خاطر، عن دراية تامة بالنتائج أم لا، إلاّ أنه سوف يغير مصائر البلد تغييراً عميقاً. والحق إن النبلاء الغاليين قد بدأوا التعاون في مرحلة مبكرة وأسهموا في استيعاب روما الثقافي لغاليا. ثم إن الحكم الروماني، مع أنه كان قاسياً غداة الفتح مباشرة، قد أصبح أكثر تسامحاً في ظل ذينك "الامبراطورين العظيمين تيبيريوس (١٤ ـ ٣٧ بعد الميلاد) وكلاوديوس (٤١ ـ ٥٤ بعد الميلاد) اللذين كانا المؤسسين الحقيقيين لاستقرار ولبقاء الامبراطورية الرومانية بالرغم من إفراط الكتابة التاريخية القديمة في الافتراء عليهما". بل إن المؤرخ سيجفريد جان دو لاييه يجرؤ على القول بأنهما قد أحلا محل "الاستعمار الجمهوري نوعاً من الكومُنولث"(١٢٩). وربما جاز لنا أن نشير بالمناسبة إلى أن كلاوديوس كان مسئولاً عن بناء معظم شبكة الطرق في غاليا الشمالية، بما يشكل هدية رائعة(١٣٠). وفي عام ٤٨ بعد الميلاد، متجاهلاً اعتراضات الارستقراطية السياسية في روما، فتح مجلس الشيوخ أمام "شيوخ" غاليين ـ رومان.

لكننا يجب أن نحذر من الأحكام القاطعة. ومن المؤكد أن كلاوديوس، الذي كان يلقب في روما، من باب السخرية منه، بـ "الغالي" (لأنه كان قد وُلد في ليون)، كان يريد خلق غاليا مسالمة متصالحة مع الامبراطورية، لكن هذا لم يمنعه من اضطهاد الدرويد الذين اضطروا إلى الهرب إلى "بريطانيا" (إنجلترا) بحثاً عن ملاذ. وهكذا، فإن ما نحن بإزائه ليس تسامحاً بقدر ما أنه محاولة ذكية تهدف إلى الاستيعاب، وهو أمر كان أوجوستوس قد شرع به بالفعل. وقد زار خليفة قيصر غاليا أربع زيارات، أطولها (من عام ١٦ إلى عام ١٥ قبل الميلاد)إلى ليون، وهي مدينة تأسست في عام

٤٣ قبل يسوع المسيح؛ وآخرها في عام ١٠ قبل الميلاد، من أجل القضاء على تمرد على حدود الراين. كما أنه كان على أية حال قد قسَّمَ غاليا إلى أربع ولايات (ناربونّيه، آكيتين، ليونيه، بلچيكا) وواصل، مثلما فعل قيصر قبله، تجنيد جنود من تلك الولايات. كما أنشأ مدناً كثيرة ولكي يُجَمِّلها لم يتردد في إنفاق جزء من كنوز أنطونيو وكليوپاترا إلى جانب جزء من ثروته الشخصية هو؛ إننا ندين له بالميزون كارّيه في نيم وبجسر الپون دي جار وبالمسارح الرومانية في أورانج وآرل وفين وليون. . . "لقد كانت غاليا في ظل أوجوستوس ساحة ضخمة" للأشغال العمومية(١٣١). والحال أن المدن الجديدة، التي سوف تستقر فيها الارستقراطية الغالية تدريجياً، كانت مراكز فعالة للرومنة كما كانت حافزاً للتقدم الاقتصادي. ونحن نميل اليوم إلى قول إنه لو "سار البناء على ما يرام، فسوف يسير كل شيء آخر على ما يرام"؛ وربما كان هذا صحيحاً أكثر من مرة خلال تاريخنا.

ومن بين العوامل الأخرى التي كانت ملائمة للاستيعاب الثقافي أن غاليا كانت تحدها من الجنوب إسبانيا والناربونّيه، وهي ولاية ترومنت قبل "أجزاء غاليا الثلاثة" بوقت طويل.

ثم إن جيشاً قوياً كان يحميها من الغارات عبر الراين: فالحدود كان يحرسها مائة ألف جندي. وسوف يزيد فيسپاسيان ودوميسيان من تعزيز هذه الدفاعات عن طريق بناء **الليمات** على طول الضفة اليمنى للراين، حيث كانت هذه **الليمات** حدوداً حصينة تمتد من مستوى كوبلينتز وتهبط بمحاذاة النيكار لتصل إلى الدانوب. وخلف **الليمات**، حتى الراين، كانت تترامى الحقول "التي تخضع لضريبة العُشر" والتي استقر فيها المستوطنون.

وأخيراً، في عام ٤٣ بعد الميلاد، وتحت دفع من كلاوديوس، فتحت الفيالق بريطانيا أي إنجلترا، التي تعين تنظيمها بعد ذلك؛ ومن ثم، أصبحت غاليا آمنة من التعرض لهجوم من الشمال. وأصبحت بولونيا مدينة بينما صار بوسع مينائها، المزود بفنار ضخم، أن يستقبل لسنوات طويلة أسطولاً رومانياً مكلفاً بالقيام بداوريات في المانش وبحر الشمال. ومن المؤكد أن الأمن و**السلام الروماني** كانا مؤثرين قويين على السكان الذين لم يسبق لهم، لأعوام كثيرة، أن عرفوا السلم والأمن. وأعطت روما غاليا والغاليين أسماء لاتينية (**جالليا، جاللى**)؛ وتلاشت مصطلحات "الكلت" و"الكلتيين". كما منحت روما غاليا حضارةً، بعد استيلاء استعماري كان ناجحاً من هذه الزاوية. ثم

إنه مع حدود الراين، التي رسمها يوليوس قيصر، أعطت روما غاليا حدوداً فصلتها عن أوروبا الوسطى الكلتية (المنسية) والجرمانية.

على أن غاليا الآمنة، المحاطة بالحدود المحمية، المزودة بالطرق وبالمدن وبالمدارس وبجيش كانت صفوفه مفتوحة لها، قد احتاجت إلى قدر من الزمن حتى تقبل قدرها الجديد عن طيب خاطر. فبالرغم من تيبيريوس، وبالرغم من كلاوديوس، وبالرغم من مزايا حضارة أرقى، كان القرن الأول للحكم الروماني قرن متاعب، يتميز بعدم الاستقرار وبالتمردات، التي كان بعضها مثيراً وكانت كلها دامية. والحال أن عدداً من المؤرخين الفرنسيين قد تورطوا في نوع من النزعة القومية الاسترجاعية بسبب هذه المقاومة، مبالغين جداً في أهميتها(١٣٢). وأنا أُفَضِّل الحكم الأكثر توازناً والذي طرحه جوستاف بلوخ (١٩١١) ومعظم المؤرخين الآخرين. فهذه التمردات كانت في واقع الأمر تعبيراً عن المذلة التي استشعرها بهذه الدرجة أو تلك من الوعي شعب مغلوب؛ كانت تعبيراً عن الاستياءات المختلفة لمختلف الأقاليم؛ عن سخط الفلاحين الرازحين تحت عبء الضرائب والمنزعجين من تدابير قياس مساحات الأراضي؛ وعن انزعاج الاستقراطيين الذين كسبت الحضارة اللاتينية تأييدهم لكنهم غضبوا من الممارسات السيئة داخل الإدارة الامبراطورية؛ وعن سخط الحرفيين الذين كانوا يضطرون أحياناً إلى الهرب عبر الراين فراراً من ملاحقات سلطات جمع الضرائب.

وقد وصل التمرد إلى الذروة خلال الأزمة التي هزت الامبراطورية في أواخر عهد نيرون وبعد موته في عام ٦٨ للميلاد. فقد اندلعت سلسلة من التمردات في عدة مناطق من غاليا، حرض عليها أحياناً النبلاء الذين كانوا من قبل خدماً مخلصين لروما. وبمجرد قمع تمرد في أحد الأماكن، كان تمرد آخر يظهر في مكان آخر. وأصبحت الأمور أكثر سوءاً من جراء تمرد عدة فيالق، استفادت من ظروف الانقسامات السياسية في روما. والحال أن جيش الراين، الذي كان يضم كثيرين من القوات المساعدة البلچيكية والچرمانية، قد زحف ضد غاليا في عام ٦٩، وقد أفلت البلد بأعجوبة من النهب الشامل. لكن كايوس يوليوس سيفيليس، وهو باتافي، والحق إنه چرماني، استغل الموقف، وتزعم الفيالق المُسَرَّحة وأتاح لمدن غاليا فرصة استعادة حريتها، وتأسيس امبراطورية غالية لهذا الهدف. بل إن مثل هذه الامبراطورية قد أعلنت لمدة قصيرة، في حماسة غاليا لم يكن فيها أي جيش روماني.

وفي تلك اللحظة. تدخل عاملان لتهدئة الأمور. أولاً، كان هناك ارتياب تستشعره

غاليـا تجاه عدوها الـجرماني القديـم. ولم يكن مثـل هذا الارتياب دون سبـب: فمن المرجح أن سيفـيليس كان يعد لحروبه الغالـية الخاصة ـ ألم يكن يدمر بصـورة منهجية الحصون عـلى طول الليـمات؟ ثانياً، جاءت أنباء من روما عـن انتهاء الحرب الأهلية، وانتصار فـيسپاسيان، "الامـبراطور العاقل"، والـعودة إلى حكومة قـوية. وقد صدرت أوامر بإرسال جميع القوات من البلدان المجاورة ـ إيطاليا، إسبانيا، بريطانيا، إلى غاليا. ووسط الاضـطراب العـام، دعا الريـمي جمـيع مـدن غاليـا إلى إرسال مـندوبيـن إلى دوروكورتـوروم (رانس). وأدت مداولات هـذا الاجتمـاع إلى انتـصار حزب الـسلام، وجرى إرسال بيـان إلى التريفيـر يدعوهم، باسم غالـيا كلها، إلى وقـف الصراع. وقد رفض التريفير أن يفعلوا ذلك، إلاَّ أن جيشاً رومانياً قوياً تحت قيادة بيتيليوس كيرياليس، سرعان ما تغلب عليـهم وشتت شملهم. وكان ما يزال يتعين التصدي لـسيفيليس. لكن هذا كان قد أصبح شأناً بـين الرومان والجرمان، وبعد أن توالت الهزائم عـلى سيفيليس اختار التقهقر عبر الراين(١٣٣).

وقد مثلت هذه الأحداث الدامية آخر مقاومة جادة للفتح في غاليا. وهكذا فمن عام ٥٢ قبل الميلاد إلى عام ٧٠ بعد الميلاد، نجح قرن من الحكم الروماني في نهاية الأمر في جعل الرومنة مقبولة تقريباً.

وكان الزمن فاعلاً بالفعل: وسوف يكون الزمن فاعلاً أطول من ذلك بكثير. ويجب أن لا ننسى أن خمسمائة سنة قد مرت بين حصار آليزيا (٥٢ قبل يسوع المسيح) وانهيار الامبراطوريـة الغربية، من الـناحية النظريـة على الأقل، في عام ٤٧٦. فـما الذي كان يمكن أن يحدث في الجزائر لو كانت فرنسا قد احتلت ايالة الجزائر الوليدة للتو في عام ١٥١٦ وظلت هناك حتى حام ١٩٦٢؟ كان التاريخ في تـلك الأزمنة يتحرك بشكل أبطأ من اليوم. وخلافاً لنهر يتدفق بسرعة من منبعه لكنه يتحرك بشكل أبطأ في اتجاه مصبه، فإن موجة التاريخ تتـدفق ببطء في البداية ولا تتسارع إلاَّ عندما تصـل إلينا وإلى زماننا. إن تراكماً للـخبرات وللظروف قد جعل غالـيا رومانية. أمَّا أن هذا كان حسـناً أم سيئاً، فتقدير ذلك متروك لكل واحد.

على أنني لا أعتـقد أن بوسعنا الاتفاق مع ميـشليه على أن "غاليا قد غـرقت مثلما غرقت أطلـنطس"(١٣٤). بعد آليزيا، لـم تغرق غاليا تـماماً. ويرى پيير لانس أن غاليا تظل التيار التحتي، والحي دائماً، لتاريخ فرنسا(١٣٥). وهكذا فإن تراثنا الكلتي، سواء فضله المرء أم لا على تراثنا اللاتيني، لا يمكن نفيه؛ وسواء رضينا أم كرهنا، فإننا نظل

موسومين بميسم هذه الازدواجية التراثية. ومع ذلك، فمن الناحية الثقافية، خسر العالم الكلتي معركتين رئيسيتين في غاليا: فلغته، بالرغم من أن الناس كانوا ما يزالون يتحدثون بها على مدار زمن طويل في مناطق ريفية معينة، حتى القرن الثاني عشر أحياناً(١٣٦)، لم تخلّف غير آثار باهتة في الفرنسية الحديثة (كانت البريتونية لغة أعيد استيرادها من الجزر البريطانية في القرن السادس أو قبل ذلك بقليل). أمّا الديانة الكلتية، التي كانت قد ازدهرت لزمن طويل جداً، حيث جرى تأبيدها دون صعوبة خلال الفترة الرومانية التي تميزت بتعدد الآلهة، فقد اجتاحتها المسيحية في النهاية بربها الواحد الأحد. وهي لن تبقى إلاّ في مستودع الفولكلور الوثني والدين الشعبي. فهل يمكن للمرء أن يتحدث بالفعل عن "إبادة ثقافية" لغاليا(١٣٧)؟

أوج غاليا الرومانية في ظل كومودوس

بلغت غاليا الرومانية أوجها بعد قرنين من الفتح، في عهد كومودوس، الابن الأقل من جدير لماركوس أوريليوس. لقد ارتبط مصير البلد بحظوظ الامبراطورية: فعندما كانت الامبراطورية تزدهر كانت غاليا تزدهر؛ وعندما كانت الامبراطورية تنحدر، كانت حظوظ غاليا تنحدر هي الأخرى. فالواقع أن غاليا كانت مستوعبة ضمن نوع من اقتصاد عالم، ضمن ذلك الكيان المركب من أقاليم تتمحور حول البحر المتوسط، حيث تخفق نبضاتها على إيقاع واحد: وهو كيان مركب يمتد شرقاً، من الناحية الاقتصادية، حتى فارس والهند والمحيط الهندي. وعلى حافته الشمالية، كان متاخماً للفراغ، ويتطلع إلى البلطيق وبحر الشمال حيث داوريات الأسطول الروماني الذي يتخذ من بولونيا قاعدة له. وإلى الجنوب، كان هذا الكيان يجد حاجزاً له في الصحراء المترامية الأطراف، لكنه كان يتلقى الذهب القادم من السودان على طرقٍ عبر ما أصبح الآن المغرب. باختصار، كان وجود غاليا التابع محكوماً بالمصائر وبالظروف المتغيرة لهذا الكيان المركب الجبار.

وقد ظلت الامبراطورية على ما يرام إلى موت ماركوس أوريليوس في عام ١٦١ للميلاد، وقد تمتعت غاليا بمكاسب **السلام الروماني** حتى ذلك الوقت. إذ كان اقتصادها آخذاً في التوسع: وكانت الطرق والمدن والتجارة تساعد على تحولها. أمّا سكانها فقد أخذوا في التزايد من جديد، بما أدى إلى ما هو أكثر من تعويض الخسائر الدامية التي ترتبت على الفتح والمجازر والاسترقاق الذي كان قد اختزل شعب غاليا.

ولا يمكن لأي كلمات أن تقدر على وصف فظاعات الفتح: إن قبائل بأكملها، مثل الآدواتوك والايبورون، بين الراين والايسكو، قد أبيدت أو بيعت كرقيق(١٣٨)، وكان قيصر قد تمكن حرفياً من "إغراق كل أسواق العبيد في إيطاليا بالسلعة البشرية(١٣٩).

وكان فردينان لو(١٤٠) يبالغ عندما قدَّر عدد سكان غاليا قبل قيصر بعشرين مليوناً، لكن من المؤكد أن كارل چوليوس بيلوك كان مذنباً بدوره عندما قلل من شأن العدد وقدَّر أنه لم يكن بالإمكان أن يوجد في غاليا في عام ١٤ بعد الميلاد أكثر من إجمالي أربعة ملايين وتسعمائة ألف نسمة (١,٥٠٠,٠٠٠ بكثافة ١٥ في الناربونيه و٣,٤٠٠,٠٠٠ بكثافة ٦,٣ في بقية غاليا)(١٤١). ويبدو لي غريباً أن ينسب إلى غاليا المزدهرة مثل هاتين الكثافتين المنخفضتين للاستيطان داخل امبراطورية يحدد عدد سكانها بنحو ٥٤ مليوناً في مساحة حجمها ٣,٣٤٠,٠٠٠ كيلو متراً مربعاً، أي بمعدل ١٦ ساكناً في كل كيلو متر مربع. وإذا كان هذا هو المتوسط، فإن غاليا بمساحتها التي تتألف من ٦٣٨,٠٠٠ كيلو متر مربع، لابد أنها كانت تضم أكثر من ١٠ مليون نسمة. وربما كان بوسعنا أن نقبل كحد أدنى الملايين الثماني أو التسع التي قدرها كافينياك، والتي يرى تأريخٌ أحدث للسكان أنها "مؤكدة تماماً"(١٤٢). ولكن ماذا كان الرقم بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً، في أيام ماركوس أوريليوس وكومودوس، عندما كانت غاليا في ذروة ازدهارها؟

هذه المرة لا يتردد كارل چوليوس بيلوك في طرح رقم أعلى بكثير، فهو يقول إنه لم يحدث قط أن كانت الامبراطورية الرومانية على ما كانت عليه من كثرة سكانية في أوائل القرن الثالث: لقد تضاعف عدد السكان منذ موت قيصر. ومن ثم فإن ملايين الغاليين الخمس التي سمح بها في عام ١٤ للميلاد (وهو رقم راجعه في الواقع ليصعد إلى ست أو سبع ملايين) كان من شأنها أن تصبح عشر ملايين على الأقل، إن لم يكن اثنا عشر أو أربع عشر، بكثافة نحو ٢٠ ساكناً في الكيلو متر المربع الواحد(١٤٣). وأعتقد أن هذه الأرقام قد تكون أدق من أرقام روسيل. ولكن دعونا نقبل حداً أدنى قدره نحو ١٠ مليون. ودعونا نفترض أن السكان الحضريين كانوا يشكلون نسبة ١٠ في المائة من هؤلاء (وليس ٢٠% كما يرى روبير فوسييه(١٤٤): "كان أربعة غاليين من كل خمسة سكان أرياف"). وإذا كان الأمر كذلك، فلابد أن نحو مليون غالي قد عاشوا في المدن، وإذا افترضنا أنه كان هناك نحو ألف مستوطنة حضرية جديرة بهذا الاسم، فإن هذا سيعني أن كل مدينة كانت تضم نحو ألف نسمة.

ولا يجب للقاريء أن يحتج على تواضع هذا الرقم: فمن المرجح أنه يظل مع ذلك جد مرتفع. فالأرقام المماثلة بالنسبة لألمانيا(١٤٥) حتى في القرن الخامس عشر المزدهر لا تقدم غير متوسط سكاني قدره خمسمائة نسمة فقط للمدينة الواحدة! وقد يكون رقمنا جد مرتفع لأنه إلى جانب المدن الغالية والرومانية التي تتراوح مساحة الواحدة منها بين مائتين وثلاثمائة هكتار، كان هناك الكثير من البورجات الأصغر، والتي كانت بيوتها ما تزال تسقف بالقش؛ وهنا كانت الساحة العامة هي السوق التي كان الفلاحون من الريف المجاور يجيئون إليها لبيع المؤن لسكان المدينة. لكنها كانت مدناً على أية حال. ولا يجب أن ننسى أنه، حتى في القرن الثامن عشر، كانت ديجون ما تزال تضم بيوتاً كثيرة مسقوفة بالقش(١٤٦). ويقول فردينان لو إن "المدن الأكبر (في غاليا الرومانية)، نيم، تولوز، أوتان، تريف، لم يكن بوسعها قط أن تحوز أكثر من ٥٠,٠٠٠ نسمة"(١٤٧). لكن هذه الأرقام هي في الواقع أرقام كبيرة نوعاً ما بالنسبة لذلك العصر، على أن ليون، عاصمة الغاليين الثرية، ربما تكون قد ضمت ما يتراوح بين ٨٠,٠٠٠ و١٠٠,٠٠٠ نسمة. ثم إن هذه المدن الرومانية بمسارحها، وبأقواس النصر فيها، وبحماماتها، وبحلبات المصارعة فيها، كانت ذات مشهد رائع. ويا له من إنجاز غير عادي أن يتم توصيل المياه إلى ليون! أو إلى فين! وبمجرد وقوع البصر على هذه القنوات الجبارة، لا يكاد يصدق المرء عينيه. وطبيعي أنها كانت بشكل ما زخارف، "استعراضات مسرحية"(١٤٨). فالمستقبل سوف يثبت إلى أي حد كانت هشة، ولكن أليس المستقبل، في أغلب الأحيان، خيانة للماضي؟

على أن التحول الحضري لغاليا، والشكل الذي اتخذه، كانا علامة سافرة على رومنتها. والحال أن التأثير الروماني، المتباين في عمقه من مكان إلى آخر، إنما يقدم الآن دليلاً على تاريخ تفاضلي، يضيف سمات جديدة إلى التباينات الموجودة من قبل. وهكذا فقد ركز الرومان جهودهم على طريقي الرون والسون المائيين، المتجهين شمالاً عبر الميز والموزيل إلى حدود الراين المضطربة أبداً. وعندما أصبحت المصاعب خطيرة في هذه المنطقة، أصبحت تريف العاصمة الحقيقية للبلد، على حساب ليون. كما أسبغ الرومان حظوة على الناربونّيه: إن الفيّا دوميسيا والفيّا أوريليا كانا يخترقان بروفانس ولانجدوك في اتجاه إسبانيا. والحال أن الناربونّيه، الأكثر كثافة من الناحية السكانية والأكثر تأثراً بالثقافة الرومانية والمحتلة قبل بقية غاليا بسبعين سنة، سوف تتمتع فيما بعد، في العصور المظلمة، بامتياز البقاء تحت الحماية "الرومانية" حتى ٤١٥ ـ ٤٤٣

الشكل ١٧

القنوات الرومانية في ليون

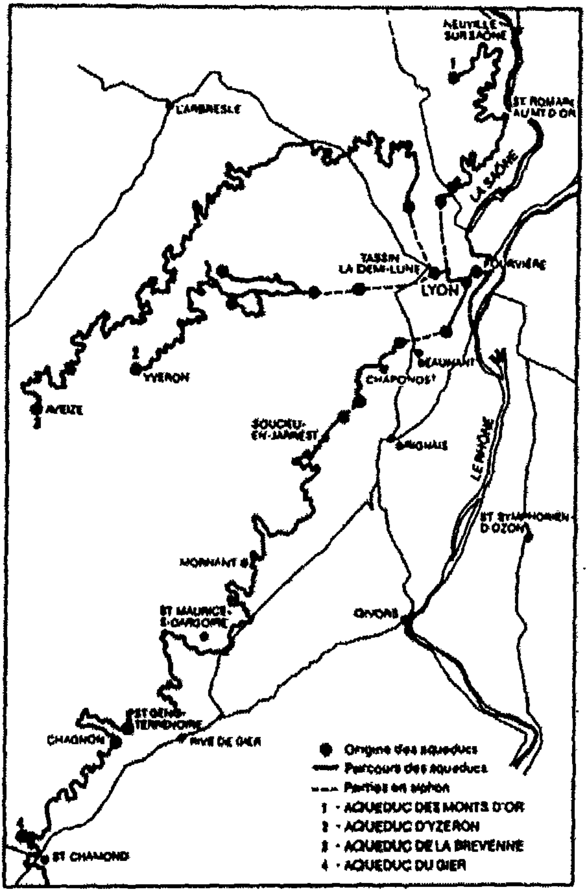

إن القنوات الأربع التي زودت ليون بالمياه هي بحد ذاتها دليل على أهمية الاستيطان الغالي – الروماني هناك. وعندما أدت غارات البرابرة إلى إلحاق ضرر لا علاج له بهذه الشبكة المائية، اضطرت ليون جزئياً إلى هجر موقعها السابق.

الشكل ١٨

طرق غاليا الرومانية

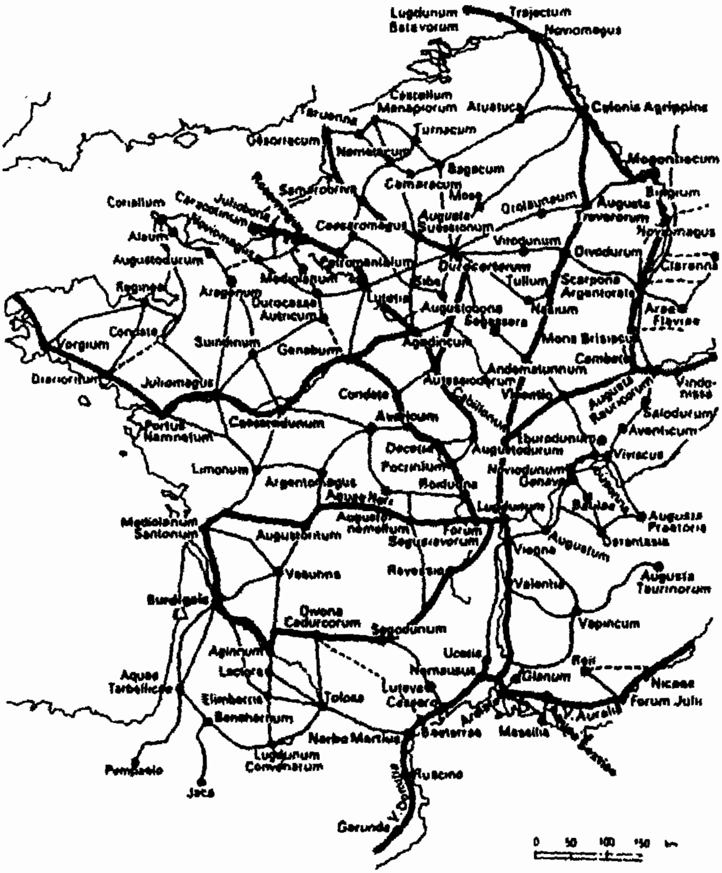

إن كثافة شبكة الطرق عبر مجمل الأراضي هي دليل على تزايد السكان والإنتاج في غاليا الرومانية.

الشكل ١٩

الشبكة الحضرية في غاليا الرومانية

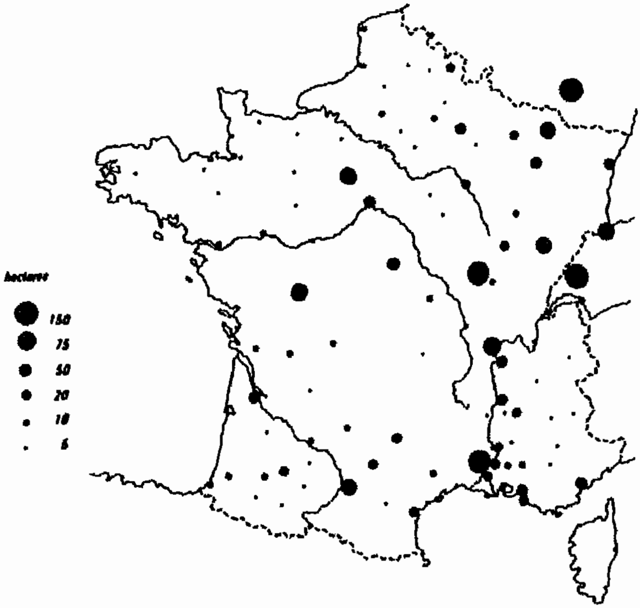

تُدخل هذه الخريطة تصحيحاً على خريطة شبكة الطرق السابقة. ويوضح توزيع المدن ماهية المحاور الاستراتيجية للإمبراطورية: طريق الرون - السون الممتد حتى حدود الراين، والطرق الممتدة عبر بروفانس ولا نجدوك والتي تؤدي إلى إسبانيا ووادي الجارون.

ووصول القوط الغربيين والبورجونيين.

وقد أسهم هذا كله في زيادة الاختلافات والتباينات بين شمال فرنسا وجنوبها، كما أن الأيل دو فرانس قد حافظت على ثقافتها الرومانية لوقت طويل في وجه الفرانك، لكن الأيل دو فرانس كانت أقرب ما تكون إلى جيبٍ وسط عالمٍ بربريٍ شامل.

غاليا الرومانية في وجه متاعبها الداخلية وغزوات البرابرة

بحلول أواخر القرن الثاني، نحو ١٧٠ ـ ١٨٠ للميلاد، كان **السلام الروماني** قد تزعزع بالفعل وأخذ يميل إلى الانهيار. فحدود الراين كانت الآن تحمل السلاح: ففي عام ١٦٢، كانت العصابات الجرمانية تتسلل إلى بلچيكا الشمالية؛ وفي عام ١٧٤، وصل آخرون إلى الألزاس. ولا يجب لنا أن نبالغ في أهمية هذين الحدثين، فقد استعيد النظام بسرعة وبسهولة(١٤٩). والحدود التي وفرت لغاليا السلم والهدوء لن تتعرض لانتهاك خطير إلاً بعد ذلك بزمن طويل، في عام ٢٥٣، من جانب الفرانك والألامان. ويبين الشكل ٢٠ أن شطر غاليا الشرقي كان عرضة لغارات امتدت جنوباً حتى وادي الرون الأدنى بل وعبره إلى إسبانيا. وكان الذعر والفوضى من الجسامة بحيث إنه، في عام ٢٦٠، جرى إعلان ضابط غالي، هو بوستوموس، امبراطوراً لغاليا من جانب جنوده، ليس في روح تمرد ضد روما، بل من أجل صد الغازي. وقد نجح في عمل ذلك على مدار ثمانية أعوام، بل ونجح في طرد البرابرة ومطاردتهم عبر الراين، وفي استعادة النظام ورد الثقة إلى غاليا. إلاً أنه في عام ٢٦٨، اغتاله جنوده وهو خارج ماينس، لأنه كان قد منعهم من نهبها. ولم تعش "امبراطورية" غاليا طويلاً بعده: ففي عام ٢٧٣، تمكن الامبراطور أوريليان من إلحاق الهزيمة بتتريكوس، آخر خلفائه، وبعد ذلك بعامين، في عام ٢٧٥، انفتحت ثغرات فاغرة عديدة من جديد في الحدود الشرقية.

وهذه المرة، تأثرت غاليا كلها: فخلال اجتياحها، جرى حرقها وإراقة دمائها. وأصبح من الواضح أن النظام لا يمكن الآن أن يُستعاد، كما كان الناس يأملون قبل ذلك ببضع سنوات. ففي تلك المرحلة، لجأت المدن إلى الاعتماد على مواردها الخاصة وراحت تبني بسرعة تحصينات خاصة بها. على أننا يجب أن نلاحظ أن هذا كان ما يزال قبل أكثر من قرن من غزوات البرابرة **الكلاسيكية** (الحقيقية). ففي ٣١ ديسمبر

الشكل ٢٠

غزوات القرن الثالث بعد الميلاد

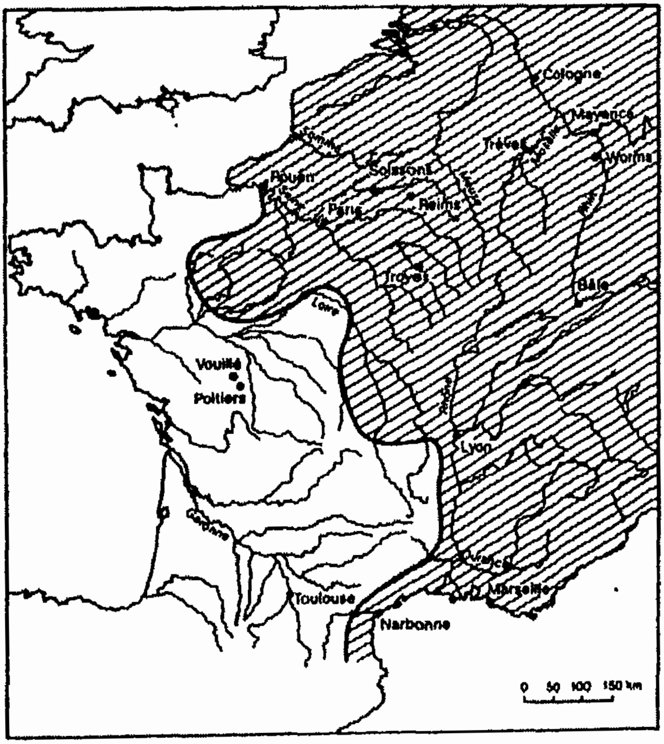

كانون الأول ٤٠٦ فقط، حدث ما يسمى بـ "الغـزو الكبير"، تحت قيادة راداجايزوس. وفي عبـورهم لنهـر الراين المـتجمد، اجـتاح أتباعـه كل غاليـا، في تيار مـن الأقوام المختلطة؛ وهو غـزو كان، بشكل مفارق، أقل تدميراً في نهايـة الأمر ربما من اختراق عام ٢٧٥(١٥٠).

يجب أن نتذكر هذه التواريخ: ٢٥٣، ٢٧٥، ٤٠٦؛ فهي تثبت أن انحدار غاليا كان قد بدأ قـبل وقت طويـل من غزوات القـرن الخامس الـكبرى. فانـحدار غاليـا مرادف لانحدار الامـبراطورية الـرومانية ـ الرجـل المريض الذي طـال احتضاره. وقـد تجادل المؤرخون لزمن طويـل حول ما إذا كانت الامبراطورية قد ماتت من الـداخل، متحملة المسئولية عما حدث، أو ما إذا كانت قد استسلمت لضربات البرابرة، "أُعدمت"، كما يرى أندريه پـيانيول(١٥١). ومثل هذه الأسئلة تحتاج إلـى إجابة، حتى وإن كان من غير المحتمل أن نحسم الجدل، خاصة وأنني قد اخترت تناولها من زاوية خاصة. ولكن هل يمكن لأحد أن يكون واثقاً من تقديم الإجابة الصحيحة في مجال كهذا؟

تمرد من المستحيل إطفاء ناره

شأنها شأن الامبراطـورية، هوجمت غاليا أيضاً من الداخـل. فقد شهدت في وقت واحد أزمة سـياسية تشكـل تحدياً لسلـطة الدولة، أي للامبـراطورية؛ وأزمة اجتمـاعية هددت استقـرار هيراركياتها؛ وأخـيراً، تدهوراً خطيراً فـي مجال الاقتصاد، منـشأه غير مؤكد لكن أثره ملحوظ ـ فقد حدث هبوط فـي عدد السكان، وهو بحد ذاته مؤشر على أن الأمور لم تكن على ما يرام.

أما السمة الأهم للأزمة ـ وهي نتيجة بقدر ما هي سبب لها ربما ـ فهي الاضطرابات التي انـتشرت بيـن صفوف الجـماهير الـريفية (أي غـالبية الـسكان): "تمـرد فلاحي" مدمدم، يكاد يكون من المـستحيل كبته ويصعب على المؤرخيـن تعيين أي مركز واحد له. فـوراء الـ **ager** أو الـــ **latoratorium**، الأرض المزروعة، كانت تـترامى الغابات الممتدة والمستنقعات والتلال وأراضي الأشجار المنخفضة التي غطت مساحة جد واسعة وكان بـوسع أي خارج علـى القانون أن يـختفي فـيها. وكانـت المصطـلحات شائـعة الاستـعمـال، الـ **tractus** أو الــــ **saltus**(١٥٢)، تشيـر إلى هذه الأراضي المتـرامية الأطراف، والتي لم يمسها الاستيطان البشري إلاّ جـزئياً ـ إنها "البرّية" التي شكلت فئة ثالثة إلـى جانب المدينـة والريف(١٥٣). والحال أن الأحـراج، والتي كانت مـساحات

ضخمة منها ما تزال تغطي غاليا، قد تباينت ليس فقط مع فضاء المدينة المفتوح وإنما أيضاً مع الريف "المتحضر"؛ وهي تثير الخيال والرعب: وقد قيل إن ركوب الجياد عبر غابة في الليل كان يصيب الناس بالجنون وإن كل من كان يغامر بذلك كان يعد مجرماً، وفقاً للقانون الأنجلو ـ ساكسوني، إلاّ إذا أعلن وجوده بإصدار صوت عبر بوق(١٥٤). ولا ريب أن قليلين من غير الخارجين على القانون أو المطاريد قد بحثوا عن ملاذ هناك على أية حال: وهو ما يذكرنا بالعبيد الهاربين من المزارع في أمريكا الكولونيالية والذين لم يكن بوسعهم أن يجدوا ملاذاً إلاّ في الغابات البكر.

وكان وضع فلاحي غاليا، أكانوا عبيداً أم صغار ملاك للأرض (أحراراً من الناحية النظرية لكنهم تابعون بشكل مفرط من الناحية العملية)، قد تدهور بشكل متزايد. فمع تزايد ندرة العمل، سعى ملاك الأرض الأقوياء، الـ **potentes**، إلى توفيره بالقوة في ضياعهم الواسعة والمهيبة، الـ **villae**، والتي نعرف الآن من أعمال التنقيب وخاصة من التصوير الفوتوغرافي الجوي أنها كانت أوفر عدداً مما كان يُظن في وقت من الأوقات. ففي وادي السوم مثلاً، والذي ساد الظن لوقت طويل بأنه لم يكن يُزرع إلاّ حول المدن، حيث تظل بقية الأرض يباباً، كشفت الملاحظات الجوية المنهجية التي قام بها روجيه آجاش على العكس من ذلك عن "إقليم تغطيه مزارع شاسعة" (تم حتى الآن رصد ٦٨٠ مزرعة بشكل مؤكد) تتداخل فيما بينها مستوطنات ومستقرات صغيرة قليلة(١٥٥). ويجري الآن الاضطلاع بمسح جوي مماثل في بريتانيا.

ومن المرجح أن الـ **villae** الغالية ـ الرومانية قد شكلت الجانب الأعظم من المزارع. والحال أن هذه المزارع، التي تتألف عموماً من نحو ألف هكتار، وأحياناً أكثر، من الأرض الزراعية والمراعي والأحراج، كانت واسعة جداً، وكانت بها بنايات فسيحة: إن فيللا غالية ـ رومانية في مونموران في الجارون الأعلى كانت تتألف من ١,٥٠٠ هكتار من الأراضي الزراعية ومن ١٥ هكتاراً من البنايات(١٥٦). وهناك فيللا أخرى في **département** السوم، وارفوسيه آبانكور، كانت بها بنايات تمتد على مساحة ٣٣٠ متراً(١٥٧). وكانت فيللا أخرى في كانيه، قرب بيزييه، ذات مقاييس أكثر تواضعاً: فبناياتها قد غطت ٦٢ متراً من مساحتها الإجمالية التي تصل إلى مائة هكتار(١٥٨). وقرب بوردو، كانت توجد فيللا حصينة، كانت آخذة في التحول بالفعل إلى قلعة، **بورجوس ليونتي**، وأصبحت فيما بعد **بورج ـ سور ـ چيروند**. وحيثما جرت اليوم أعمال تنقيب، في كريل على الواز، مثلاً، تُكتشف فيللات جديدة ذات أسوار سميكة وأكوام

من القرميد الفخاري ومجار رصاصية خربة لنقل الماء. بل عُثر على بعض النوافذ أو بالأحرى بقايا نوافذ، كانت ما تزال مطوقة على نحو فج بأطر رصاصية(١٥٩).

وكانت كل فيللا تتألف من قسمين على الأقل: فمن ناحية، كانت هناك الـ **urbana**، حيث يسكن السيد، محاطاً بكل ما يريد من أسباب الراحة، على النمط الروماني!: الفناء، بهو الأعمدة، المدافيء، الحمامات، وما إلى ذلك. والحال أن آپولليناريس سيدوينوس (٤٣٠ ـ ٤٨٧) الذي عاش في فيللاه في آفيتاكوس، في أوفرنيا، على بُعد نحو عشرين كيلو متراً من كليرمون (تأكد أن قرية آيدا الحالية هي آفيتاكوس القديمة)، قد كتب في يونيو/ حزيران ٤٦٥ إلى صديق له مكث في المدينة وقت الجو الحار، متباهياً بمسرات منتجعه الريفي وبجمال حماماته "التي تضاهي" الحمامات الموجودة في البنايات العامة(١٦٠). ولا شك أن مسكن السيد كان مكاناً بهيجاً. إلاَّ أنه إلى جواره كانت هناك بلا ريب بنايات الـ **rusticana** التي تضم كلاً من مخازن وأهراء المزرعة ومساكن العبيد: المطبخ الواسع الذي كانوا يأكلون فيه والغرف التي كانوا ينامون فيها. وفي جانب منعزل كانت توجد الـ **ergastulae**، حيث يجري حبس المشاغبين، ومنزل الـ **villacus** وزوجته اللذين يشرفان على عمل مجموعات العبيد ويتحملان المسئولية عن إدارة المزرعة. وكان يمتد حول الفيللا سور فاصل؛ وأحياناً كان يوجد معبد، وإن كان المرء يتردد أمام تمييزه كمعبد.

ويبدو أن مخطط البناء العادي يتبع توجيهات المهندسين الزراعيين الرومانيين، فارّو أو كولوميللا ـ في اختيار الموقع وتصميم البنايات وواجهة منزل السيد (التي تطل على الجنوب والشرق). ويوجد هذا المخطط في أماكن أخرى في مختلف أرجاء الامبراطورية الرومانية. وقد كف كثير من هذه الفيللات عن الوجود بهذه الصفة، وتغير معنى كلمة "فيللا" نفسها، مع تولي القرى زراعة الضياع(١٦١)، التي استمرت لزمن طويل كمشروع قابل للحياة. وأياً كان الأمر، فمن المؤكد أن "الأديرة سوف تتبنى شكل الفيللا الريفية (الرومانية) في عهد سان بينوا"(١٦٢).

لكننا لسنا مهتمين بطراز المساكن والأسوار المحيطة بالفيللا قدر اهتمامنا بشاغليها من البشر. لقد كانت الفيللا الغالية ـ الرومانية مقر تركز فظيع، "كانت مصنعاً ريفياً حقيقياً. . . أسوأ بكثير. . . من المصانع الحضرية في القرن التاسع عشر في إنجلترا (أو) في فرنسا"(١٦٣). إذ كانت جهازاً لاستعباد ولسحق الكائنات البشرية. ونحو عام ٤٥١، كتب راهب أحزنه حظ هؤلاء الضحايا العاثر: "عندما يفقد صغار ملاك الأرض

بيوتهم وأراضيهم على أثر عمل من أعمال اللصوصية، أو عندما يطردهم مسئولو جباية الضرائب، يلوذون بضيعة أحد الأثرياء ويصبحون من سكانها. . . والحال أن جميع أولئك الذين يذهبون للعيش في أراضي الأغنياء إنما يتحولون كما لو كانوا قد شربوا من كأس سيرسيه ويصبحون عبيداً"(١٦٤). بل إن المتسولين والمتشردين والخارجين على القانون والفارين من الجيش سوف يجري إدراجهم بالقوة في العمل، و"ربطهم بالأرض تحت سيادة السيد"(١٦٥). ولذا يجب أن لا تضللنا مصطلحات "المزارع الصغير" أو "المستوطن". فالامبراطورية الرومانية كانت تتميز بهذا الالتباس الجدلي بين العبد والمستوطن: وفي أحسن الأحوال كان المستوطن واحداً من أحلاس الأرض، إذا ما استعرنا مصطلحاً استخدم فيما بعد.

وكانت هذه الدراما حادة ومحل استياء جسيم، وذلك بقدر ما أن العبودية، التي سرعان ما سوف تنتشر في كل مكان، يبدو أنها كانت أقل تطبيقاً بين الكلتيين مما بين شعوب البحر المتوسط(١٦٧). ثم إن الضياع الكبيرة، بسبب كفاءة أساليبها الانتاجية، كانت قد أصبحت أكبر بكثير، إذ ضمت إليها، ولكن دون أن تهدف إلى ذلك تماماً، أراضي المزارعين الصغار المحيطة بها. وهكذا كان نظام **عبودي** آخذاً في التوسع المتواصل؛ وربما مثل العبيد ثلث السكان. وقد اعتمد النظام على مدد متواصل بعد انتهاء الوجود الروماني في غاليا. ففي عهد داجوبير مثلاً (٦٢٩ ـ ٦٣٩)، عاد الجيش الملكي من حملة على آكيتين، ساحباً وراءه طوابير طويلة من الأسرى، كل اثنين منهم مقيدين أحدهما بالآخر، "مثلما يُفعل مع الكلاب"(١٦٨). على أن العبيد كانوا يموتون بسرعة: ففي المزارع الأمريكية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان العبد لا يحيا لأكثر من سبع سنوات في المتوسط.

وللحفاظ على الأعداد ولمنع الهرب، كانت هناك ضرورة لدولة قوية، تمثل تهديداً حاضراً دائماً بالقمع. ألم يكن الانتقال في روما نفسها من جمهورية إلى امبراطورية، أي إلى نظام قوي تدعمه الطبقات المالكة، قد ترتب على تمردات العبيد؟ إلاَّ أنه في غاليا، كانت سلطة الحكم قد تدهورت خلال عهد كومودوس: لقد تتابعت الاحتجاجات والانتفاضات و"التمردات الفلاحية" بسرعة. وفي ظل ديوكليتيان وماكسيميانوس، خلافاً لذلك (٢٨٤ ـ ٣٠٥)، أعاد النظام الامبراطوري تأكيد سلطته وعادت العبودية إلى حيز التطبيق. ولكن ليس لزمن طويل: فسرعان ما نشبت انتفاضات فلاحية من جديد.

وكان أول مظهر معروف للتمرد نوعاً من أعمال قطع الطريق الجماهيرية قاده المدعو ماتيرنوس(١٦٩)، نحو ١٨٦ ـ ١٨٨، وهو حركة تشبه الكثير من الحركات الأخرى الموجهة ضد القرى والمزارع والفيللات. وقد تعززت صفوفها بعد النجاح الأول، ثم تبعثرت بعد مواجهاتها الأولى مع قوات النظام، التي لم يكن بوسع هذه الحركة الصمود في وجهها: وفي كل عصر، أثبتت الانتفاضات الفلاحية أنها عاجزة عن مقاومة جيش منظم. لكن الهزيمة لم تمنعها من الاستمرار بشكل سري. لقد أخمد ماكسيميانوس جميع الانتفاضات بين الألب والراين؛ على أن حرب العصابات قد استمرت.

وفي القرن الثالث، من جراء عبء الضرائب والتضخم النقدي الذي أدى إلى ارتفاع الأسعار، تزايد الخطر الفلاحي إلحاحاً، إلى حد أن كلمة جديدة قد سُكت للإشارة إلى المتمردين: **Bagaudae** (ربما من كلمة **baga**، وهي كلمة كلتية تعني المعركة)(١٧٠). ونحو عام ٤٤٠، كتب سالفيان مبرراً الـ **Bagaudae**: "سوف أتحدث الآن عن الباجود الذين جردهم من ممتلكاتهم أناس أشرار ومتعطشون للدماء، وضُربوا وقُتلوا، بعد أن جُرِّدوا حتى من شرف الاسم الروماني. وهم الذين يوجه إليهم اللوم على هذه المصيبة، وهم الذين نسميهم بهذا الاسم اللعين، نحن الذين نتحمل المسئولية عن كل ذلك. إننا نسميهم بالخارجين على القانون، أولئك الناس الذين جعلنا منهم مجرمين. لأنه، أليس جورنا وانعدام نزاهة قضاتنا، وأحكام النفي التي أصدرناها، وأعمال السلب التي انهمكنا فيها، هي التي أوجدت الباجود؟"(١٧٢).

وربما كان الشيء الأخطر من سواه هو أن الفلاح المتمرد قد رحب بالبرابرة وتفاهم معهم واستفاد من المتاعب التي تسببوا فيها لكي يشن غاراته هو، الأمر الذي زاد من حدة هذه المتاعب. وإلى جانب البرابرة الذين حاربوا ونهبوا، كان هناك أيضاً برابرة مرتبطون بالأرض. وسواء أكانوا قد فروا من الجيش من تلقاء أنفسهم أم اختزلوا إلى حالة العبودية على أيدي كبار ملاك الأرض، فقد أصبحوا شركاء الفلاحين الغاليين ـ الرومان في البؤس.

والحال أن التمردات الفلاحية، المتحركة من حيث الجوهر، كانت تنتقل أحياناً إلى مسافات بعيدة. ولعلها كانت أكثر هيمنة في غاليا الغربية بملاذاتها التي لا حصر لها في الغابات حيث سرعان ما تبخرت السلطة الرومانية التي لم تكن قط جد قوية. ومن شأن هذا أن يفسر حواراً في كوميديا ترجع إلى القرن الخامس، هي كوميديا *Querulus*، المتذمر ـ التي نجهل مؤلفها. فأحد الشخصيات يطلب من ربه العائلي "أن يهبه القوة

لمحاربة الأجانب وسلبهم ممتلكاتهم". وعندئذ يجيبه الرب: "اذهب وعش على ضفاف اللوار"(١٧٣). ففي تلك النواحي، في ما يوضح الرب، يحيا الناس "بموجب شريعة الغاب" و"كل شيء مباح". ومن المرجح أن المؤلف كان يفكر في الباجود.

وفي كتاب صدر مؤخراً(١٧٤)، دافع بيير دوكيس عن المتمردين وضخم من دورهم. بل إنه كتب يقول: "إن الباجود المذبوحين قد انتصروا على أية حال". فصلابتهم قد أرغمت النظام العبودي على التحول نحو نظام حلسية الأرض الأقل قسوة ـ فالعيش في ظله كان أيسر لأن الحلس، خلافاً للعبد، كان له بيت وأسرة وقطعة من الأرض، وكان الإكراه الاجتماعي قد انتقل من كاهله إلى الأرض. وكان الحلس يتمتع بحرية أوفر من العبد ومن ثم فقد كان عمله منتجاً أكثر. على أن التحول لم يكن قد أصبح كاملاً بعدُ، بل كان بعيداً عن ذلك، بحلول نهاية غاليا الرومانية. وسوف يتعين الانتظار إلى زمن الكارولينجيين على الأقل، وإلى ما بعده! والحال أن عوامل كثيرة ـ اقتصادية وسياسية واجتماعية ـ سوف تتدخل بقدر لا يتماشى تماماً مع المنطق جد البسيط لهذا التفسير المتمركس. وأعتقد أيضاً أن انحطاط المدن المتزايد قد مكن الريف من إحراز قدر من الحرية. وفي ظل الكارولينجيين، يبدو أن الفلاحين الأحرار كانوا ما يزالون كثيرين جداً، مع أن الملكية الصغيرة للأرض قد أخذت منذ تلك اللحظة في "الانحدار الحاد"(١٧٥).

على أنني لست مهتماً الآن بتمردات الباجود من هذه الزاوية العامة قدر اهتمامي بإظهار إلى أية درجة من الخطورة أدى هذا التمرد إلى زعزعة غاليا الريفية وإضعافها. إن ما انقضت عليه غزوات البرابرة ومزقته كان مجتمعاً مهلهلاً بالفعل.

وربما جاز للمرء أيضاً أن يتساءل ما إذا كانت المسيحية قد أخذت تتسلل إلى غاليا كشعاع من الأمل بسبب هذه المتاعب والمحن في القرن الثالث؟ من المرجح أن الإجابة بالنفي. فقد ظهرت الجماعات المسيحية الأولى نحو سبعينيات القرن الثاني في مدن قليلة: مارسيليا، ليون، أوتان. ولكن حتى في زمن شهداء ليون في عام ١٧٧، سنجد أن هذه الجماعات كانت ما تزال جماعات محدودة العدد جداً، تتألف غالباً من يونانيين أو من شرقيين يتكلمون باليونانية. فالواقع أن المسيحية لم تبدأ في مد جذور لها في غاليا إلاَّ بحلول نهاية القرن الرابع الميلادي ـ بعد وقت طويل من مرسوم ميلانو (٣١٣) الذي أكد الحرية التامة للعبادة في الامبراطورية؛ لكن الجماهير لن تفتح أذرعها بالفعل للمسيحية إلاَّ بعد وقت طويل أيضاً من ذلك.

ومع ذلك، لا يجب أن ننسى غزوات البرابرة

فيما مضى، كان المؤرخون يلقون اللوم بالكامل عن انهيار كل من الامبراطورية الرومانية وغالبا على غزوات البرابرة. وقد اعتادت التفسيرات التقليدية على التشديد بقوة على مغامرات البرابرة، بدءً من "الغزو الكبير" الذي قاده راداجايزوس في عام ٤٠٦ وحتى وصول القوط الغربيين في عام ٤١٢ والبورجونيين في عام ٤٤٣ إلى غاليا. وقد قيل إن المحنة قد انتهت عندما تمكن الرومان وحلفاؤهم "البرابرة"، في معركة الساحات الكتالونية الحاسمة في عام ٤٥١، من الانتصار على آتيلا وحشوده من الفرسان المغول الذين كانوا قد خرجوا من أعماق آسيا ودفعوا أمامهم أقوام أوروبا الوسطى وجرمانيا. لقد تم تفادي خطر قاتل. فهل أدت موجة غزوات البرابرة إلى تغيير مسار التاريخ بالفعل؟ أم أن المؤرخين المحدثين محقون حين ينسبون لها أهمية أقل؟ الإجابة نعم ولا في وقت واحد.

إن الحجة الأولى التي يقدمها المؤرخون الساعون إلى التقليل من شأن دور البرابرة هي العدد القليل للغزاة، والذي أثبتته منذ عام ١٩٠٠ دراسة هانز ديلبروك الكلاسيكية(١٧٦).

ولعل عدد الفرانك كان نحو ثمانين ألف وعدد البورجونيين مائة ألف وعدد الفاندال نحو عشرين ألف (بالمقارنة مع نحو ثمانين ألف عندما عبروا مضيق جبل طارق)، وكان عدد الآخرين مماثلاً تقريباً. ومن ثم فلم يكن هناك مفر من أن يتفوق عليهم في العدد سكان يصل عددهم إلى زهاء سبع ملايين. وقد اعتاد هنري بيرين(١٧٧) قول إن البرابرة ربما كانوا قد "بربروا" الامبراطورية، لكنهم قد جرى ابتلاعهم أنفسهم في سكانها، حيث نجحت اللاتينية واللغات الرومانية في إزاحة لغتهم كما نجحت المسيحية في إزاحة ديانتهم.

لكن المؤرخين نادراً ما ترددوا مع ذلك في التعبير عن احتقارهم، بدرجات مختلفة، لـ "المغامرين الشرهين، الحنجوريين، ذوي الروائح الكريهة"، كما سماهم لوسيان روميه(١٧٨). ويرى مؤرخ شهير أن الفرانك مثلوا "مرتعاً للرذيلة، وأرضاً خصبة للفجور وللغدر وللوحشية"(١٧٩) ـ كما لو أن تاريخ الامبراطورية الرومانية في عهدها الأخير كان تاريخ الفضيلة والرقة والوفاء! إن الصورة القديمة للفرسان المتوحشين المتدفقين على الغرب قد حلت محلها صورة الحمقى، "الرجال الذين ينشدهون لرؤية الأسوار المنهارة للامبراطورية التي كانوا يدقون أبوابها والتي يدخلونها

الآن على أطراف أصابع أقدامهم"(١٨٠). (كان الجرمان على أية حال يصفون **الليمات** بالـ **Teufelmauer**، حائط الشيطان). أمّا فيما يتعلق بزعمائهم، فقد وصفهم فرانسوا جيزو، وهو كاتب رائد في هذا الاتجاه، بأنهم "يتعلقون في عناد بأسمال الأبهة الرومانية، كملك زنجي يرتدي زياً أوروبياً"(١٨١).

فهل لهذا كله معنى بالفعل؟ أم أن المؤرخين يتحركون على بندول من رؤية متطرفة إلى رؤية متطرفة أخرى؟ إن لم أكن مخطئاً، كان روبير فوسييه أول من طرح وصفاً عادلاً لكل من الفريقين، لأولئك الذين جاءوا إلى غاليا ولأولئك الذين استقبلوهم طوعاً أم كرهاً. دعونا نعيد عرض الحجج المطروحة.

فلنأخذ أولاً عدد الغزاة: من الصواب الإشارة إلى الحجم المتواضع لهؤلاء السكان المتحركين في اتجاه الغرب. إلاّ أنه، بشكل مستقل عن "الغزوات"، كانت غاليا تستقبل بالفعل مدداً متواصلاً من الدم "البربري". ويشار في هذا الصدد إلى عدد إجمالي قدره نحو مليون إنسان. لكن هذا العدد لن يكون مع ذلك مهماً جداً لو أنّ سكان غاليا الرومانية كانوا بالفعل ما بين عشرين إلى ثلاثين مليوناً (وهو رقم جرى طرحه لكنني لا أصدقه). وطبيعي أن نسب الامتزاج تتغير إذا كان هذا الرقم أقرب إلى ١٠ مليون. على أن پول ديفورنيه(١٨٣) يرى أن الاحتلال البورجوني في سافوي كان تافهاً بحيث إن أثره كان ضعيفاً. وهو يستنتج أن الغاليين ـ الرومان المقيمين هناك كانت فرصتهم قليلة في رؤية البورجونيين بأعداد أكبر من الأعداد التي رآها الفلاحون الفرنسيون من الألمان خلال الحرب الأخيرة (العالمية الثانية. ـ المترجم). ثم إن التوترات في بروفانس ولانجدوك كانت أقل وضوحاً مما كانت عليه في شمال ليون، أو في غرب المسيف الأوسط أو في الحوض الباريسي(١٨٤).

بيد أنه حتى لو كان القادمون الجدد أقلية بشكل واضح، إلاّ أن الأقليات هي غالباً العنصر النشيط داخل المجتمعات، فهي التي تغير شكلها ومظهرها. ثم إن تسلل البرابرة عبر الراين كان قد بدأ منذ وقت مبكر جداً. وقد حدث بأشكال متباينة ـ عبر الجيوش الرومانية مثلاً، وهي ممارسة قديمة تماماً؛ **فالليمات** على طول الراين كانت منفذاً بقدر ما كانت مانعاً، إذ كانت أحد سبل تجنيد الجنود والعمال اليدويين دون خطر. والحال أن البرابرة، سواء أكانوا قد اتخذوا أماكنهم كعبيد في الضياع الكبيرة، أم امتزجوا بالسكان المحليين بعد زرعهم في صفوفهم كجنود "قد أسهموا... بعد أن ابتلعت الجماهير الفلاحية أعدادهم الصغيرة، في ميلاد المجتمع الريفي ولكن الميال إلى

الحرب في أوائل العصور الوسطى"، والذي سوف يكون تفسيره صعباً لولا "ذلك التغلغل الطويل البطيء لعنصر عسكري في أدنى مراتب المجتمع"(١٨٥)، ولابد أنهم قد غيروا المشهد الزراعي في عدد من الأماكن، إذ نمت على مواقع الفيللات ـ التي انهار كثير منها حرقاً ـ قرى أو قرى صغيرة مبعثرة تعيد سيرة أنماط الاستيطان الچرمانية السابقة. كما أن تطور الرعي قد غير وجه الزراعة من عدة نواح. وأخيراً، كان الغزاة الچرمان قد كفوا، بالرغم من جميع التعليقات غير الإيجابية، عن أن يكونوا عين الشعب الذي سبق لتاسيتوس وصفه. فبشكل مستقل أو من خلال الاتصال بالرومان، كانوا قد أحرزوا تقدماً فعلياً. وتشير الوثائق إلى أن عدداً غير قليل من الچرمان قد خدم في الجيش الروماني كضباط في أركان الفيالق أو القوات المساعدة، وبهذه الصفة، جرى تصعيدهم إلى مصاف مواطنين رومان. باختصار، نجد فلاحين ونبلاء يتمازجون على مستوياتهم الخاصة، ليس عبر الغزو والنهب بل عبر الأشكال السلمية للاندماج والتي لا تخلق متاعب.

ودون رغبة منّا في إحياء نظرية أُغُسطين تييري، والتي تذهب إلى أن الفرانك هم أسلاف نبلاء **النظام القديم** وأن الغاليين هم أسلاف أحلاس الأرض والبروليتاريين، وهي نظرية لا يقبلها اليوم أي مؤرخ، أود مع ذلك أن أشير إلى أن الارستقراطية الفرانكية قد انضمت إلى الصفوف الأوفر عدداً بشكل ملحوظ للارستقراطية الغالية ـ الرومانية القائمة، والتي فازت بالبقاء عبر "التعاون مع الأجنبي"، كما عبر العثور على ملاذ في المراتب الكنسية العليا. والحقيقة الحاسمة، في رأيي، هي أن الارستقراطية الفرانكية قد عززت وأكدت هيراركيةً اجتماعيةً كتب لها الاستمرار، بالرغم من جميع التغيرات والتحويرات التي لا مفر منها، بدرجة استمرار **النظام القديم**، إن لم يكن بدرجة أكبر.

على أن غاليا قد جُرحت جُرحاً رهيباً مع ذلك من جراء غارات البرابرة الكثيرة وأعمال النهب والقتل والاغتصاب واشعال الحرائق وأعمال التخريب وتحركات القوات وفي نهاية الأمر من جراء احتلال الغزاة الدائم وسلبهم لها. ولابد أن النتيجة التي ترتبت على ذلك، وإن كان من المستحيل قياسها، هي الخراب الاقتصادي والانحدار الحاد لعدد السكان. ويكتب أحد المؤرخين فيقول: "ربما جاز لنا أن نغامر بافتراض أن ربع أو ثلث السكان كانوا ضحايا للغزوات، وإن كان يجب أن نتذكر بالطبع أنه في بعض الأقاليم، خاصة في الشمال والشرق، ليس من المبالغة القول بأن أكثر من نصف السكان قد تلاشوا، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المجاعة والأوبئة التي تلت الغزوات"

وكذلك "عصابات قاطعي الطرق التي كانت تجوب البلد".

وقد عانت المدن معاناة جسيمة وسرعان ما انزوت داخل أسوارها. وضمن حدودها، شَيَّدت معاقل حصينة للاحتماء بها. وجرى تدعيم أسوار هذه الحصون المرتجلة بحجارة مأخوذة من العمائر الأثرية. ولم يكن من شأن هذا أن يؤدي بالضرورة إلى حماية المدن من السقوط أمام حصارات مباغتة أو طويلة الأمد من جانب البرابرة: فالخيانة والخوف والجوع أو عدم توفر الماء كان يسلمها إلى العدو. والحال أن الامبراطور يوليان (٣٦١ ـ ٣٦٣) الذي استمتع بإقامته في لوتيس (لوتيسيا [باريس]) خلال زيارة قصيرة إلى غاليا، قد كتب إلى الأثينيين يقول: "إن عدد المدن التي دُمِّرت أسوارها [في غاليا] قد وصل الآن إلى نحو خمس وأربعين"(١٨٧).

والحق إن بعض الأقاليم قد خرجت من المحنة سالمة: فالجنوب "لم يعرف شيئاً مشابهاً لما حدث في شمال ليون أو في غرب المسيف الأوسط"(١٨٨). وفي تولوز في القرن الرابع، وفقاً لأوزونيوس، "سارت الحياة سيرتها السابقة، عين سيرة قرون خلت"(١٨٩). إلا أنه بشكل عام، أخذت المدن تنكمش: فقد استولت الحقول والبساتين على أرضها. وأصبحت مدن سابقة (أو عادت لتصبح من جديد) ما لا يزيد كثيراً عن قرى، حيث كانت الأكواخ ذات الأسقف المنخفضة تصطف على جوانب شوارعها الضيقة، وكان ملاك الأرض الأغنى يتركون المدينة وينسحبون للإقامة في فيلاتهم، للدفاع عنها أو للدفاع عن أنفسهم داخلها، ولكي يكونوا أكثر قرباً من ممتلكاتهم ولكي يهربوا من الضرائب الباهظة المفروضة على سكان المدن. وكما كتب الكسندر روستو(١٩٠)، فإن المدن، المحرومة من أسواق الماضي المزدهرة، والتي تدبر عيشها من مواردها المختزلة، قد مالت إلى الاكتفاء الذاتي، حيث لا تأكل إلاَّ ما ينتجه جيرانها المباشرون، من الحقول المحيطة بالمدينة. والحال أن ليون، التي انهارت قنواتها، قد تزحزحت عن موقعها الأصلي. وأصبح الريف أيضاً شبه مقفر. وانتهت فيللات كثيرة نهاية مأساوية، كما نعرف من الشواهد الآركيولوجية الوفيرة. وانتشرت الـ **agri deserti** في كل مكان دون توقف. ومع ذلك، فبالرغم من الكارثة التي حلت بالمدن، وبالرغم من كل ما قيل، إلاَّ أن العالم القديم "لم يؤد بحكم الواقع إلى موتها التام"(١٩١). فهي لم تصبح بين عشية وضحاها "جثث مدن"، بحسب تعبير سانت أنطوان البليغ ولكن المبالغ. وقد اختار الملوك البرابرة مدناً معينة لكي يقيموا فيها قصورهم، وكانت هذه القصور تمثل ذرى الإنجاز ضمن حدود مستوى التجارة

والحضارة في ذلك الزمن. وسوف يُكتب لها البقاء. بل إنه لمن المدهش إلى حد ما أنه في حين أن الاتجاه الاقتصادي الهابط قد استمر لوقت طويل جداً في ممارسة ضغطه الضار، وفي حين أن غاليا الرومانية قد واصلت الانحدار بشكل لا مفر منه، إلاّ أنها قد صمدت مع ذلك في وجه هذه الضربات. فهل يرجع ذلك، كما أميل إلى الاعتقاد، إلى أن غاليا كانت تحوز مستوى معيشياً مرتفعاً بدرجة معقولة في المقام الأول؛ إلى أنها كانت تتميز بتكوين سليم البنيان بشكل أساسي؟ أم أنه يرجع إلى أن الاتجاهات الاقتصادية السائدة لم تؤثر دائماً على غاليا بشكل عميق؟ إلى أن الامبراطورية، من حيث هي كيان عام مركب، كانت تنحدر بالتأكيد، ولكن بمعدل سرعة بطيء؟

روما، اقتصاد عالم

تشير الشواهد إلى أن انحدار الامبراطورية الرومانية هو الذي حكم وقرر مصير غاليا، لكن هذا لا يجعل الأمور أكثر وضوحاً، فما أبعده عن ذلك! والحال أنه ما من مؤرخ جاد يشعر بأنه مؤهل لحل المسألة حلاً قاطعاً، ولذا فإننا نحاول كلنا اتخاذ احتياطات معقولة. ويخطر ببالي على نحو خاص الاستنتاج الشامل الذي انتهت إليه دراسة ماري ـ بيرناديت بريجبيير الجميلة، وهي دراسة تحاول التوفيق بين جميع جوانب المسألة(١٩٢).

إلاّ أننا لو كنا نريد رؤية الأمور بشكل أوضح قليلاً، فليس أمامنا من خيار سوى البدء من بعض الافتراضات المعقولة وإن لم يكن بالإمكان التحقق من صوابها.

يمكن تتبع انحدار الامبراطورية على عدد من المستويات ـ هي المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وبوسعنا كلنا الاتفاق على أنه كان بطيئاً، وكان بالإمكان رصده على مدار فترة طويلة، كما كان متفاوتاً، أي أنه اتخذ شكل تدهور في أوقات مختلفة وفي أماكن مختلفة.

وكانت العلامات الأولى على الضعف سياسية ـ انحدار الامبراطورية، مؤسساتها وجيشها. وعادة ما تجرى المطابقة بين انهيارها النهائي وسقوط الامبراطورية الغربية: ففي عام ٤٧٦، قام أودواسير، قائد الهيرول، بخلع رومولوس أوجوستولوس في رافينّا، ونُقلت شارات الامبراطورية إلى القسطنطينية. ولم يكن ذلك غير إجراء شلكي، شهادة وفاة متأخرة ليست أكثر من اعتراف رسمي بما كان قد حدث منذ وقت بعيد. وكما قال فيستيل دو كولانج، فإن "الامبراطورية الرومانية كانت قد ماتت، لكن أحداً

الشكل ٢١

اقتصاد العالم الروماني

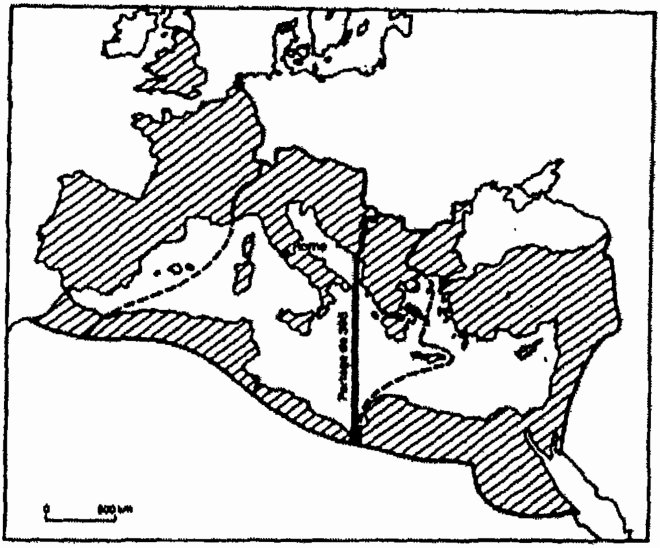

لم يؤد تقسيم الإمبراطورية الرومانية في عام ٣٩٥ إلى جزء شرقي وجزء غربي إلى تدمير وحدة اقتصاد العالم الروماني، الذي امتد إلى ما وراء حدود الإمبراطورية في اتجاه الدانوب والبحر الأحمر والمحيط الهندي.

لم يلحظ ذلك" (١٩٣).

على أن الامبراطورية كانت واقعاً اقتصادياً، مثلما كانت واقعاً سياسياً: فهي ساحة يمكن للتجارة أن تحدث فيها، مركزها البحر المتوسط، وتمتد داخلياً عبر طرق تخترق البلدان المتاخمة لها من جميع الجهات. وكانت المنطقة التي سيطرت روما عليها وحفزت تطورها اقتصاد عالم، وحدة متماسكة تغطي مساحة كبيرة من الكوكب. وهذه الوحدة المتماسكة، التي كانت غاليا قطاعاً تابعاً لها، سوف تستمر حتى القرن الثامن أو التاسع على الأقل، أي حتى عهد شارلمان. إذ يبدو أن روما كان مقدراً لها أن تحيا إلى أجل غير مسمى.

وفي هذه المناقشة التاريخية، فإن عمل هنري بيرين، خاصة كتابه **محمد وشارلمان** (١٩٣٧) يعد مهماً لكونه قد رصد أهمية هذا الاقتصاد العالمي: فقد اشتبه في أن إيقاعاته كانت مهمة، وأدخل منظور الاقتصاد السياسي إلى هذه القرون السديمية، المحصورة بين غزوات البرابرة في القرن الخامس والغزوات الإسلامية في القرون السابع والثامن والتاسع. وحجج بيرين معروفة الآن جيداً. وقبل خمسين سنة، أثارت دهشة المؤرخين؛ فقد رأى أن الفتح الإسلامي كان مهماً بالدرجة الأولى من زاوية الاستيلاء على البحر المتوسط، الذي سيطر الكفار عليه وأغلقوه في وجه الملاحة المسيحية ومن ثم حسموا سقوط الغرب الذي لا علاج له.

وإذا ما صبر القارىء عليّ قليلاً، فسوف يرى إلى أي حد أقبل أو أرفض أطروحة بيرين التي أصبحت الآن موضع خلاف. والحال أن الانتقادات والتحفظات التي أحاطها بها في الماضي مؤرخون مثل مارك بلوخ(١٩٤) أو ايتيان ساب(١٩٥) أو فرانسوا - لوي جانشوف(١٩٦) - الذين ظنوا أنهم قد نسفوا بالفعل "نظرية" بيرين - لا تثبت إلاّ أن البحر المتوسط لم يكن مغلقاً تماماً خلال تلك القرون، بل وأن بعض الصلات التجارية كانت قائمة بين غاليا وشرقي البحر المتوسط. وما لا يقولونه بما يكفي من الوضوح هو ما إذا كانت تجارة البحر المتوسط قد أخذت **تتباطئ** أم لا، وإذا كانت قد أخذت تتباطئ فبين أية تواريخ كان ذلك.

وأنا أعتقد أن التجارة قد أخذت تتباطئ بالفعل، وهذا هو المهم في النهاية.

إن ما نجده في الواقع هو انحدار بطيء، يمتد على عدة قرون، وهذا الانحدار هو المسئول أساساً عن خراب الامبراطورية الرومانية وانهيارها التدريجي. ودون تبرئة البرابرة بالكامل، إلاّ أنني أميل إلى التقليل من شأن مسئوليتهم و، بدرجة ليست أقل،

مسئولية سادة الامبراطورية، التافهين غالباً بالفعل وإن كانت بينهم شخصيات عديدة ذات وزن مثير ـ ديوكليتيان أو قسطنطين مثلاً. كما أنني لا ألوم المحاربين، من أمثال ستيليكو (٣٥٩ ـ ٤٠٨) أو آتييوس (٣٩٠ ـ ٤٥٤)، الذين لعبوا دوراً رائعاً وغير متوقع في الدفاع عن وحدة غاليا. على أن جهود الجميع، الرائعين والتافهين، كان محكوماً عليها بالفشل منذ البداية إلى حد ما.

وإذ أتخذ كنقطة انطلاق لي عام ١٥٠ للميلاد، والذي يمثل **بشكل عام** ذروة غاليا الرومانية، وكنقطة وصول عام ٩٥٠، والذي يمثل **بشكل عام** المرحلة المنخفضة للعصر الكارولينجي، فإنني أسمح لنفسي بالتساهل وتخيل اتجاه عام يميل إلى الانحدار المتواصل، منذ عام ١٥٠ إلى عام ٩٥٠، دون أن أدهش بشكل زائد عن الحد حيال واقع أن هذا الانحدار قد استمر نحو ثمانية قرون دون انقطاع ـ ومن المؤكد أنها القرون الثمانية الأكثر سديمية في تاريخ كل من فرنسا والعالم الغربي.

وأنا لا أزعم أن هذا الاتجاه يتطابق بشكل دقيق مع تدهور بطيء ومتواصل للساحة الاقتصادية التي غطتها غاليا أو حتى للاقتصاد العالمي الذي شكل قاعدة حياة الامبراطورية الرومانية ـ وهي قاعدة ظلت راسخة بشكل ما على مدار مد التاريخ وجزره. إنني اعتبره، بالأحرى، مؤشراً على اتجاه عام، ربما يكون اقتصاد غاليا، شاغلنا الرئيسي، قد تباين ضمنه، حيث يتحسن أحياناً ضد التيار، وينحدر أحياناً بشكل أسرع من القاعدة العامة، وحيث يؤدي مده وجزره إلى تخفيف أو زيادة حدة آثار الركود العام من حين إلى آخر. ومع أن الشواهد المتاحة غير كافية، كما سوف نرى، إلاَّ أنني أعتقد أنه ربما كان قد حدث قدر من التحسن من عهد كلوفيس (مات في عام ٥١١) إلى عهد داجوبير (مات في عام ٦٣٩) ثم مرة أخرى خلال العصر الذي شهد صعود الكارولينجيين من أواخر القرن السابع إلى منتصف القرن التاسع، وهو تحسن تخللته انحدارات في الفترات الفاصلة بين العصرين. وكل هذا افتراضي وتخطيطي عمومي بالضرورة، ليس المراد به سوى إيجاد إطار تفسيري يتميز بقدر ما من المعقولية.

وهكذا فإن ما نحن بإزائه، في نظري، بالرغم من الصعودات المؤقتة، إن كانت هذه قد حدثت، هو انحدار طويل الأمد من المرجح أنه قد استمر حتى نحو عام ٩٥٠. ومن ثم فإنني دون أن أتبنى كل رؤى هنري پيرين، التي أجدها دائماً حافزة إلى التفكير، يمكنني مع ذلك ملاقاته في منتصف الطريق.

أنا لا أشاطره، مثلاً، رأيه الذي يذهب إلى أن الوضع برمته كان نتيجة للفتوحات

الإسلامية التي أدت، من القرن السابع فصاعداً، إلـى السيطرة على مجمل الملاحة عبر البحر المتوسط، خاصة بعد الاستيلاء على صقلية بموقعها المهيمن على الطرق البحرية من الشرق إلى الغـرب (هُوجمت الجزيرة في عام ٨٣١ واحتُلت پـاليرمو في عام ٨٣١ وسيراكوز في عام ٨٧٨). فهذه السلسلة من الفتوحات ـ بلاد الشام في عام ٦٣٤، مصر في عام ٦٣٦، إفريـقيا الشمالية بـين عامي ٦٥٠ و٧٠٠، إسبانيا فـي عام ٧١١ وأخيراً صقلية ـ لم تؤد ببسـاطة إلى إغلاق البحر المتوسط في وجه الملاحة الـمسيحية. وبعد ذلك بزمن طويل، سوف يكتب ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) أنه في تلك الأيام البعيدة لم يجرؤ المسيحيون على إنزال لوحٍ خشبيٍ إلى مياه البحر المتوسط، لكن هذه الإشادة الاسترجاعية بأمجـاد الإسلام إنما تبدو أشبه ما تكون بالتفـاخر الذي لا موجب له. فما الذي كان يمكن للمسلمين أن **يصنعوه** بالبحر المتوسط إن لم يستغلوا البلدان المسيحية الواقعة على شواطئه؟ الحق إنهم كانوا بحاجة إليها.

وقد جرى تسليط ضوء جديد على هذه الجوانب المحددة للمناقشة عبر عمل إلياس آشتور(١٩٧)، المستند إلى وثائق عربية لم تُستخدم من قبل. إذ يبدو أن البحر المتوسط، عندمـا استولى المسـلمون عليه، لـم يكن مواراً بالحـركة على الإطلاق، بل كـان شبه مهجور بالـفعل وكان راكداً بقدر ما يتعـلق الأمر بسكان سواحله. ومن ثـم فإن العامل الرئيسي لم يكن يتمثل في إغلاق البحر المتوسط بحد ذاته، بل في التدهور العام لحياته الاقتصـادية. والحال أن هـذا الاتجاه طويل الأمـد لم ينقلـب إلاَّ في القرن الـتاسع أو العاشر، فآنذاك فقط حدث إحـياء للنشاط عبر مجمل البحر المتـوسط، أثّر على جميع البلدان حول شواطئـه، سواء أكانت لاتينية أم يونانية أم إسلامـية. وبحلول نحو ٩٧٠ ـ ٩٨٥، كان الذهب الـعربي يتدفق على بـرشلونة(١٩٨). وطبيـعي أن وصوله لـم يبدل المناخ الاقـتصادي. فقد كان مـجرد علامة على انـقلاب اتجاه طويل دام قـروناً وأخذ يتحـرك الآن في اتجاهٍ صـاعدٍ وفي توفـير حافزٍ قـويٍ لمجمـل حياة البـحر المتـوسط وأوروبا.

على أننا لم نقتـرح بعد أسباباً لهذا الركود الذي دام قروناً عديـدة، من شأنها تقديم تفسير مناسب لسيرورة يصعـب فهمها في غياب مثل هذه الأسباب(١٩٩). ولابد لـهذا، يوماً ما، من أن يكون مهمة **تاريخ عام**، إن توفر لنا يوماً ما **تاريخ عام** كهذا، على غرار **الجغرافيا العامة**. فالمشكلة هي أنه في العلوم الاجتماعية كما في العلوم الطبيعية، لابد لكل افتراض، حتى وإن كان جد راسخ، وهو ما لا يـتوافر في هذه الحالة، من أن يجد

تفسيراً له هو بدوره وهلم جراً. فالقول بأن الركود الذي عرفته العصور الوسطى الأولى ليس غير انعكاس للتدهور البطيء للاقتصاد العالمي الذي قرر ثروة روما المادية، إنما يعني أن روما كانت واقعاً **اقتصادياً**، اقتصاداً عالمياً، استمر طويلاً بعد الانهيار السياسي للامبراطورية. لكن الاستمرار يطرح مشكلات ضخمة على المؤرخ! فالواقع أن البنية التحتية الاقتصادية لروما لم يكن جانبها الوحيد الذي استمر بشكل يثير عجبنا. فالمجتمع الروماني قد ترك لقرون طويلة تراث انقسام هيراركي، يجتمع بعالم العبودية المظلم. وماذا عن الثقافة اللاتينية التي استمرت إلى زماننا؟ إن أوروبا برمتها وفرنسا، وهي بلد في قلب أوروبا، ما تزالان مشتبكتين مع تراث روما.

وأنا إذ أنهي قسماً أعرف أنه محل خلاف وجدل، لابد لي من الاعتراف بأنني منجذب إلى افتراض حديث، وهو افتراض مضيء في رأيي، لأنه إن كان صحيحاً أو حتى شبه صحيح، فسوف يحل جميع مشكلاتنا مرة وإلى الأبد. إن فرانسوا سيجو، المؤرخ وعالم الزراعة، قد رد صعود وحظوظ روما إلى الفتوحات التي أتاحت إمكانية توسيع نظام **اللاتيفونديات** وعمل العبيد. وهو يرى أن العبودية قد وفرت القوة التي أدارت المحرك الذي أخذ يكتسب القوة شيئاً فشيئاً وأصبح طويل العمر، أي كانت مصدراً متفجراً للقوة إلى أن انتهت حروب الفتح فدخل النظام في أزمة مديدة بشكل بالغ. وإذا كان هذا هو المدخل إلى الإجابة بالفعل، فإنه يصبح من الأيسر تفسير جميع مشكلات روما الاقتصادية: فالمسألة هي مسألة نظرٍ في الكيفية التي تماشت بها التجارة والاستثمار التجاري الكبير وأعمال الصرافة والتجار مع نظام ظل راسخاً لزمن طويل قبل تفككه في نهاية المطاف خلال الانحدار البطيء للامبراطورية الرومانية. فهل كان النهوض من جديد، عندما جاء، نتيجة لتأسيس حلسية الأرض؟ إن المناقشة ما تزال مفتوحة.

غاليا الميروفينجية

إذا أخذنا كل الأمور بعين الاعتبار، فسوف نجد أن غاليا الميروفينجية، التي ظهرت إلى الوجود بشكل غير متوقع إلى حد ما، كنتيجة لانتصارات كلوفيس (على سيراجريوس في سواسون في عام ٤٨٦؛ وعلى الآلامان في توليباك في عام ٤٩٦؛ وعلى القوط الغربيين في فويه في عام ٥٠٧) لم تمثل بداية من العدم. فالقرون المضطربة التي سبقتها لم تشهد قط، بالرغم من الانحدار الملحوظ، هبوط السكان

تحت الحد الأدنى للكثافة الضروري لتمكين الحياة البشرية من الاستمرار. ومن المحتمل أن عدد سكان غاليا عند نهاية القرن الخامس كان خمس أو ست ملايين: وهو ما يتيح كثافةً، إذا ما اعتبرنا مساحتها عين مساحة غاليا الرومانية، لا تقل إلا قليلاً عن ١٠ أفراد في الكليلو متر المربع الواحد. إلاّ أن العدد لو كان قد هبط إلى ثلاث ملايين، كما قَدَّره روسيل، بعد الغزوات، فهل كان يمكنهم أن يصمدوا للصدمات التالية، خاصة لوباء الطاعون الدبلي الرهيب القادم من الشرق، والذي انتشر عدة مرات خلال الشطر الأخير من القرن السادس ثم من جديد في أواخر القرن السابع(٢٠٠)؟

وأياً كان الأمر، فقد حدث بالتأكيد هبوط ملحوظ في كثافة الاستيطان، الأمر الذي ربما يفسر السهولة والسرعة النسبيتين للفتح الفرانكي. ثم إن هذا الفتح قد امتد وراء المنطقة الواقعة بين السوم والراين، وهي منطقة تمتع فيها الفرانك، المختلطون الآن بأقوام چرمانية أخرى، بالميزة المزدوجة المتمثلة ليس فقط في الحصول على تعزيزات مستمرة من وراء الراين، وإنما أيضاً، في استيعابهم التدريجي للحضارة الغالية ـ الرومانية، بما أن الرومان قد وافقوا إلى هذا الحد أو ذاك على السماح لهم بحراسة الحدود. والحال أن تنصر وتعميد كلوفيس على يد القديس ريمي (ربما في كريسماس عام ٤٩٦، وإن كان التاريخ ليس مؤكداً) كان ضربة حظ لهم. وفي حين أن برابرة آخرين في غاليا كانوا قد تحولوا إلى اعتناق الآريوسية، إلاّ أن كلوفيس والفرانك اختاروا الأرثوذوكسية السائدة في غاليا، وسرعان ما بدأت الأرستقراطية العسكرية الحاكمة تتعاون مع النخبة الغالية ـ الرومانية المدنية والكنسية(٢٠١).

وقد فتح هذا لهم أبواباً كثيرة، وساعدت غاليا القادمين الجدد على الانتصار، خاصة أن الفتح الفرانكي، آخر الغزوات، لم يكن كارثياً بشكل موحد، حتى في الشمال حيث كان الوجود الفرانكي أعظم مما في جنوب اللوار. ومن الناحية العملية، فإنه لا بورجونيا ولا بروفانس، ولا المسيف الأوسط ولا آكيتين، بالرغم من ارتباطها، غير المباشر دائماً، بالـ **Regnum Francorum**، لم تكن في أي وقت من الأوقات مستعمرة استعماراً كثيفاً.

ويتمثل ظرف مؤات آخر في أن الميروفينچيين كانوا قد استولوا أيضاً على بافاريا وتورينچيا على الجانب الچرماني؛ وفي رسالة إلى الامبراطور في القسطنطينية نحو عام ٦٣١(٢٠٢)، زعم داجوبير من ثم أن حكمه قد امتد من الأطلسي إلى الدانوب. وقد تمثلت النتيجة على أية حال في أن حدود الراين لم تعد مهددة. وهكذا، فبالرغم من

الشكل ٢٢

التوسع الفرانكي

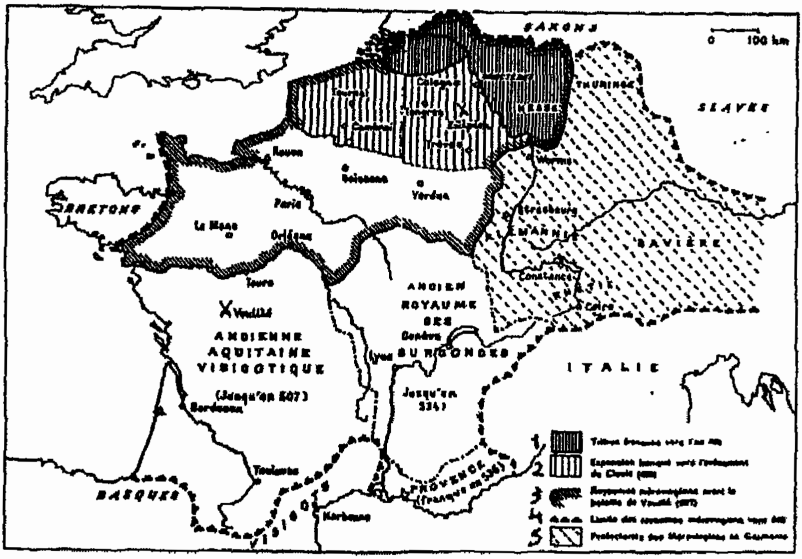

1- القبائل الفرانكية نحو عام ٤٠٠.

2- التوسع الفرانكي عند ارتقاء كلوفيس العرش (٤٨٦).

3- الممالك الميروفينجية قبل معركة فوييه (٥٠٧).

4- حدود الممالك الميروفينجية نحو عام ٥٦٠.

5- محميات الميروفينجيين في جرمانيا.

نقلاً عن:

L. Musset, *Les Invasions, les vagues germaniques*.

النزاعات المتواصلة بين أمراء العائلة المالكة، الذين لا يبدو بالمرة أنهم كانت لديهم أية فكرة عن الدولة أو عن الصالح العام ـ فبالنسبة لهم، كان الـ **Regnum Francorum**، كما في التراث الجرماني، مجرد ملكية خاصة يتعين تقسيمها بين الورثة الذكور ـ بالرغم من هذه المثالب الكبرى واستحالة الحكم التعاوني، كانت الظروف متوافرة أمام البلد لكي يكون قادراً على التنفس من جديد ولكي تستأنف الحياةُ مسيرتها من جديد في جو من السلم النسبي. فقد بدأت السلع والناس في الحركة مرة أخرى. وكانت المدن والبورجات (**vici**)، والريف والفيللات ـ بعبارة أخرى كل نسيج غاليا الرومانية القديم ـ ما تزال في مكانها. بل إنه يبدو أن الـ **vici** قد أخذت تتزايد في الأماكن التي تلتقي فيها الطرق والتجارة. وقد ساعدت الأسواق على تداول منتجات المزارع في المدن والقرى المحيطة بالضياع الكبيرة وبالأديرة(٢٠٣). ووفرت الأسواق الكبرى حافزاً للتجارة: وقد أنشأ داجوبير في عام ٦٢٧ سوق سانديني الكبرى قرب باريس. وأخيراً، عادت النقود إلى التداول؛ وكانت الورش الملكية والخاصة على حد سواء تتولى سك العملة الذهبية. والحق إن هذا ينطبق على جميع الحكام البرابرة في الغرب ـ أكانوا من الفاندال أم من البورجونيين أم من القوط الشرقيين في إيطاليا أو من القوط الغربيين في إسبانيا ـ بل إنهم قد دمغوا صور أباطرة بيزنطة على عملاتهم.

وإذا كانت هناك حاجة إلى برهان على بقاء اقتصاد البحر المتوسط، فمن المؤكد أن هذا هو البرهان المطلوب. ثم إن مارسيليا وناربون، بل وبوردو قد ظلت على اتصال بشرقي البحر المتوسط الذي واصل إرسال الفلفل والتوابل وورق البردي والعقاقير الطبية ومنسوجات الحرير، بل وعملات ذهبية بيزنطية. وقد تكشف حطام عُثر عليه مؤخراً في خليج فوس عن سفينة كانت في طريقها إلى الشرق وعليها شحنة من الحبوب السائبة وأمفورات مليئة بالقار وفخاريات مدموغة(٢٠٥). وكان الرخام القادم من البرانس يُرسَل ليس فقط إلى غاليا الشمالية، لاستخدامه في بناء الكنائس، وإنما أيضاً إلى إسبانيا وإلى القسطنطينية. وكان الـ **Syri**، التجار السوريون واليهود الذين يتكلمون باليونانية، يلتقون في المدن وعلى طول طرق التجارة؛ وكان هؤلاء هم الرجال الذين حفزوا بنشاط تجارة المسافات البعيدة. فهم الرجال الذين كانوا يوفرون للأمراء المنسوجات الحريرية الثمينة والتوابل والعقاقير، أو الذين كانوا يشترون قوالب الذهب والعبيد. وفي عام ٥٨٥، تلقى الملك جونترام، لدى دخوله أورليان، ترحيباً رسمياً من جالية التجار السوريين الذين حيوه بلغتهم. وصحيح أن أورليان كانت ذات موقع خاص؛ فمع باريس، التي

الشكل ٢٣

غاليا في عهد داجوبير

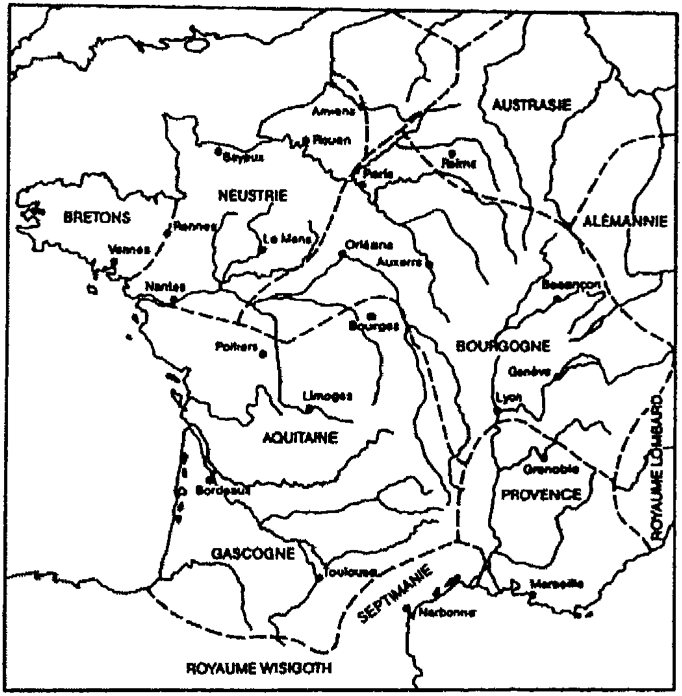

نقلاً عن:

G. Duby, *Histoire de France*

أصبحت العاصمة في عام ٥٠٢، كانت تقع في قلب غاليا، لكن التجار السوريين كانوا موجودين أيضاً في ناربون في عام ٥٨٩(٢٠٦).

ولذا فمن حقنا التحدث عن اقتصاد منفتح على العالم الخارجي، اقتصاد لم يُدِر ظهره لجاذبيات تجارة البحر المتوسط، لكن ضغوطاً أخرى داخلية وخارجية على حد سواء، كانت تجذبه إلى اتجاه الشمال.

وكانت غاليا الميروفينچية مجزأة منذ البداية نتيجة لاقتسام التركة بين أبناء الحكام، لكن خطوط الانقسام هذه غالباً ما كانت تتطابق مع حقائق موجودة من قبل. وهكذا فإن الخط الحيوي على طول اللوار، أو بالأحرى الحدود العريضة التي يشكلها وادي اللوار، قد أصبحت أكثر وضوحاً. والحال أن هذا الخط الفاصل الذي يرجع إلى الأزمنة الأولى (**اللـيمـات** الداخلية التي أوضحتها بحوث روبير سبيكلان التاريخية والجغرافية) قد شطر الفضاء الفرنسي شطرين بشكل أعمق مما في أي وقت مضى (أنظر المجلد الأول، الشكل ٩). فلم يكن لشيء في شمال اللوار أن يكون مماثلاً لشيء في جنوبه. وحتى منتصف القرن الثامن، وصف الفرانك شعب آكيتين **بالرومـاني**(٢٠٧). ولم يكن هذا كل شيء. فإلى الشمال تقع أراضي اوسترازيا (التي يمكن وصفها في شيء من المبالغة بأنها أشبه ما تكون بامتداد لچرمانيا)؛ ونيوستريا (التي تتطابق مع جزء كبير من الحوض الباريسي)؛ وأخيراً آرموريكا، أو كما نسميها بريتانيا، التي استعمرها في القرنين السادس والسابع كلتيون من بريطانيا، خاصة من ويلز. وكان هذا غزواً حقيقياً أدى، إن جاز القول، إلى إعادة كلتنة شبه الجزيرة البريتونية لغوياً وإثنياً ودينياً: ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، سوف يتمتع الميروفينچيون بحدود غربية ثابتة بشكل أكثر رسوخاً بكثير، وهي حدود سوف تتعين مراقبتها وحراستها بشكل دائم. وفي اتجاه الجنوب، يمكن تمييز أربع مناطق: بورجونيا؛ بروفانس؛ سيپتيمانيا، التي يحتلها قوط غربيون قادمون من إسبانيا؛ آكيتين. والحال أن هذه الأخيرة بالإضافة إلى بورجونيا، والتي يمكن للمورفينجيين الوصول إليها بشكل أيسر، كانتا جد حريصتين على صون استقلالهما مهما كان الثمن، وعلى أن تظلا متفرجتين على تاريخ مضطرب كان يدور أساساً، لحسن حظهما، في الشمال.

لكنني سوف أعفيكم من الحديث التفصيلي عن المعارك الدامية بين الأمراء الأشقاء، أو عن النزاعات الوحشية بين فريديجوند وبرونهيلدا، الملكتين المتنافستين اللتين حاربتا إحداهما الأخرى حرباً ضارية ـ حيث كانت الأولى تتحرك في نيوستريا،

بينما كانت الثانية، وهي على الأرجح شخصية عالية الدرجة، تحكم أوسترازيا. والشيء المهم، بالنسبة لنا، هو أن الشمال العاصف كان، في باديء الأمر، القسم الأقل ازدهاراً والأكثر بربرية والأقل تحضراً في غاليا. وكان على كل من نيوستريا وأوسترازيا استخدام متعلمين ورجال دين من الجنوب. ومع ذلك فإن الشمال هو الذي سوف يفرض في النهاية أسلوب حياته على مجمل البلد.

وواقع الأمر أن حركة بندولية بطيئة لكنها مؤثرة، يصعب تحديد تاريخ بداياتها، قد رفعت غاليا إلى الميل في اتجاه الشمال، الأمر الذي أبعدها جزئياً عن التأثير المتوسطي. والحق إن هذا الأخير كان قد أخذ يشحب بالفعل. فمرسيليا وآرل قد أخذتا تنحدران في القرن السابع، بينما كانت أقاليم الموز الأدنى والراين ـ البلدان الواطئة ـ آخذة في التوسع، وذلك بفضل الصلات التجارية بين الأطلسي وإنجلترا وبحر الشمال وسكاندينافيا والبلطيق. وبينما كان نشاط بولونيا يتضاءل، كان صعود كونيتوفيكوس، عند مصب الكانش، علامة دالة، شأنه في ذلك شأن انتشار العملة الفضية، المميز للتجارة الشمالية، على حساب العملة الذهبية الجنوبية التي أخذت تميل إلى التراجع ثم تلاشت في نهاية المطاف (وتجد هذه السيرورة تفسيراً واضحاً لها في مقال ليوپولد چينيكو الذي يرجع إلى عام ١٩٤٧ والذي ما يزال يتمتع بمرجعية قوية)(٢٠٨).

وقد سار التوسع الاقتصادي جنباً إلى جنب مع تطورات أخرى. فالتبشير في الشمال قد صاحب تقدماً اقتصادياً؛ وهناك جرى بناء المزيد من الكنائس ومن الأبرشيات والأديرة ـ مثل دير لوكسوي الذي أنشأه القديس كولومبان في عام ٥٩٠ ثم تبنى القاعدة البينيديكتية في عام ٦٢٠. والخلاصة أنه "ليس من قبيل التهور القول بأن غاليا الشمالية كانت، بحلول القرن السابع، مسرح تجارة نشيطة تماماً وبأنها، بحلول القرن الثامن، كانت من الناحية الاقتصادية الجزء الأكثر ازدهاراً"(٢٠٩) بين أجزاء الممالك الفرانكية.

ومع ذلك، فلا يجب لنا رسم صورة جد زاهية لغاليا الميروفينجية. صحيح أن المدن قد عادت إلى الحياة: فقد كانت تبنى كنائس داخل أسوارها وكانت تشهد ظهور الأديرة على مشارفها، لكنها ظلت متواضعة في حجمها ونشاطها على حد سواء. وكان الريف في تلك الأثناء ما يزال تحت نير الضياع الكبيرة القاسي. إلاَّ أنه بحلول ذلك الوقت ـ وبما يعد علامة واضحة على الانحدار الديموجرافي ـ كانت هذه الضياع تعاني من نقص حاد في القوة البشرية العاملة(٢١٠). ونحن نعرف بشكل مؤكد أن غابات كثيفة

قد غطت معظم الأرض، ممتدة امتداداً شبه متصل من الألب، عبر الچورا والفوج، إلى ساحات الآردين الشاسعة المليئة بالأحراج، وفي حين أنه كان بوسع البشر وقطعانهم العيش عبر استغلال هذه البرّية، إلاّ أنه صحيح أيضاً أن الغابة لا تسترد الأرض الزراعية إلاّ إذا هجرها الفلاح. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن الزراعة قد انكمشت بوجه عام، قياساً إلى العصر الغالي ـ الروماني، بحيث إن ما بقي كان عبارة عن "ريف مفكك"، حيث توجد "قرى كانت عبارة عن جيوب كثيرة في مناطق منتزعة من الغابات. وكانت الأشجار تهيمن على المشهد الطبيعي"(٢١١). وكانت غاليا غاصة بالأراضي الخربة(٢١٢).

وهكذا، فإنه إذا كانت غاليا تبدو محظوظة فما ذلك إلاّ بالمقارنة مع القرون الرهيبة التي انقضت. ولابد للمرء من الاحتراس بعض الشيء من وصف هنري پيرين لها: لقد مال إلى رسم غاليا الميروفينچية في صورة وردية، سعياً إلى التقليل من شأن العصر الكارولينچي، إذ من المفترض أن الأخير يبرهن عبر انحداره على إغلاق البحر المتوسط وما ترتب على ذلك من ركود اقتصادي. وتتمثل إحدى حججه الممتعة تماماً، وهي حجة ليست عديمة الأهمية، في المقارنة بين الكتابة اليدوية للمخطوطات في العصر الميروفينچي ـ وهي كتابة متصلة الأحرف وواضحة، قد لا تكون جميلة جداً، لكن من المؤكد أنها نابضة وحيوية ـ والكتابة الكارولينچية؛ فهذه الأخيرة منتظمة، وحسنة المظهر ودءوبة لكنها تفتقر إلى أية حركية. وقد استنتج من ذلك أن "الأولى كانت كتابة تجارة وإدارة، بينما كانت الثانية كتابة دراسة" وشغل لوقت الفراغ(٢١٣).

ولا يعتقد الآن أي مؤرخ أن فورة غاليا الميروفينچية النسبية قد دامت إلى ما هو أبعد من منتصف القرن السابع. فبعد عهد داجوبير (٦٢٩ ـ ٦٣٩)، الذي كان قد تسنى له بعد مسلسل من الحوادث الملكية توحيد غاليا كلها تحت حكمه، أخذت الأمور تسوء، أو بحسب تعبير پيير ريشيه، أخذ يظهر "انقلاب تدريجي للاتجاه السائد"(٢١٤). وسوف يستمر الركود حتى نهاية القرن. وإذا كان عليّ أن أختار تاريخاً فسوف اختار تاريخ معركة ترتري (٦٨٧) التي رمزت إلى انتصار أوسترازيا وسلالة الپيپّان، وأنهت بالفعل عهد الملوك "الكسالى"، أو بالأحرى العاجزين، آخر الملوك الميروفينچيين(٢١٥). وهو تاريخ له أهمية سياسية، بل واقتصادية أيضاً، يرمز إلى ما يرجح أنه كان بعثاً مؤقتاً ونسبياً ترافق مع صعود الكارولينچيين.

ولعل أهم جانب للعصر الميروفينچي ـ والذي يستغرق قرنين من التاريخ الفرنسي

على أية حال ـ قد تمثل في نهاية الأمر في سيرورة الانصهار بين مجتمعين، الغالي ـ الروماني والفرانكي، وهي سيرورة بطيئة وغير مثيرة. فقد امتزج هذان المجتمعان "في البلاط، وفي مقار الكونتات والأساقفة وعبر مجمل الريف"(٢١٦). وفي الجبانات، لم يعد بالإمكان تمييز مقابر أحدهما عن مقابر الآخر. وكان هذا الامتزاج التدريجي لثقافتين ولجماعتين سكانيتين علامة لا تُنكر على التقدم. ومما لا مراء فيه أن المسيحية، التي احتاجت إلى وقت حتى تتغلغل في صفوف جماهير الشعب، لكنها نجحت في ذلك في نهاية المطاف، كانت السمة الرئيسية الأخرى لهذين القرنين، اللذين كانا بوجه عام غير عامرين بالأحداث الجسام.

وفي لعبة المؤرخين الأثيرة هذه، حيث يختارون ما كان أو ما لم يكن مهماً، فإنني أوثر بلا تردد الأديرة، وسط الغابات، على قصور أو فيللات الملوك.

هل كانت هناك امبراطورية كارولينجية؟

أرجو أن يغفر لي القارىء هذا العنوان الاستفزازي ـ الذي سوف أشرحه حالاً. فكل ما أريده من وراء هذا العنوان هو لفت الانتباه إلى مشكلة أولية (وإن لم تكن في رأيي المشكلة **الرئيسية**) تتصل بحظوظ غاليا الكارولينجية.

يجري عادة تمييز غاليا في ظل الكارولينجيين بسلسلة من الأحداث التي تعتبر مهمة: إن الانتصار الأوسترازي في معركة ترتري، في عام ٦٨٧، قد أدى إلى توزيع جديد للأدوار؛ وفي عام ٧٣٢ أو ٧٣٣، في معركة پواتييه، نجح شارل مارتل (نحو ٦٨٨ ـ ٧٤١)، المؤسس الحقيقي للأسرة المالكة الكارولينجية الجديدة، في صد سلاح الفرسان الخفيف للغزاة المسلمين؛ وفي عام ٧٥١، نجح ابنه پيپّان القصير، في تمرير انتخابه وتتويجه ملكاً؛ وشهدت الفترة من عام ٧٦٨ إلى عام ٨١٤ عهد شارلمان الرائع، الذي ما يزال يأسر مخيلتنا إلى اليوم: وفي كريسماس عام ٨٠٠، نجح في تمرير تتويجه امبراطوراً للعالم الغربي. لكن كل ما كان هناك من قوة ومن أمجاد، وهي ليست أساطير، قد تبخر خلال العهد الكارثي لابنه، لويس الورع (٨١٤ ـ ٨٤٠) ـ وهو شخصية جذابة من بعض النواحي، حيث أفتتن به ميشليه الذي اعتبره أشبه ما يكون بسلف صالح للقديس لويس [الملك لويس التاسع. ـ المترجم] ـ لكن ضعفه وورعه الذي عبر عن نفسه في المكان الخطأ قد جرّا كوارث رهيبة على امبراطورية كانت ما تزال في مهدها وكان من الصعب الدفاع عنها بالفعل، ناهيك عن تدعيم أركانها. ثم إن

النزاع بين أبنائه على خلافته، حتى قبل موته، قد أدى إلى خراب وكوارث لا يمكن علاجها، ومن المؤكد أن تقسيم الامبراطورية في فردان لم يعالجها(٢١٧). ومن جهة أخرى، كان النورمان، منذ نحو عشرين سنة، يشنون بالفعل غارات على شواطيء ومصبات أنهار الامبراطورية، بحيوية تتزايد من عام إلى آخر.

على أن الامبراطورية قد استمرت في الوجود، على الأقل بمعنى أن الأباطرة قد واصلوا التتابع على العرش. وهكذا فإن شارل الأصلع (٨٣٨ ـ ٨٧٧) الذي لم يكن يفتقر إلى العزيمة أو إلى الذكاء، قد ذهب إلى إيطاليا في عام ٨٧٥، عابراً الألب حتى يتم تتويجه امبراطوراً في روما. والمشكلة أنه بمغادرته "فرنسا" قد نسي الخطر الفعلي، وكان عليه أن يسارع بالعودة عبر الألب: وبموجب مرسوم كيرسي ـ سور ـ واز (٨٧٧)، اضطر إلى تقديم تنازلات لوجهاء مملكته. على أنه، كما يذكّرنا چان دونت، كان قد وُلد "في وقتٍ وفي وسطٍ كانت اليوتوپيا الامبراطورية ما تزال حية فيه وعلى ما يرام"(٢١٨). وهكذا فقد استمرت الامبراطورية بشكل ما في البقاء، لزمن طويل تال: وكما قال چاك مادول(٢١٩)، فإنه حتى إذا "كان الواقع قد أخذ يتلاشى، إلاَّ أن الأسطورة سوف تواصل البقاء لوقت طويل قبل أن تموت". ولم يحدث هذا إلاَّ في اليوم الذي استولى فيه أوتّو الأكبر على التاج الذهبي في عام ٩٦٢، خالقاً الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة، التي سوف تستمر حتى عام ١٨٠٥. وبعد خمس وعشرين سنة من هذا النقل للشرف الامبراطوري إلى چرمانيا، أصبح هوج كاپيه، في عام ٩٨٧، ملك فرنسا، مؤسساً أسرة كاپيه المالكة. والحال أن هذا الحدث، غير المهم في حد ذاته، كان الحلقة الأولى في سلسلة جد طويلة ـ بما يتناسب مع تعريف "**حدثٍ طويل الأجل**"(٢٢٠).

ومن هذه القرون الثلاثة، لا شك في أن الفترة الأهم هي العصر الذي هيمنت عليه شخصية شارلمان القوية، ولا مراء في أن إنجازه الأكثر إثارة هو تأسيس الامبراطورية الغربية. وأعتقد أنه ربما يجوز لنا استبعاد ملاحظة إرنست كورتيوس غير المبرَّرة والتي تذهب إلى أن شارلمان كان "أول ممثل للعالم الحديث"(٢٢١): فالحق إنه أشبه برجل من الماضي، ديوكليتيان متأخر زمنياً، **مع مراعاة جميع الفوارق**، يحاول إقرار أو إعادة إقرار السلم والأمن في الغرب. وهذه الأيام ـ ولكن هل هذا عدل؟ ـ يبدو أنه قد فقد خطوته لدى المؤرخين. وبسبب هذه الآراء السلبية تحديداً تساءلت ما إذا كانت قد وجدت بالفعل في أي وقت من الأوقات امبراطورية كارولينچية. فلنوضح هذه المسألة

الشكل ٢٤

الإمبراطورية الكارولينجية

1- المملكة الكارولينجية في عام ٧٦٨ .

2- الإمبراطورية الكارولينجية في عام ٨١٤.

3- بلاد محتلة، إلاَّ أنه لم تتم بعدُ تهدئتها، عام ٧٦٨ .

4- مناطق تابعة : عام ٨١٤.

5- مناطق فُتحت بين عامي ٧٦٨ و٨١٤.

6- منطقة خاضعة للنفوذ الكارولينجي في عام ٨١٤ .

قدر الإمكان.

لا شك أن الشاهد الأول الجدير بالإدلاء بشهادته في هذه المحاكمة هو نيكولاس يورجا، لأنه، هذه المرة، لا يتردد في الانخراط في الجدل والمفارقة. فهو يكتب فيقول إن الامبراطورية "لم توجد قط، أكان ذلك من ناحية ترابية أم من ناحية إدارية... ولا يجب أن تضللنا المدن بحامياتها. لقد كان هناك امبراطور إلاً أنه لم تكن هناك امبراطورية، وفي حين أنه لا يمكن تصور امبراطورية دون امبراطور، إلاً أن من الممكن تماماً تصور امبراطور دون امبراطورية"(٢٢٢). ومن الواضح أننا هنا بإزاء ما هو أكثر من المبالغة، لكن يورجا ليس المؤرخ الوحيد الذي يرفض التأثر بالأسطورة الكارولينچية. إن پيير بونّاسيه(٢٢٣) قد نبذ امبراطورية شارلمان بوصفها "شيئاً مفارقاً للزمن منذ البداية"؛ وقد وصفها روبير فوسييه بأنها "مبتسرة". أمّا عن انحدار الامبراطورية فهو يقول إن "خرق ومزق روما التي أعاد الكارولينچيون تركيبها قد تهاوت خِرقاً ومِزقاً مرة أخرى(٢٢٤). ثم إن چان دونت، في أكثر الكتب إثارة بحسب علمي حول أوائل العصور الوسطى في أوروبا الغربية، لا يكاد يكون أقل تشاؤماً(٢٢٥). فهو يقول إننا لا يجب أن نتخيل "امبراطورية واسعة ومتماسكة، تحيا في صفاء وأمن". فقد كانت، بالأحرى، "مجبرة، ذات نواة صُلبة، وتتزايد سلطتها هشاشة على أطرافها الخارجية"، بينما "كان أعداؤها يحتشدون على كل حد من حدودها".

وصحيح أن امبراطورية شارلمان كانت محاصرة من كل جانب، ببحر "البرابرة" الصاخب. وصحيح أنها كانت أبعد ما تكون عن التماسك، إذ كانت تتألف من أجزاء مختلفة ومن شعوب متباينة، بعضها موال وبعضها الآخر غير مبال أو معاد بشكل سافر. ولكن ألم تكن فرنسا بالفعل، في ظل الميروفينچيين، كما في كل عصر، جماع شعوب مختلفة؟ وأوروبا أيضاً، التي حاول الامبراطور الكارولينچي توحيدها في ظله، كانت أيضاً متباينة دائماً بشكل لا يمكن اختزاله. والمشكلة هي أن الهجمات والقلاقل من كل من داخل وخارج الحدود قد تتابعت الواحدة إثر الأخرى بسرعة. ولم تُعطِ الامبراطورية انطباعاً معيناً بالقوة إلاً بين نحو عام ٨٠٠ وعام ٨٤٠، إن كان ذلك قد حدث أصلاً. وبحلول وقت موت شارلمان، كانت الامبراطورية في محنة بالفعل. وبوجه عام، فإذا كان ما نبحث عنه هو إيجاد سلطة امبراطورية، فربما يكون من الأنسب الحديث عن **حدث** كارولينچي ـ دام أقل من نصف قرن.

مولد أوروبا:
مولد وتدعيم الإقطاع

ولكن هل نقتصر على النظر في هذه الفترة القصيرة من التاريخ السياسي؟ وهل يجب التهوين من شأنها في جمل قليلة سريعة؟ صحيح أن الآراء التي أوردناها أعلاه تمس عصباً حساساً، ولكن هل هي عادلة تماماً؟ إن ما تسمى بفرنسا الكارولينچية قد شهدت منذ معركة ترتري (٦٨٧) حتى انتخاب هوج كابيه (٩٨٧) ثلاثة قرون من التاريخ: فهل لم يحدث شيء ذو أهمية في تلك الفترة؟

الجواب بطبيعة الحال هو أن التجربة الكارولينچية كانت خالقة ـ أو، إن شئتم، أكدت خلق ـ كل من الملكوت المسيحي وأوروبا، وهما مصطلحان كانا آنذاك متطابقين كشكلين هندسيين متطابقين.

لقد كانت صدمة پواتييه الحادة حاسمة، أكثر من أساسية، كانت حدثاً رمزياً. ولو أسرفنا بشكل نلوم عليه تلميذاً مبتدئاً يدرس التاريخ لتساءلنا: ألم تكن الحرب الصليبية الفعلية الأولى، الصدام الفعلي الأول [مع الإسلام] الذي كانت له أصداء قوية؟ والحال أن المسيحية، بعد أن أزالها الإسلام جزئياً من البحر المتوسط، قد انتشرت في الشمال وفي شرقي أوروبا: إن القديس بونيفاس وجيوش شارلمان قد حولت چرمانيا إلى المسيحية، ووضعتها تحت جناح أوروبا. وفي الأزمنة الميروفينچية، لم تكن چرمانيا مرتبطة بغاليا إلى هذا الحد، لم تكن متحدة معها بهذه الدرجة من الحميمية. ولعل غاليا تكون قد ضاعت في ثوب فضفاض عبر الفتوحات الكارولينچية ـ الـ **dilatatio regni** ـ وسمحت للعدو بالتسلل عبر بواباتها. فمن المؤكد أنها قد وجدت نفسها مطوقة، محاصرة بنوع من عالم ثالث جهة الشرق. لكن قليلين هم الذين يمكنهم إنكار أهمية هذا التقارب الأول، وإن لم يكن الناجز، بين مختلف الأجزاء التي تُكَوِّنُ أوروبا.

والحال أن الكارولينچيين لم يحققوا فقط مولد أوروبا، بل حققوا أيضاً مولد الإقطاع، أي مولد كل ما ينطوي عليه المصطلح من تنوع وانقسام وتجزؤ وتعددية. والحق إنه منذ الأزمنة الميروفينچينية كانت الدولة مضطرة، متى كان يعوزها المال، إلى مكافأة من يقدمون الخدمات التي تحتاجها بمنح أراض لهم، وهي عملة ثقيلة وغير مناسبة، كان يتعين اقتطاعها من الأراضي "الأميرية" السابقة(٢٢٦) أو توفيرها عبر اقتطاع شرائح كبيرة من الأراضي الملكية. والحال أن ما أخطأ فيه الميروفينچيون هو السماح بأن تصبح هذه الأراضي الموزعةُ وراثيةً، الأمر الذي أدى إلى خرابهم. إلاَّ أنه فور

انتهاء معركة ترتري، اتجه الكارولينچيـون، من أجل تعزيز مواقعهم، إلى تشجيع أوسع لهذا التطور، بينما حاولوا السيطرة عليه بـشكل أكثر حزماً. ومن المؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك بيد رخوة؛ لقد غيـروا كونتاتهم بالسرعة التي نغيـر بها الآن مديري الشرطة(٢٢٧). وقد ملأوا الهيراركية الكنسية بحلفائهم. وقام شارل مارتل بتوزيع ثروة الكنيسة الضخمة بالشكل الذي ارتآه، بذريعة (أو أحياناً دون ذريعة) النضال ضد الإسلام. وكانت أراضي الكنيسة تُصَادرُ ثم تُسَـلَّمُ إلى المستفيدين الذين أصبحوا ـ كمقابـل تافه نوعاً ما ـ أتباعاً للكنيسة.

ومما لا مـراء فيه أن الحكـام الكارولينچـيين الأوائل الثـلاثة، شارل مارتل وپـيـبّان القصيـر وشارلمان، كانوا رجـالاً رائعين يتمـيزون بحيوية عـالية. فهم لم يـترددوا في استرداد الأراضي: فمنذ تلـك اللحظة فصاعداً لن تُمنح الأرض إلاّ لمدة حـياة المستفيد بها (أي كأرض "انتفاع"، بحسب مصطلح يرجع إلى فترة تالية)، وليس بصفة توريثية. وكانت الـ **missi dominici** تراقب الكونتات الذين كانوا الممثلين الرئيسيين للسلطة الملكيـة: ومن وقت إلى آخر، كان يجري نقلـهم إلى كونتيات أخرى سعيـاً إلى تجنب قيامهم بتوسيع ممتلكاتهم في منطقة مـعينة والتحصن فيها. كما أنه كان بالإمكان سحب مثل هذه "الإنعامـات" الممنوحة(٢٢٨). ثم إن الكارولينچييـن قد صاغوا أيضاً وطبقوا هيراركية اجتماعية: إن الأنصار والأتباع كانوا يرتـبطون بالملك ارتباطاً مباشراً عن طريق أداء يمين الولاء. وقد امتدت عرى الارتباط هذه حتـى الأحرار، الذين كان عليهم كلهم أن يخدمـوا في جيش الملـك على حسابهـم: فالأثرياء كانـوا يشكلون سلاح الـفرسان الخفيف، في حين أن الأكثر ثراءً من الجميع كانوا يشكلون سلاح الفرسان الثقيل والذي يتألف مـن ألفي أو ثلاث آلاف فارس، مجهزيـن بسروج وبركابات، وهي مسـتحدثات تقنية "جعلت منهم أقوى قوة مقاتلة في أوروبا"(٢٢٩).

لكن الهيـكل كان هشاً: فقد اعتـمد البنيان برمتـه من أعلى إلى أسفل علـى سلطة الملـك. وعند موت شارلمـان، بدأت الصدوع في الـظهور. وفي عهد لـويس الورع، بدأت المتـاعب الخطيرة، وبعد عـهده، انحدرت الأمور من سيء إلـى أسوأ. وهكذا، ففي عام ٨٤٣ فـي اجتماع كوليـن الشرعي في "فرنسـا"، تقرر أن "الملك لا يـمكنه استرداد أرض انتفاع عـلى هواه أو وهو تحت تأثيرِ غادرٍ أو بسـبب جشعٍ جائر"(٢٣٠). وحدثت عودة إلى الممارسة الميروفينچيـة الخطيرة حيث أخذ الملوك يمنحون الأراضي الأميرية والملكية بشكل بالغ الإسراف. و"بحلول عام ٨٨٠، لم يبق من هذه الأراضي

شيء تقريباً" (٢٣١).

إلاَّ أنه ما من حاجة هناك إلى الاستفاضة في الحديث عن التدهور المعروف للدولة الكارولينجية. وبحلول زمن نهايتهـا، كان الإقطاع قد استقر بشكل راسخ. وسوف تتاح لنا الفرصة قريباً لمعاودة الالتقاء به.

غزوات البرابرة الأخيرة

يبدو أن هذا الانحطاط "الداخلي" النابع من قلـب البنيان الكارولينجي كان مسئولاً عن انهياره بـعد عام ٨٤٠ أو عام ٨٥٠ بدرجة أكبر بكـثير من مسئوليـة غزوات البرابرة الأخيرة - وهي ظواهـر "خارجية" أثرت على مجمـل أوروبا الغربية وأعتبـرها نتائج أو علامات للأزمنة بأكثر مما أعتبرها أسباباً مساعدة. ولا يجب لنا أن نعطي أهمية أكبر من اللازم لـلدور الذي لـعبتـه الغزوات، أكـانت غزوات الـنورمان أم الآفـار أم الماجـيار [المجريين] أم الساراسينيين.

وكان مصطلح "الساراسـينيين" يشير إلى جميع المسلمـين والعرب، بمن في ذلك مسلـمي وعرب إفريـقية، تونـس الحالية، نـقطة انطـلاق فتح صقـلية والغـارات على السواحل المسيحيـة في غربي البحر المتوسط. وقد ألحق الساراسـينيون بإيطاليا كوارث ذات مقاييس مختلـفة تماماً عن الكوارث التي حدثت في غاليـا. كما لا يجب أن نبالغ في قياس شـرور القراصنة والمغـامرين الساراسينـيين الذين كانـوا يتمتعون بمـعقل في لاجارد - فرينيه على ساحل پروفانس، غير بعيد عن خليج سان تروپيه.

وكان الآفار والماجيار فرساناً من آسيا الوسطى. وقد أجهز شارلمان على الآفار في عام ٧٧٩، ولا حاجة بنا للاهتمام بهم هنا. لكن الماجيار كانوا على مدار سنوات كثيرة يتغلغلون في أعماق فرنسا في حمـلات نهب حيث تركوا ذكريات مريعة. وقد تم ردهم على أعقابهم في نهاية الأمر وبشكل حاسم إلى ما هو الآن بلاد المجر، نتيجة للانتصار الرئيسي الذي أحرزه عـليهم أوتو الأكبر في العاشر من أغـسطس/ آب ٩٥٥ في معركة ليشفيلد.

وكان الـنورمان يـمثلـون خطراً أكـبر بكـثيـر على كـل من أوروبا وفـرنسا. فـفي انقضاضهم في سفنـهم الطويلة وجهوا ضربات جسيمة إلى المواقـع الهشة على الساحل الطويل للـبر الأوروبي وصعدوا الأنهار لمهاجـمة مدن داخلية مثل رووان ونانـت اللتين تعرضـتا للنهب. أمَّـا باريس، التي حوصـرت في أعوام ٨٨٥ - ٨٨٧، فلم تنـقذها إلاَّ

المقاومة الجسورة التي نظمها أود، **dux Francorum**، ابن روبير القوي، أحد أحفاد آل كابيه. كما هوجمت بورجونيا، بل إن كليرمون، في قلب أوفرنيا، قد نُهبت ودُمِّرت وأُحرقت ثلاث مرات(٢٣٢)، حيث نجح المهاجمون في الوصول إليها عبر اللوار والآلييه.

فهل هذه الغارات المدمرة هي التفسير الحقيقي لانحدار الكارولينچيين؟ لم يعد المؤرخون يعتقدون ذلك، تماماً مثلما "دفنّا الأسطورة المتصلة بـ «الانقسام» في العالم القديم على أثر احتلالات البرابرة في القرن الخامس"، بحسب تعبير پول رولان(٢٣٣). وتتقاسم آن لومبار - چوردان هذا الرأي، مشيرةً إلى أن الغارات وأعمال التدمير "لم تؤد قط إلى وقف التجارة"(٢٣٤). بل إن چاكوب فان كلافيرين يعتقد أن النهب الذي قام به النورمان قد أدى عملياً إلى إعادة تداول المعادن الثمينة التي كانت الكنائس والأديرة تختزنها، الأمر الذي أدى إلى إنعاش الاقتصاد الغربي(٢٣٥). وكان النورمان قد حصلوا بالفعل، على أية حال، على معادن ثمينة قبل مجيئهم إلى الغرب، وذلك بفضل التجارة مع ما سوف تصبح فيما بعد روسيا.

وتتماشى هذه الأطروحة مع الأطروحة التي قدمها موريس لومبار(٢٣٦) حول الفتح الإسلامي، والتي تذهب إلى أن هذا الفتح قد ساعد على تداول "كنوز" الشرق الأوسط، الأمر الذي بث حياة وحيوية جديدتين في اقتصاد البحر المتوسط. والحق إن المناخ الاقتصادي العام هو الذي يحدد الإيقاع، وهو الذي يخلق ويُوجِد ثم يستخدم عملته، كلما تطلب الأمر ذلك.

الاقتصاد والسكان

في عودتي إلى المنظور الطويل الأجل، أود أن أنظر إلى غاليا الكارولينچية بالشكل الذي نظرت به إلى غاليا الميروفينچية. فأنا أعتقد أنها قد تأثرت بحركة طويلة الأجل، حركة صاعدة ومفيدة منذ أواخر القرن السابع حتى أعوام ٨٤٠ - ٨٥٠ تقريباً عندما انقلبت إلى اتجاه هابط، أسرع حركة كالعادة من الاتجاه الصاعد، منذ عام ٨٥٠ إلى عام ٩٥٠ تقريباً. وفي هذا الانحدار، يرصد ميشيل روش "سلسلة من الأزمات المتعددة الوجوه؛ إن **دورة** [الكلمة كلمته والتشديد من عندي] جديدة للانحطاط يبدو أنها تبدأ"(٢٣٧).

وقد يعترض معترض فيقول إن هذا نوع من النقاش لا يمكن أن يتم إلاَّ عبر

افتراضات. لكننا هذه المرة نحوز وثائق أفضل من الوثائق التي نحوزها بشأن الميروفينجيين. وقد سبَقَنَا چان دونت في استكشاف الساحة، ومن ثم يمكننا المغامرة بدخولها دون مجازفات كبيرة. ومن شأن الحجج التي جمعها أن تقودنا تقريباً - وإن لم يكن تماماً - إلى الاستنتاجات التي توصل إليها هو نفسه.

فلننظر في الحجج بالترتيب:

١ - باديء ذي بدء، يجب للمرء أن يستبعد الصورة التي غالباً ما طُرحت في الماضي عن غاليا في ظل الكارولينچيين على أنها تتكون أساساً من وحدات ترابية محدودة، من جزر مكتفية ذاتياً محبوسة ضمن "الغابات المتوسعة توسعاً ضخماً والأراضي اليباب والبور والمستنقعات التي تجتاح كل شيء"(٢٣٨)، ومن ثم كان محكوماً عليها بالاكتفاء الذاتي. والحق إن الإدارة الكارولينچية قد حثت المسئولين عن الفيللات الملكية على "التأكد قدر الإمكان من عدم نشوء ضرورة لطلب أو لشراء أي شيء من خارجها"(٢٣٩). لكن هذا لا يعني أن الفيللات لم تنتج فوائض ولا أنها لم تبع مثل هذه الفوائض في السوق. والواقع أن البلد كله - المدن، الحصون، البورجات، بل والقرى - كان غاصاً بالأسواق، وهو ما تشهد عليه الوثائق بشكل وفير(٢٤٠). وفي إحدى الوثائق(٢٤١)، وهي وثيقة تحمل تاريخ عام ٨٦٤، نقرأ ما يلي: "يتعين على السلطات، في المدن والقرى، أن تراقب الأشخاص الذين يبيعون الخبز الفاخر أو اللحوم أو الأنبذة في السوق، وذلك للتأكد من عدم غشهم لها أو غش المشتري".

وهذه الأسواق المحلية، الموجودة في كل مكان، لم تستبعد تجارة المسافات البعيدة المستندة إلى المدن والأسواق الكبرى والموانيء، والتي كان أنشطها في الشمال، من كوينتوفيكوس على الكانش إلى دورستد في فريزيا. وكان هذا النشاط قصير العمر في بعض الحالات: فقد نمت بعض الموانيء في القرن الثامن لكنها سرعان ما زالت تماماً بحلول القرن العاشر "بحيث إننا لسنا متأكدين الآن أين كانت"(٢٤٢). لكن ازدهارها الملحوظ كان علامة على أن اقتصاد غاليا كان ما يزال منتعشاً، وقد عزز التحول الشمالي للتجارة والذي كان قد بدأ في ظل الميروفينچيين، بما في ذلك بعض التبادلات المرتبطة باختراقات النورمان، والتي لم تكن كلها مكرسة كلياً للنهب. وعبر جميع أرجاء غاليا، كان يجري نقل الحبوب والملح والأخشاب والسلع الترفية، بما في ذلك التوابل، على مسافات طويلة. ولابد من أن يكون واضحاً تماماً أنه ما كان يمكن

لأي اقتصاد مهما كان حجمه أن يواصل الحياة في ظل نظام الاكتفاء الذاتي القاتل. ومن الحماقة بشكل سافر الحديث عن غاليا الكارولينچية كما لو كانت راكدة، مكونة من وحدات صغيرة معزولة، في حين أنها كانت غاصة بالمتجولين وبالوعاظ المتنقلين، وبالرهبان الذين كان على الأديرة الأفقر استبعادهم، وبالأحلاس المتمردين ـ لأن التمرد الفلاحي كان ما يزال يدمدم ـ، وبالحجاج وبالجنود وبالتجار. "لقد كان المجتمع الكارولينچي قائماً، بشكل حرفي، على سكان متحركين"(٢٤٣).

ودعونا نضيف، استكمالاً للصورة، أن العملة الذهبية قد اختفت نحو عام ٧٠٠، لكننا يجب أن نتذكر أن العملة الفضية قد حلت محلها اعتباراً من ذلك الزمن فصاعداً، وكان يجري تداولها، كما بيّن دونت، بكميات أعظم بكثير مما كان يُظن في وقت من الأوقات: "لقد كان يتعين حسابها بملايين العملات وليس بعشرات الآلاف"(٢٤٤). وأخيراً، كان هناك التجار؛ لا مراء في أن الـ **Syri** كانوا قد اختفوا، إلاّ أنه بقي هناك اليهود الذين كانت لهم جاليات نشيطة في آرل ونيم وماينس (مركز تجارة الحبوب) أو فردان التي تخصصت في التجارة في العبيد من البلدان السلافية والذين كان يجري تصديرهم إلى إسبانيا المسلمة. وكانت الامبراطورية البيزنطية مغلقة أمام هؤلاء التجار اليهود لكنهم تجاوزوها عبر مصر وبلاد الشام وكان بالإمكان رؤيتهم في مناطق نائية كالهند والصين. وإلى جانبهم ظهر تجار جدد: إيطاليون وفريزيانيون وسكاندينافيون(٢٤٥). فهل من العجب أن تجاراً نورمانيين قد ظهروا في باريس بعد حصار ٨٨٥ ـ ٨٨٧؟

٢ ـ كانت غاليا في ظل شارلمان، بشكل عام، مزدحمة بالسكان ازدحامها بهم في ظل الميروفينچيين. بل إن السكان ربما كانوا قد ازدادوا عدداً بشكل ملحوظ بين القرن الثامن ومنتصف القرن التاسع؛ فسكان الجبال قد هبطوا إلى السهول، مع توسيع المناطق المنتزعة من الغابات والذي تتحدث عنه الوثائق(٢٤٦)، ثم وصل إلى الجنوب الغربي الـ **Mozarabes** [نصارى الأندلس] الذين أدى الفتح الإسلامي المفاجيء في عام ٧١١ إلى طردهم من إسبانيا. وتشير سجلات(٢٤٨) أديرة سان ـ چرمان ـ دي ـ پريه وسان برتان وسان ريمي إلى كثافات تُعادل ٥٠ شخصاً في الكيلو متر المربع الواحد ـ في ما كان بالطبع أرضاً خصبة. وصحيح بالمثل أنه كانت ما تزال هناك كثرة من الأقاليم الفقيرة، ومن الـ **salti** ـ البريّات غير المسكونة.

أمّا فيما يتعلق بحجم السكان، فقد تكهن به المؤرخون استناداً إلى وثائق قليلة

العدد لكنها موحية. وأنا أميل إلى رفض الأرقام التي قدمها ج. ك. روسيل(٢٤٩) (خمس ملايين في منتصف القرن التاسع) لكونها منخفضة تماماً بشكل واضح: لابد أن الكثافة كانت منخفضة بما يكفي لفتح السبيل أمام الغزاة، إلاَّ أنه لابد أنها كانت مرتفعة بما يكفي للسماح بنوع النشاط الذي أشرنا إليه بسرعة بالفعل. ومع كل الاحتياطات المعتادة، دعونا نفترض أن امبراطورية شارلمان (نحو ١,٢٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربع) ربما تكون قد ضمت ما بين ١٥ و١٨ مليون نسمة؛ ولذا فمن المحتمل أن سكان غاليا (نحو نصف مساحة الامبراطورية، إذا ما حسبناها ضمن حدودها القديمة) كانوا يتراوحون بين ٧,٥ و٩ ملايين نسمة. وهذا هو الرقم الذي طرحه منذ زمن طويل كارل چوليوس بيلوك؛ أكثر من ٨ مليون، أو أقل قليلاً من عدد سكان غاليا الرومانية في ذروة ازدهارها(٢٥٠).

وهناك شيء واحد مؤكد؛ إن المؤرخين يجمعون اليوم - وهذا هو الشيء الأساسي - على أنه قد "حدث توقف في الزيادة الديموجرافية بعد عام ٨٤٠، ومن المرجح أن هذا التوقف قد استمر حتى عام ٩٥٠"(٢٥١)، وذلك بسبب انكماش حجم السكان الفلاحين، الذين كان يجري دفعهم بشكل أكثر قسراً من ذي قبل إلى الحلسية. فما كان يمثل حرية وتحسيناً لأحوال العبيد كان يعني تدهوراً لا يحتمل لأحوال الأحرار، الذين من المرجح أنهم كانوا ما يزالون يشكلون غالبية السكان الريفيين.

٣ - تتصل المناقشة الأكثر إثارة بتاريخ النقود. وقد شرع چان دونت في دراسة هذا الموضوع باستفاضة كبيرة؛ وسوف ألخص حجته، مُدرجاً إياها في لغة **الاقتصادات العالمية** المستخدمة اليوم(٢٥٢)، والتي لم تكن متاحة لأستاذنا الذي رحل عن عالمنا في عام ١٩٥٧. وأنا لا أعتقد أن هذا التبسيط لفكرته يشوهها بشكل جوهري.

لذا دعونا نتخيل دائرة، توجد في داخلها الامبراطورية البيزنطية، بالإضافة إلى بلاد الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية. لقد كانت هذه المنطقة في القرن التاسع المكان الذي كانت فيه العملات الذهبية هي القاعدة. وخارج هذه الدائرة يجب أن نضع فارس، وروسيا في ظل الفاريج وسكاندينافيا وغاليا الكارولينجية، بالإضافة إلى إسبانيا المسلمة وإفريقيا الشمالية - جميع البلدان التي كانت العملة الفضية هي القاعدة فيها. وهذا التصنيف يكشف لكم ثلاثة أشياء:

أ) لقد كان الإسلام منقسماً، وهو أمر غالباً ما ينساه الناس.

ب) في قلب الاقتصاد العالمي، كانت القوة الاقتصادية موزعة بين منطقتين،

الامبراطورية البيزنطية من ناحية، والإسلام الشرقي، حول البحر المتوسط، من ناحية أخرى، لأن بيزنطة، التي لم تكن تملك غير قدر قليل من الذهب، كانت تعتمد على الإسلام في انتاج المعادن الثمينة. ولم يكن هذا الوضع مختلفاً عن الوضع الذي سوف ينشأ فيما بعد في أوروبا الحديثة، عندما زودت إسبانيا العالم بالذهب وبالفضة من أمريكا عبر موانيء إشبيلية وكاديز.

ج) في القرن التاسع، كانت هذه الثنائية **في المركز** مصدر ضعف لكل من الإسلام وبيزنطة.

ومن الواضح تماماً أن هذا التصوير العمومي يُغفل ويدع جانباً الكثير من الحقائق والمعلومات المعروفة، فهو يستهدف استخلاص رؤية إجمالية واضحة. ولذا فلم أذكر مثلاً أن عالم الإسلام، بدنانيره الذهبية ودراهمه الفضية، كان ثنائي المعدن؛ كما أنني لم أشر إلى أنه في المنطقة التي يهيمن عليها الذهب، كانت الفضة ما تزال متداولة، ولكن على شكل قوالب أو حتى عملات صغيرة؛ وأن الكارولينچيين، بحلول نهاية القرن التاسع، كانوا يؤدون للنورمان جزية ذهبية سعياً إلى إتقاء غاراتهم؛ باختصار، أنه كان هناك قدر من التداخل المستمر بين الذهب والفضة، حيث كان المعدل (خاصة في الأزمنة المتأخرة) جزءاً واحداً من الذهب مقابل ١٢ جزءاً من الفضة، مع تساوي الوزن.

والآن أود أن أستخدم معياراً فجاً لكنه جدير بالثقة. ففي أي جزء من اقتصاد عالمي (أي، مجموعة من الاقتصادات المرتبطة فيما بينها والمؤثرة أحدها على الآخر) يهيمن فيه الذهب، لابد من أن يوجد أيضاً مركز، هو المنطقة المهيمنة على الكل. إننا ندهش لغارات الفاريج - وهم نورمان - عبر قلب روسيا الشاسع، حيث أسسوا كيف في طريقهم إلى البحر الأسود والقسطنطينية وعالم الإسلام. لكن الطريق كان يمضي في الاتجاه المعاكس أيضاً. فآلاف العملات الإسلامية (أكثر من مائتي ألف) والتي عثر عليها الآركيولوچيون في روسيا وسكاندينافيا إنما ترسم طريقاً يكشف عن الاتصال الأغرب (لأنه الأكثر بطولية) في ذلك الزمن البعيد، فهو اتصال يجتاز مجمل البرزخ الروسي من البحر الأسود إلى السويد. وإذا كانت الآلاف من هذه العملات قد جرى الاحتفاظ بها في شكلها الأصلي في الشمال فإن ذلك إنما يرجع إلى أن هذه البلدان، خلافاً للغرب، لم تكن تحوز ورشاً لصهر العملات وإعادة سبكها(٢٥٣). على أننا يجب أن نلاحظ أن هذا "الأثر" من العملات، والذي أشار إليه بيرين، لا يتألف من الذهب.

فالمسلمـون كانوا يُصَدِّرون العملة الفضيـة لدفع ثمن مشترياتهم في الـخارج من أقاليم كانت ما تزال متخلـفة. وإذا كان الذهب يشير إلى السيطرة فإن الفضـة تشير إلى اقتصاد هامشـي أو مسود. والبرهان عـلى هذا الكلام، إن كانـت هناك حاجة إلى بـرهان، هو حالة إسـبانيا في ظل الأمـويين ـ وهي أشبـه بغرب أقصى إسـلامي: فما أن تسنـى لها الحصول على بودرة الذهب من السودان في القرن الـعاشر، والانتقال من العملة الفضية إلى العملة الذهبـية، حتى أصبحت بين عشية وضحاها القـوة المسيطرة داخل الإسلام. أو، وهذا مثال أفضـل بكثير، عندما جرى استئناف سبك العملات الذهبـية في الغرب (في جنـوه في عام ١٢٥٠ وفي فـلورنسا بعـد ذلك بعام واحـد)، رَمَزَ هذا إلى لـحظة درامية أكد فيـها الملكوت المسـيحي تفوقه المادي علـى الاقتصاد العالمي الـمحيط به والذي أصبح هذا الملكوت مركزاً له.

وبوسـعكم أن تـخمـنوا إلى أيـن تقودكـم هذه الـملاحظـات. فإذا كانـت غالـيا الكـارولينجـية قد خـرجت، نحـو عام ٧٠٠، من منـطقة الـذهب التـي كانت غالـيا الميروفينچينية قد ارتبطت بها، فما ذلك إلاّ لأنها كانت قد أصبحت أكثرها هامشية. بل ألم تكن تدفـع ثمن اتصالها بالاقـتصادات المسيطرة عـن طريق تصدير المواد الـغذائية والأخشاب والـعبيد؟ وتـصدير هؤلاء الأخـيرين هو بالـفعل علاقـة دامغة، فهـو سمة للتخلف لا للحضارة، بالمقارنة مع بيزنطة أو الإسلام.

وربما جاز لنا أن نلاحظ أيضاً أن العملات الذهـبية الإسلامية لا تُوجد في غاليا بعد عام ٨٧٠، وأن "العمـلات الذهبية العـربية القليـلة التي عُثر عـليها مؤخراً فـي أعمال التنقـيب يبدو أنها دُفنـت نحو عام ٨٤٠"(٢٥٤). وقد لا يكـون ذلك حجة جـد قوية، لكنـه يظل مع ذلك حـجة تؤكد الانقلاب الـذي حدث في منتـصف القرن التـاسع في الاتجاه الـسائد. ويلفت چـان دونت انتباهنـا إلى الدنانير الـفضية التي زاد وزنـها زيادة طفيفة في القرن التاسع (بما يشكل علامة على انخفاض قيمة الفضة) وخاصة إلى حقيقة أن عملات من فئة نصـف الدينار ومن فئة ربع الدينار قد سُكّـت، إلاّ أنه ربما يكون قد أخطأ في رأيه الذي يذهب إلـى أن هذه التجزئة للعملة قد جعلـت اقتصاد السوق أقرب إلى الانتاج والاستهلاك الشعبيين، فقد كتب يـقول: "إن الثورةالاقتصادية الحقيقية إنما تكمن هنا لا في أي موضع آخر: صحيح أن التجارة الكبيرة والعلاقات الاقتصادية بعيدة المسافـات مهمة، لكن الـشيء الأكثر أهميـة ألف مرة هو إدخال ملايـين المستهـلكين والمنتجين في دائرة السـوق. تلك هي السمة الحاسمة الكبرى، الثورة الاقتصادية الكبرى

التي تضع العصر الكارولينجي بشكل راسخ عـلى عتبة العالم الاقتصادي الحديث! فمنذ ذلك الحين فـصاعداً، أخذ كبار وصغار المنـتجين على حد سواء يبيـعون، وأخذ كبار وصغار المستهـلكين يشترون" (٢٥٥). ولكن ألم تكن تلك هي الحـالة دائماً منذ البداية، بمجـرد وجود **الأسـواق** أصلاً؟ وإذا كان مثل هذا التقـدم قد حدث، فلابد أن ذلك قد جرى خلال فترة كانـت فيها "البنية الفوقـية" الاقتصادية ضعيفة بـشكل ما ـ وهو شيء ليس مستحيلاً من الناحية النظرية، بل إنـه معقول. وعندئذ يمكن تحسس ندرة العمال، ومن ثم يتعين علينا إدخال تغيير على تفـسيراتنا إلى حد ما. فالمتاعب في قمة الاقتصاد سوف تتحول، إن لم يكن بـالضبط إلى نعمة بالنسبة للقاعـدة، فإلى ظروف أفضل على أية حال، ولكي نتأكد ما إذا كان الأمر قد حـدث على هذا النحو أم لا، لابد لنا من أن نعرف مدى سرعة تداول النقود وفي أي اتجاه تحركت الأسعار، وأشياء أخرى كثيرة من غير المحتمل أن نكتشفها في أي وقـت من الأوقات. لكن المهم على الأقل هو القدرة على طرح مثل هذه الأسئلة.

الدورات تنقلب

الخلاصة أن دورة جد طويلة كانت آخذة في الانقلاب بعد ذروة عام ٨٥٠. وسوف يواصل الاتجاهُ الهبوط حتى زمن الإحياء الواسع بعد عام ١٠٠٠. وبالطبع، فإن الدورة التي أندفع في تـحديدها إنما يتوجب تفـسيرها هي نفسها. فـنحو عام ١١٠٠، أو قبل ذلك قليلاً أو بعده قليلاً، بدأ الاقتصاد الغربي في الصعود، وهو صعود دام قروناً. وهذا انقلاب فـي الاتجاه. والحال أن كل تـحول متواصل في الاتـجاه إنما يطرح مـشكلات كثيرة فيما يتعلق بـأسبابه وبنتائجه ـ وأنا أقول **الأسباب والنتائج** لأننا لا يمكنـنا تصنيف السيرورات الجارية في واحدة أو أخرى من هاتين الفئتين بشكل حصري.

وقد حدث الصعود، نحو عام ١١٠٠، في ظل الإحـياء، والنمو الاقتصادي العام، وتدهور الدولة، وانهيار الـمجتمع القديم الذي كان قد خسر هيـاكله. فهل كان الإحياء أيضاً انتقالاً موسعاً إلى حلسية استغرقت زمناً طويلاً حتى تتطور وحتى توفر دافعاً جديداً لانطلاق الحياة الاقتصادية التي أصابها الركود لزمن جد طويل؟ هل أدى هذا إلى تجديد الانتاج وحفزه؟ ليس من المبالغة اختتام كلامنا هنا بهذا الافتراض.

الفصل الثانى
السكان
من القرن العاشر إلى أيامنا

"هناك أشياء نعرفها
وأشياء يمكننا افتراضها"
چان دونت(١)

يهدف هذا الفصل إلى تقديم توضيح، تفسير، إن كان ذلك ممكناً أصلاً، للمسيرة الطويلة لتاريخ بلدنا على مدار نحو عشرة قرون. وحتى لو اعتمدنا منظورات الأجل الطويل المريحة والاصطفائية، فسوف يظل هذا المشروع مع ذلك أشبه ما يكون بمقامرة، مشحونة بالمجازفات. لكنها مجازفات تستحق الإقدام عليها تماماً.

وعلى مدار مجمل هذه المساحة الزمنية، لم يحدث غير انحدار واحد وحيد استثنائي في أعداد السكان، وهو انحدار ملحوظ لدى أول نظرة، فهو بمثابة "هيروشيما" بحسب تعبير جي بوا(٢)؛ الانحدار الرهيب ليس فقط للسكان الفرنسيين وإنما أيضاً للسكان الأوروبيين عموماً بين عامي ١٣٥٠ و١٤٥٠، من جراء الهجمة الثلاثية التي مثلتها المجاعة والطاعون الأسود وحرب الأعوام المائة. وفي فرنسا، كما في مجمل أوروبا الغربية، سوف يتطلب الأمر قرناً على الأقل (١٤٥٠ ـ ١٥٥٠) إن لم يكن قرنين (١٤٥٠ ـ ١٦٥٠) حتى يلتئم هذا الجرح العميق الذي ظل مفتوحاً لزمن طويل: إن ربع السكان أو ثلثهم أو نصفهم أو، في بعض الأماكن، نحو ٧٠ في المائة منهم، قد هلكوا(٣).

إلاَّ أنه بين عام ١٤٥٠ واليوم، لن تحدث كارثة أخرى بهذا الحجم. والفارق الذي يمثله هذا فارق كبير إلى أبعد حد، وهو يقدم المدخل الحقيقي إلى أي تفسير شامل. لقد كان عام ١٤٥٠ فاصلاً لا يوجد عبر مجمل بقية التاريخ الفرنسي أي مثال شبيه به ولو من بعيد.

والحال أن الألف سنة التي سوف نشرع بدراستها إنما تنقسم بشكل حاد، بل وصارخ، إلى شطرين متساويين إلى هذا الحد أو ذاك. فالأعوام من عام ٩٥٠ إلى عام ١٤٥٠ تمثل دورة "بيولوچية" واحدة طويلة مستقلة، دامت عدة مئات من السنين، وهي أوضح دورة من نوعها في تاريخنا. والحال أن افتقارها المميز إلى التناظر إنما

يؤكدها بشكل ما ولن يكون مصدر استغـراب أحد: ففي البداية صعود بطيء، هو نتاج ظروف مؤاتيـة مختلفة، بيـن عامي ٩٥٠ و١٣٥٠، يتلوه هبوط سـريع نسبياً، تتـخلله سلسلة مراحل(٤) بين عامي ١٣٥٠ و١٤٥٠. وكانت الحركة الهابطة بشكل عام أسرع أربع مرات من الحركة الصـاعدة. ومثل هذا الانعدام للتناظرات عادي تمـاماً: فالخسائر دائماً ما تكون أسرع في حدوثها من المكاسب.

على أن الشطر الثاني الطويل للسـنوات الألف، من عام ١٤٥٠ إلى أيامنا، قد تميز بنمو مـتواصل للسكان، يتـباين في سرعته أو انتـظامه، حيث توجد ثورات تـوسع كما توجد انتكـاسات مؤقتة، لكن النـمو المتواصل لا ينقـطع قط بشكل خطيـر كاف لفتح الباب أمام كارثة **فعلـية**. وهكذا فإذا كانت هناك، كما أعتقد، دورة زمنية طويلة فاعلة من عام ١٤٥٠ إلى أيامنا، فإننا لم نر حتى الآن غيـر منحناها الصاعد؛ وتوحي توقعات الديموجرافيين الحـاليين (الذين يتوقعون أن يصل عدد سكان العـالم إلى عشرة مليارات بحلول منتصف القرن الحادي والعشرين) بأن هذا الاتجاه سوف يستمر. ومن المستحيل الآن توقع هبوط ديموجرافي يضفي على فتـرة النمو الطويلة هذه الطابع الدوري الذي لا تتميـز به بعد. وما أبعدنـي عن أن أشعر بالأسف لـذلك، أكان باسم العالـم الواقعي، المعيـش الآن أو في المستقبـل أم باسم إضفاء مشـروعية في وقت لاحق علـى مخطط نظري. إن النظرية إنما توجز المجريات الواقعية، لكنها لا تفرضها.

لقد شـددت هذه الملاحظـات الأولية على التـباين الأساسي بـين القرون الخـمسة الأولى في حقل دراستنا الواسع والقرون الخـمسة الأخيرة. ومن الواضح أن هذا التباين ترافقه تبايـنات أخرى، يساعد على تفسـيرها. ونحن أحرار في استكشـاف ما يمكن أن تقوله لنا، فـي كافة أشكالها العديدة. ويـبقى أن نفسر - ولكن هل هذا مـمكن؟ - تلك الآليات البطـيئة ولكن الحاسمـة في الأجل الطويل والتي تـخترق التاريخ وتضفـي عليه معنى مفهوماً.

I

دورة متعددة القرون شبه مكتملة
أو الحداثة الأولى لفرنسا ولأوروبا
(٩٥٠ ـ ١٤٥٠)

يصف المؤرخون الألمان الفترة من القرن العاشر إلى نهاية حرب الأعوام المائة بالعصر الوسيط الأعلى بينما يصفها المؤرخون الفرنسيون بالعصر الوسيط الأسفل. وأنا أوثر ببساطة أن أسميها بالفترة الحديثة الأولى، وهي عصر سوف يُحدث تحولاً خيالياً في أوروبا الغربية. فذلك هو العصر الذي بدأت فيه فرنسا وأوروبا على حد سواء في اتخاذ شكل معين. ويمكن تمييز هذا العصر الحديث **الأول** عن كلٍ مما سبقه ومما تلاه. وقد انبثق من أوروبا كارولينجية كانت ما تزال موسومة على نحو عميق بالميسم الذي أضفته عليها روما ثم تلته فترة حديثة **بالفعل** ـ حضرية ورأسمالية وملكية ـ لن تفرض نفسها إلاّ غداة محن حرب الأعوام المائة. لأن هذا العصر الحديث الأول ما كان بوسعه أن يعالج نموه هو: إن انحداراً رهيباً كان، بمعنى ما، نتيجة لنجاحه.

القرن العاشر أو نهاية روما

أمامنا إذاً دورة متعددة القرون، تتجلى في كل من تمامها واستمرارها: في تمامها، لأن بوسعنا أن نرصد في آن واحد مرحلتها الصاعدة ومرحلتها الهابطة؛ وفي استمرارها، لأن بوسعنا تتبعها دون توقف منذ منتصف القرن العاشر إلى منتصف القرن الخامس عشر. ولا يوجد شك في تاريخ انتهائها، نحو عام ١٤٥٠. ومن الناحية الأخرى، هناك شك أكبر حول بداياتها.

وأنا أعترف أنني كنت ميّالاً إلى اختيار الرقم المكتمل وتحديد بداية صعود أوروبا بعام ١٠٠٠ عندما انتظر الناس في فزعٍ، كما قيل لنا كثيراً بما يكفي، نهاية العالم: نقطة انطلاق مثالية إذا كنا نبحث عن **نقطة منخفضة** لا تعوزها النُذُر الشريرة. إلاّ أنه، من ناحية، لم يعد مؤكداً أن الذعر من حلول العام ألف (وهو ذعر شجبته الكنيسة بقوة بالمناسبة) قد مس بالفعل الغالبية العظمى من الناس. ويعتقد المؤرخون اليوم(٥) أن أسلافهم ربما كانوا قد بالغوا في أهميته، مستسلمين لذلك الإفتتان بما هو درامي والذي قد يغري المؤرخ بالتحول إلى مخرج مسرحي. ومن ناحية أخرى، لم يكن القرن

العاشر بالفعل "عصر الحديد والرصاص المظلم" الذي وصفه عدد من كتاب الحوليات(٦).

وهناك بالفعل علامات على أن القرن العاشر كان يتميز ببعض الجوانب الإيجابية، وأنه شهد درجة من التوازن والإحياء، مع تحسن العافية الاقتصادية وثورات النمو أو على أية حال الظروف الأساسية المؤدية إلى مثل هذا النمو. فمن ناحية، انتهت آخر الغزوات ـ غزوات النورمان والماجيار والسارّاسينيين. ولم يكن ذلك ميزة قليلة الشأن. وفي الوقت نفسه، عادت المدن إلى الحياة، وازداد اتساعها ووسعت تحصيناتها وطورت ضواحيها وشيدت الكثير من الكنائس. وبُنيت كاتدرائيات ضخمة في شالون ـ سور ـ مارن وسانس وبوفيه وسانلي وتروا ـ كُتب لها الاختفاء خلال الموجة القوطية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر(٧). وكانت العملة تُسَكّ في مراكز مختلفة. وجرى إنشاء أسواق وظهرت الأسواق الكبرى أو عاودت الظهور(٨). وتوسعت تجارة المسافات البعيدة وأصبحت أكثر تنظيماً. وكانت الملابس الفريزيانية(٩) تباع في مجمل الملكوت المسيحي. وهذه كلها أسباب لتحديد بداية النمو السكاني الأوروبي حول عام ٩٥٠، قبله قليلاً أو بعده قليلاً، مراعاة لواقع أن تواريخ بداية ونهاية أية حركة طويلة الأجل لابد من أن تكون تقريبية.

والحال أن ما تعنيه زحزحة التاريخ خمسين سنة إلى الوراء هو أن النمو الملحوظ في القرن الحادي عشر قد مهدت له فترة تراكم أطول مما قد يكون قد خطر بالبال. ولا مراء في أن انتهاء غزوات البرابرة يفسر أشياء كثيرة: فالقراصنة النورمان قد اقتصروا إلى هذا الحد أو ذاك على ضفاف السين الأدنى في عام ٩١١؛ ونجح الجرمان في وقف زحف الماجيار في معركة ميرسبورج (٩٣٣) وفي معركة أوجسبورج (٩٥٥)؛ وتم كبح الاختراقات السارّاسينية مع هبوط المستوى العام للنشاط في البحر المتوسط. وقد يميل المرء إلى اعتبار هذا كله ضربة حظ بالنسبة لأوروبا ولفرنسا، وهي ضربة قد تبدل مسار مصائرهما، ونعمة يخيَّلُ أنها جاءت من السماء. وأنا أقول يخيَّلُ، لأنه إذا كان الغرب قد كان لقرون مفتوحاً أمام الغازي، فما ذلك إلاَّ لأنه كان على وجه التحديد يشكو من عدم كفاية السكان ومن عدم كفاية الدفاع. لكن سكانه الآن كانوا قد زادوا تدريجياً وكانت مدنه قد بنت تحصينات. وكانت التجربة قد علمتهم كيف يقاومون الفرسان الماجيار أو سفن النورمان الطويلة التي كانت تصعد وتهبط في الأنهار الفرنسية. والخلاصة أن شيئاً يجري تصويره عادة ـ وبحق ـ على أنه سبب، يمكن وصفه أيضاً

ـ بحقٍ ـ على أنه نتيجة. ويرجع أحد أسباب توقف غزوات البرابرة إلى قوة الغرب الجديدة.

على أننا لا يجب أن نتخيل فرنسا وقد سبحت في سلم مستعاد في أزمنة هادئة. فالحروب الداخلية كانت تخاض بشكل دائم، سواء اتخذت شكل نزاعات بين محاربين متنافسين، أو قمع الأتباع المتمردين أو النهابين، أو جهود الملك الرامية إلى مد سلطته إلى مقاطعات جديدة، أو الحرب الطويلة التي كانت قد بدأت بالفعل، على الأرض الفرنسية في عام ١١٠٩، بين فرنسا وإنجلترا، والمعروفة أحياناً بـ "حرب الأعوام المائة الأولى"(١٠). لقد كان النهب والقتل وأعمال قطع الطريق وانعدام الأمن من مكونات الحياة اليومية. وهذا هو ما يفسر التدخل المتكرر من جانب الكنيسة وأحياناً من جانب الدولة أيضاً، لحفز ما كان يُعرف بـ "سلام الرب" أو "هدنة الرب"، عبر إيجاد جمعيات أقسم أعضاؤها بأن يلتزموا، لسنوات كثيرة أو لفصول من السنة، أو حتى خلال أيام معينة في الأسبوع، بالتعامل سلمياً مع جيرانهم: "من الآن فصاعداً، في الأبرشيات وفي الكونتيات، لا يجوز لأحد أن يقتحم الكنائس؛ ولا يجوز لأحد أن يسرق الخيول أو صغار الخيول أو الثيران أو الأبقار أو الحمير أو الأتان بما حملت، أو الأغنام أو الماعز أو الخنازير. ولا يجوز لأحد بناء أو محاصرة قلعة. إلاّ إذا كان ممن يحيون على أرضك، سواء أكانت أرضاً مملوكة ملكية مطلقة(١١) أم أرض انتفاع(١٢)؛ . . . ولا يجوز لأحد إيذاء الرهبان أو مرافقيهم المسافرين مجردين من السلاح؛ . . . أو إيقاف أي فلاح، رجلاً كان أم امرأة، وارغامهما على أداء فدية"(١٣). هكذا كان النص الأول لهذا النوع من المواثيق، والذي صاغه نحو عام ٩٩٠ جي دانجو، أسقف لو پوي. ويجب أن نضيف أن الفلاحين والفرسان لم يوافقوا على الالتزام بـ "هدنة الرب" الأولى هذه إلاّ بعد أن طوقتهم جماعات مسلحة تحت قيادة أبناء اخوة الأسقف! ولذا فلا يجب لنا أن نسارع إلى افتراض أن السلم قد هيمن في فرنسا بعد عام ١٠٠٠. فالسلم، تلك الجوهرة التي لا تقدر بمال، لم يصبح سائداً إلاّ بعد عام ١٢٥٠(١٤). فالحرب كانت على أية حال نشاطاً اقتصادياً كأي نشاط اقتصادي آخر؛ وشأنها شأن نشاطات الناس الأخرى، عاشت على النهوض العام.

وهكذا فإن نهوض القرن العاشر وقرون تالية قد تعايش مع ظروف غالباً ما تناقضت معه. لكنه وَفَّر دافعاً حركياً تحتياً قوياً وزخماً حياتياً قادراً، إن لم يكن على علاج كل المصائب والجراح، فعلى علاج عدد معين منها على الأقل.

والحال أن جانباً أساسياً لهذا التحول غير العادي، لكنه جانب نادراً ما يجري إبرازه، لابد أنه قد تمثل في الاختفاء التدريجي لأطر العالم الروماني وهياكله المادية. فقد كانت الامبراطورية الرومانية في أقصى اتساع لها اقتصاداً عالمياً قوياً ووحدة كلية متماسكة تستند أساساً إلى البحر المتوسط والذي شكل منطقة ممتازة للاتصالات. وقد جرى ضم شواطيء البحر الداخلي وسواحله ودمجها في الحياة الاقتصادية الشاملة المتمحورة حول روما وإيطاليا. وعندما جرى نقل عاصمة الامبراطورية من روما إلى القسطنطينية في عام ٣٢٤، تحرك مركز الاقتصاد العالمي في اتجاه الشرق، الأمر الذي أفاد الـ **Pars Orientis**، الامبراطورية الشرقية التي نشأت في عام ٣٩٥ من جراء اقتسام تركة ثيودوسيوس. إلاَّ أنه لا هذا الانقسام ولا إلغاء الامبراطورية الغربية في عام ٤٧٦ قد دمرا البنية التحتية الاقتصادية للعالم الروماني: فالاقتصاد العالمي الذي وفر الأسس المادية لهذا العالم قد بقي، وإن كان بشكل مختزل. والحال أن بيزنطة، بعملاتها الذهبية وبمنسوجاتها الحريرية الباذخة وبأساطيلها وبقدرتها على استعادة حيويتها الاقتصادية بسرعة وبفلاحيها الأحرار الكثيرين، قد واصلت السيطرة على العالم الغربي الذي كان ما يزال تحت حكم البرابرة، وعلى البلدان التي فتحها المسلمون، وإن كان بدرجة من النجاح أقل. وقد واصل الغرب، غاليا كلوفيس، فرنسا هوج كاپيه، التطلع إلى البحر المتوسط. لقد كانت هذه اقتصاديات هامشية، أسيرة السيطرة والافتتان.

أما التركة الباقية الأخرى التي خلَّفتها روما فهي العبودية، وهنا فإن مرجعنا هو أطروحة فرانسوا سيجو الأخيرة(١٥): فهو يذهب إلى أن الفلاحين الإيطاليين والرومان، في ظل الجمهورية، كانوا قد استوطنوا المنطقة التي سوف تصبح فيما بعد الامبراطورية الرومانية. لكن العبودية كانت الآلية التي رافقت وحفزت على حد سواء صعود إيطاليا، إذ خلقت الضياع الكبيرة، **اللاتيفونديات**، وفوائض الانتاج. وعندما أخذ مدد العبيد ينفد (لأن توقف الفتوحات إنما يعني توقف الحصول على مزيد من العبيد)، أخذ نظام **اللاتيفونديات** يتدهور في إيطاليا، لكنه امتد إلى أقاليم جديدة ـ إفريقيا الشمالية، إسبانيا، غاليا. وكان هذا يعني استمرارية، وإن لم يكن بالضبط فرصة جديدة للحياة. فتدريجياً كان يجري جر غاليا، ليس تماماً وإنما بشكل جد واسع، إلى النظام العبودي **للفيللات** الغالية ـ الرومانية. إلاَّ أن الوقت، هنا أيضاً، أدى في نهاية المطاف إلى إحداث تغير وانحطاط. فلكي يستمر مثل هذا النظام، كان لابد له من حكومة قوية

الشكل ٢٥

فرنسا في ظل آل كابيه

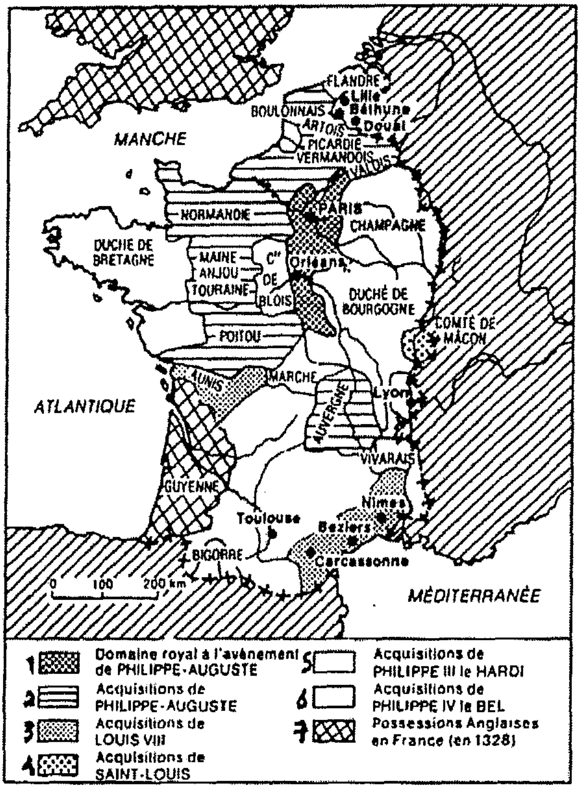

1- الممتلكات الملكية لدى ارتقاء فيليب أغُسطُس العرش.

2- ممتلكات تم الاستيلاء عليها في عهد فيليب أغُسطُس.

3- ممتلكات تم الاستيلاء عليها في عهد لويس الثامن.

4- ممتلكات تم الاستيلاء عليها في عهد القديس لويس.

5- ممتلكات تم الاستيلاء عليها في عهد فيليب الثالث الجسور.

6- ممتلكات تم الاستيلاء عليها في عهد فيليب الرابع الجميل.

7- ممتلكات إنجليزية في فرنسا (في عام ١٣٢٨).

وحروب تجلب العبيد. وقد استمرت الحروب تماماً، داخل غاليا أو على حدودها، لكن القيادة القوية في المركز قد تلاشت. فهل هي التي خلقت الإقطاع أم أن الإقطاع هو الذي قضى عليها؟ لا تكاد تكون لذلك أهمية، فالنتيجة واحدة.

لكن الفلاحين الأحرار، الذين لم يكفوا قط عن الوجود، قد واصلوا البقاء. وعلى هذه الفئة على أية حال اعتمد الفتح الكارولينجي واستخدمها بلا حساب(١٦).

ومن ثم ففي حين أن الأرض كانت ما تزال تُفلح هنا أو هناك بعمل العبيد، كما كانت عليه الحال في ظل الامبراطورية المتأخرة(١٧)، إلاَّ أن الوضع العام كان قد تغير بالفعل مع حلول القرن العاشر. وشيئاً فشيئاً أخذت الحلسية تتعزز ـ أحياناً على حساب الملاك الفلاحين الأحرار دون شك. لكنها، بحلولها محل العبودية، سوف تكون أيضاً الأداة لنوع من تقدمٍ و، بشكل ما، تحرير الفلاح. فالحلس، من أغلب النواحي المهمة، كان يملك الأرض المرتبط بها، وقد حفزته الملكية إلى العمل وإلى انتاج فوائض يستحيل دونها تصور الهياكل الفوقية للمجتمع ـ الاقتصاد والسياسة والثقافة. فهل آن الوقت لكي نطرح بشأن الحلسية ـ أداة الانتاجية الأوفر ـ أطروحة مماثلة لحجة فرانسوا سيجو حول العبودية في العالم القديم؟

على أن التغير الكبير بالفعل، الذي حدث خلال القرن العاشر وقرون تالية، هو أن اقتصاداً عالمياً جديداً كان آخذاً في احتلال السياق الروماني. والآن لم يعد البحر المتوسط هو المركز، بل الغرب، أرض أوروبا. وكان إحياء إيطاليا والتقدم الهائل للبلدان الواطئة هما اللذان وفرا قطبي نشاطه التوءمين؛ وبين الاثنين تقع جاذبية أسواق شامپانيا وبري الكبرى(١٨). إن نهضة كانت على وشك الحدوث ـ نهضة "حقيقية" لو صدقنا بعض المتخصصين البارزين في تاريخ العصر الوسيط مثل آرماندو سابوري وچينو لوتزاتّو(١٩). ولكن هل تعتبر كلمة النهضة (رينسانس) مناسبة بالفعل، بما يعني بعث شيء من الماضي؟ شعوري هو أن شيئاً جديداً كان يجري خلقه، وهو ابتكار لا شك في: إنه ليس أقل من مولد أوروبا.

صعود أوروبا الأولى

١ ـ **السكان**. كان العامل الأول في صعود أوروبا هو النمو السكاني. فعدد الناس المتزايد قد لعب دور الاسمنت: لقد توسعت القرى الصغيرة والقرى والمدن، وكان تبادل السلع يتم بحرية أكبر، ونتج عن ذلك قدر معين من التماسك. إلاَّ أننا، في سعينا

إلى قياس هذا التزايد السكاني الوفير، يتعين علينا عادة الاختيار بين شيئين اثنين فقط: دراسات الحالة الموضعية. أو التقديرات الإجمالية، أي التقديرات التقريبية. وقد قَدَّر ج. ك. روسيل سكان فرنسا نحو عام ١١٠٠ بـ ٦,٢٠٠,٠٠٠ نسمة، أو ما يتجاوز خمس مرات عدد سكان إنجلترا (١,٣٠٠,٠٠٠) في عام ١٠٨٦[٢٠]، وفقاً للـ **Domesday Book**). إلاَّ أنه في عام ١٣٢٨، ذكر **سجل الأبرشيات والأسر المعيشية** أن عدد السكان الفرنسيين يصل إلى نحو ٢٠ مليون نسمة[٢١]. وإذا كان رقم الـ ٦,٢٠٠,٠٠٠ دقيقاً بالنسبة لعام ١١٠٠ (يبدو لي أنه منخفض نوعاً ما)، فسوف يعني ذلك أن عدد السكان قد زاد بأكثر من ثلاث مرات. والحال أن سكان إنجلترا الذين كان عددهم قد وصل في عام ١٠٨٦ إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ قد أصبحوا نحو عام ١٣٤٦ زهاء ٣,٧٠٠,٠٠٠، أي أنهم قد زادوا هم أيضاً بنحو ثلاث مرات[٢٢]. وقد استنتج فيلهلم آبيل، معتمداً على هذه الأرقام وأرقام أخرى تتصل بإيطاليا وبالدانمرك، أن السكان قد زادوا ثلاثة أضعاف تقريباً في مجمل أوروبا[٢٣].

من المؤكد أن تقدماً مهماً قد حدث. فنحو عام ١٣٠٠، كان متوسط العمر يتراوح "بين ثلاثين وخمس وثلاثين سنة في إنجلترا. ومن ثم فقد كان أفضل بدرجة ملحوظة مما كان عليه في روما القديمة (نحو خمس وعشرين سنة)، فهو يكاد يساوي متوسط العمر في الصين في عام ١٩٤٦، ولا يقل إلاَّ نادراً عن متوسط العمر في إنجلترا في أعوام ١٨٣٨ ـ ١٨٥٤"[٢٤]. والواقع أن هذه الزيادة السكانية قد تحققت على امتداد ثلاثة قرون، ربما بمعدل سنوي قدره ٠,٤% ـ وهي حركة طويلة الأجل، لا يرصدها عادة الناس الذين عاشوا في غمارها. ولذا فلا يجب أن نفكر فوراً من زاوية موجة هادرة أو انقلاب كاسح. فالتغير السكاني قد يأخذ شكل تراكم أو تشوه أو تحول. والتغير لا يحدث بين عشية وضحاها، كما أن الحركة لا تحدث بمعدل سرعة واحد في كل مكان: لقد كانت هناك أوقات تقدم سريع في المناطق الثرية، وأوقات بطء وركود بل وانحدار في الأقاليم الفقيرة.

والشيء الأساسي هو أن هذه الحركة كانت في كل مكان متأصلة في الفلاحين. فكل شيء قد بدأ في الريف، وإن لم يكن بشكل متجانس. ففرنسا كانت أرض التنوع وقد أدى الإقطاع إلى انتاج التجزؤ ووفرة من الخصوصيات المحلية. إلاَّ أنه في كل مكان، كانت المدن تتزود بالسكان أو يعاد تزويدها بالسكان القادمين من العالم الفلاحي. وأصول الثورة الديموجرافية موجودة في الريف. وكلمة "الإقطاع" تحاول دخول هذه

المناقشة: وهي تطرح مشكلات كثيرة بالنسبة للمؤرخين الماركسيين عند محاولة تعريفها. والسمة الحاسمة - التي غالباً ما تتعرض للإهمال - هي الدور الذي يلعبه الناس العاديون، أفعال الفلاح غير المحكومة وغير المنسقة: فبالرغم من أنه قد يكون مسُوداً ومُقَيداً، إلاَّ أنه كان آخذاً أيضاً بحزم في التعلق بالأرض وعازماً على انتاج خيرات لنفسه ولسادته. وكلمة الحلسية، والتي لا يمكن تجنبها، إنما تشدد تشديداً جد حصري على الوضعية الشخصية للفلاح، في حين أن هذه الوضعية كانت أقل أهمية من عمله ومستوى يسر حاله وحجم وقيمة أرضه. "لم تكن هناك من الناحية العملية أية صلة بين الوضعية الحقوقية والمستوى المعيشي: فالفلاحون المستقلون (لأن بعضهم كانوا ما يزالون موجودين) كانوا فقراء، وكان الأحلاس أغنياء"(٢٥). والحال أن الحركة الفلاحية التي وسمت خلق أوروبا في شكلها الأول إنما كانت حركة نحو حرية واستقلال الريف، نحو تحرير ليس تاماً بحال من الأحوال لكنه كان قد أصبح مرئياً بالفعل.

٢ - **الأرض وأعمال الاستصلاح**. لقد كانت أوروبا الآخذة في التشكل من ثم نتيجةً لاستصلاح الأرض ولزراعة المحاصيل ولرعي الماشية. فقد بدأت من الأرض التي كان يتعين حرثها وفلاحتها واستخلاصها من قوى الطبيعة المناوئة وتحويلها إلى أرض زراعية منتجة. وسواء أكانت المعجزة قد تحققت عن طريق الحلسية أم عن طريق العزيمة الفلاحية، فقد زادت أرض المزارع مساحتها على حساب الأراضي البور والغابات وضفاف الأنهار والمستنقعات، بل وفي بعض الأماكن عبر استصلاح شواطيء البحار أو الأراضي التي كانت تزرع في الماضي البعيد. وكان ذلك بمثابة عملية ضخمة للاستيطان الداخلي، جرى شنها من القرى القديمة التي راحت تسترد أرضاً كانت مهجورة من قبل، بل وراحت تتحرك إلى ما وراء حدودها القديمة، "مُفَرِّعَةً فروعاً جديدة"، بحسب تعبير مارك بلوخ، أو نتيجةً، ربما في وقت تالٍ، لمشاريع منهجية قام بها ملاك الأرض (المتشاركون أحياناً) أو الأديرة أو الملك نفسه.

ومثل هذا الإنماء لمساحات واسعة من التربة البكر كان يتطلب مدداً لا ينتهي من "الأيدي" اللازمة للإمساك بالمعول وبالمعزقة. وبسبب غياب البديل، غالباً ما كان يجري تجنيد هؤلاء "المستوطنين" عبر حملات مصحوبة بصوت النفير وبالكثير من الوعود: وفي عام ١٠٦٥، تعهد دير سانديني باستقبال وبحماية أي قادم جديد إلى الأرض التي كان يجري استصلاحها في شاپيل دود في البوربونّيه، "حتى لو كان لصاً أو حلساً هارباً". وقد تدفق العمال على الموقع(٢٦).

وكقاعدة، كـانت الحقول الجـديدة تبدأ بالاستيـلاء على البرّيات حـيث "لا يوجد رجل ولا امرأة"، وحيث توجد "مساحات غير مفلوحة كانت حتى الآن موطن الأشجار الخفيضة والأعشاب الضارة. وسجل [رهبان] مـوريني. . . يصور الفلاحين وهم يقاتلون بضراوة بالمحراث وبـالمعزقة ضد الدغل والحسك البري وأجمـة السرخس، وكل تلك «النباتات المزعجة المرتبطة بأحشاء الأرض»"(٢٧).

والأهم مما عداه هو النضال ضد الغابة، التحدي الأعظم. إن غابات قليلة فقط هي التي ظلت على حالها ـ في السولونيه علـى سبيل المثال: أمّا في كل مكان آخر تقريباً، فقد كانت آخذة في الانحسار، أو كانت قد اختفت تماماً كما في پونتيو أو فيميو. وإلى جنوب بـاريس، كان مستصـلحو الأرض يهاجـمون بلا كلل الـمساحات الشاسـعة من الغابات في وديان البيـفر والإيفلين والليه والكريبه واللوج. وعلـى طول الممر المركزي المعروف بالفال كريزون، والذي اخترق كتلة غابـة كريبه الكثيفة بين ريل ووادي سيفر، قام الأب سـيجيـه من سـان ديني بـتوطيـن ستيـن أسرة، هم الـسكـان الأوائل لقـرية فوكـرسون(٢٨). وفي دوفينيه، بمجرد استصلاح الـوديان ونزع الغابات منها، صعدت مجـموعات عـمال الاستـصلاح، في جـوعها لـلأرض، "لكي تـتعامـل مع الغـابات الألبيه"(٢٩).

والحـال أن نزع الغابـات ـ كانت كلـمة **essarter** هي الكـلمة المـستخدمـة في الشمـال، بينمـا كانت كلـمة **artiguer** هي الكـلمة المستـخدمة في الجنـوب ـ قطع الأشجار ثـم استئصـال جذورها، هو الـعمل الشاق الـذي منح فرنـسا في نهـاية الأمر المشهـد الطبيعي الريـفي الذي سوف يدوم لقرون، أحيـاناً إلى أيامنا. وهذا الـعمل قد أملته ضرورة لا يمكن تجنبها: كان لابد من حرث المزيد من الأرض حتى يتسنى إطعام السكان الآخذين في التزايد. وربما يكون توسيع الأرض الصالحة للزراعة قد قضى على ما يصل إلى نصـف مسطحات الغابات في فرنـسا، أي، وفقاً لتقدير جد تقـريبي، نحو ١٣ مليون هكتار من الـ ٢٦ مليون هكتار التي كانت موجودة في عام ألف(٣٠).

ولـم يكـن هذا المشروع غـير محفوف بـالمجازفات، إذ كـان من المهم الاحـتفاظ بتوازن بين الـغابة والأرض الصالحة للـزراعة، موردي الحياة الفلاحـية. وكان لابد من الحرص على عدم تدمير جـانب كبير جداً من الغابة، التي كانت توفر الـمرعى للماشية كما كانـت توفر إمدادات من الخشـب تُستخدم في الـبناء والتدفئة. والـحال أن حضارة العصـر الوسيط قد تأسـست على أية حـال على الخشـب، وهو وضع امتد إلى الـفترة

الحديثة. بل إننا ما نزال نجده مستمراً في أيامنا في أماكن مثل **pays** دير الصغير في شمال المارن الأعلى، في شامپانيا الرطبة: فهنا نجد أن جميع البيوت بل والكنائس مبنية من خشب البلوط(٣١). ولتفكروا أيضاً في العالم البري لكل غابة، عالم قاطعي الأشجار ومجهزي الفحم النباتي، ناهيك عن النجارين وبناة السفن وصانعي البراميل الخشبية وصانعي العجلات وصانعي القباقيب وكل الصناعات التي تحتاج إلى الخشب للحصول على الوقود و، أخيراً وليس آخراً، المدن ـ التي لم تكن تُبنى من الخشب وحسب (كانت تروا ما تزال تُعاد تُبنى من الخشب بعد حريق عام ١٥٢٤ الكبير) بل كانت تحرق الخشب أيضاً حتى تظل دافئة(٣٢).

والحال أن موجة الاستيطان العظيمة هذه لم تتحقق بضربة واحدة؛ ثم إن أنماط الاستيطان واستغلال الأرض المستصلحة حديثاً كانت متباينة إلى أبعد حد. وعلى سبيل المثال، فعلى النجاد من المستوى الثالث والمغطاة بتربة غرينية، والتي تفصل الواز عن وادي السين ـ **pays** فالوا وسواسونيّه وميلسيان(٣٣) وأورزوا(٣٤) وبري ـ نعرف من كتاب پيير برينيه الرائع(٣٥) أن سلسلة كاملة من الأنماط المختلفة بشكل واضح يمكن أن نصادفها: فبعض القرى منظمة وفق نموذج هيكل السمكة العظمي أو وفق نموذج بيت العنكبوت، وبعضها الآخر خطي؛ وكانت دورة المحاصيل تمتد أحياناً لتستوعب حقولاً إضافية أو الـ **quartiers** التي كانت فيما قبل ملكية قرى مهجورة؛ وقد تكون بعض القرى الصغيرة قائمة على أرض فيللا غالية ـ رومانية سابقة استوعبتها هذه القرى الصغيرة في نهاية المطاف(٣٦)، بينما كانت قرى أخرى تتجمع حول مزرعة كبيرة تقدم لها هذه القرى العمل الضروري؛ وقد ظهرت سلسلة كاملة من الـ **villeneuves** (المدن الجديدة)، التي لا تتطابق البتة الواحدة مع الأخرى، حيث لكل واحدة منها شكلها الخاص. وهناك كثير من الوثائق حول البري والأرجح أن السبب في ذلك هو أن تلك الساحة المرتفعة نسبياً، ذات الموارد المائية الجيدة والغابات الواسعة، قد جرى نزع غاباتها في تاريخ متأخر. ويمكننا أن نعرف من هذه الوثائق ماهية الملاك: إنهم سادة ورجال دين وبورجوازيون ـ من باريس خاصة ولكن أيضاً من كولوميه أو مو (التي سرعان ما سوف تصبح مركزاً رئيسياً لتجارة الحبوب)(٣٧). وحتى نغير الإقليم، فمن المؤكد أنه ما زال يتعين إجراء دراسة حول منحدرات پروفانس أو البرانس المزروعة.

وقد تتباين ظروف الاستيطان تبعاً لما إذا كان من يقوم به هو الأرستقراطية أم الكنيسة أم الفلاحون. وبالطبع، فإن الأمثلة على الاستيطان الفلاحي هي الأصعب على

التحديد. ومع ذلك تنبثق بين المؤرخين نظرية تشدد تشديداً أكبر على العمل الرئيسي للمجتمعات الفلاحية. وهذا لا يعني أنه لم يتم الاضطلاع باستصلاح للأرض بين السين والواز من جانب ملاك الأرض النبلاء، أو أنه لم يتم الاضطلاع بنزع للغابات من جانب الرهبان البندكتيين أو رهبان بريمونتريه أو، في وقت تال، فرسان الهيكل أو فرسان الاسبتارية. إلاّ أنه في حين أن القديس نوربير قد أقام ديره في بريمونتريه في عام ١١٢٠، "في برية رهيبة في غابة سان جوبان، وهي مستنقع كريه الرائحة، وأرض قاحلة وغير مزروعة، ومأوى للحمى وللحيوانات المتوحشة"، فإن الطريقة الدينية الجديدة قد امتلكت ممتلكات في أرض السواسونّيه الخصبة، والتي كانت مزروعة بالفعل ولم يكن هناك ما يتعين القيام به سوى امتلاكها وتوسيعها وتنظيمها، حيث كانت تتألف مما لا يقل عن خمس "مزارع" واسعة الحجم ـ فمساحاتها بحسب الترتيب: ٢٧٥، ١٩٥، ٢٣٥، ١٨٠، ١٤٣ هكتاراً(٣٨). ويرجع هذا إلى أن الطرق الدينية غالباً ما كانت تحصل على المزارع القائمة على شكل تبرعات أو عن طريق الشراء. والحق إنها قد أدخلت عليها تنظيماً أفضل، وهو ما فعله بشكل خاص القادمون المتأخرون، فرسان الهيكل وفرسان الاسبتارية ـ فهم، بكلمة أخرى، قد حشدوا ونظموا جهود الفلاحين المحليين والتي ربما كانت ترجع إلى الأزمنة الكارولينجية.

وهذا هو التفسير الذي يقدمه كتاب فرانسوا چوليان ـ لابروير القوي(٣٩) حول إقليمي أونيس وسانتونج، حيث يذكر المؤسسات الكنسية التي تكونت من تركات المؤمنين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، الأمر الذي أدى، في رأيه، "إلى **هيراركية ثانية**... إلى جانب هيراركية إقطاعات السادة".

وقد رصد جي بوا الشيء نفسه وعلّق عليه فيما يتصل برهبان كلاني. فهو يكتب فيقول: "إن تقييماً مناسباً لدورهم يجب أن يبدأ من الملاحظة التالية: في إنشاء النظام الزراعي وفلاحة الريف حول كلاني، كان الدور الأعظم قد تم الاضطلاع به بالفعل قبل بناء الدير. وقد قامت بهذا الدور المجتمعات المحلية للفلاحين الأحرار والتي يمكن رصد أعمالها النشيطة في وثائق منعطف القرن العاشر"(٤٠). وإذا كانت هذه الملاحظة تنطبق، كما أعتقد، على أماكن أخرى، فإن تفسيراً عاماً يلمح إليه جي بوا بإيجاز قد تكون له مصداقية: ألا يمكن ربط هذا النشاط المبكر في الريف ربطاً مباشراً بانحسار دور المدن؟ لو كان الأمر كذلك فربما يتعين علينا أن نقبل، بالنسبة للأزمنة الأخيرة للتجربة الكارولينجية، صورة أكثر انحطاطاً مما كان مألوفاً.

وأياً كان الأمر، وإنصافاً للرهبان، لابد للمرء من الاعتراف بأهمية "الوظيفة القيادية" التي قاموا بها، بسياستهم الخاصة بتدعيم الحيازات الزراعية وبمناهجهم الزراعية المباشرة الفعالة وكذلك بحرصهم على تحسين المواصلات والطرق والجسور والنشاط التجاري داخل دائرة واسعة.

وأخيراً، يجب أن نلاحظ الدور الذي لعبته المعدات المحسنة في هذه الإعادة التدريجية لتنظيم الأرض المزروعة. وتحت هذا العنوان يمكن للمرء أن يضع الحديد، الذي لم يحل محل الخشب، بل أُضيف إليه؛ والنوع الجديد من المحاريث، والذي يتميز بمحور عجلة أمامي متحرك وسرعان ما سوف يتميز بشفرة وبقلابة تربة معدنيتين، وهو نوع انتشر عبر مجمل فرنسا (ولكن متى؟ في الأزمنة الكارولينجية أم بعد ذلك؟ ما زال الموضوع محل نقاش وخلاف)(٤١)؛ والعدد المتزايد من حيوانات الجر، الثيران أو الخيول؛ واللجام حديث التصميم للحصان؛ والفهم الأفضل للفلاحة وتضاعفها؛ وممارسة تسميد الأرض هنا أو هناك.

٣ ـ **المدن**. ترافقت إعادة تنظيم الريف مع نمو مثير للمدن. فلم يحدث في أية فترة أخرى أن أُنشئت مثل هذه المدن الجديدة الكثيرة. وقد ظهرت في كل مكان، إلى جانب مدن أقدم واصلت البقاء ولعبت غالباً دوراً قيادياً ـ كالمدن الأسقفية رانس وشالون وسواسّون ونويون وتور وليون وفين وناربون وبوردو وبورج(٤٢). وتبعاً لما إذا كان المرء أكثر تأثراً ببقاء المدن القديمة أم بمولد مدن جديدة، نتجت عن النمو في الريف، فسوف يكون المرء منحازاً إلى حجة من حجتين: أن التجديد الحضري قد سبق الإحياء الريفي أو، على العكس، أنه قد جاء في أعقابه. وينحاز هنري بيرين وموريس لومبار(٤٣) إلى صف المدن؛ بينما يرى جي فوركين وجورج ديبي ولين وايت أن الاقتصادات الريفية كانت السبّاقة إلى الانطلاق، ويشاطرهم جان فافييه هذا الرأي بشكل حاسم. فهو يكتب فيقول: "لا يجب تصور أن النمو الحضري [في فرنسا] مرافق للتوسع الزراعي، ناهيك عن أن يكون منافساً له. لقد نتج عنه"(٤٥).

والشيء المؤكد هو أن المدن لم تبدأ فعلاً في الحياة وفي التطور إلاّ بفضل فوائض انتاج الريف، والتي كانت تصل إلى المدينة على شكل رسوم مدفوعة إلى مالك الأرض أو عشور تحصل عليها الكنيسة. وقول ذلك إنما يعنى الموافقة على الخطوط العريضة لأطروحة دافع عنها بحرارة فرنر سومبارت، ألا وهي أن مولد المدن قد اعتمد على وجود أشخاص مميزين فيها: النبلاء ورجال الكنيسة ورجال البلاط ثم العوام الأثرياء

بعد هؤلاء بوقت قصير، كل ملاك الأرض والذين يحصلون بحكم ذلك على رسوم مدفوعة عيناً. وربما وجب على المرء أن يعتبر أولوية الريفي على الحضري سمة مميزة لهذا النموذج "الأول" لأوروبا، مقارناً بالنموذج الثاني، نموذج أوروبا الرينسانس الحقيقي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والذي شهد أيضاً عودةً إلى عافية اقتصادية جيدة مع النتائج التي تترتب على مثل كل هذه التطورات. إلاَّ أنه في تلك الحالة الأخيرة، لا شك أن المدن - بحضارتها الأرقى - هي التي تولت القيادة. فقد كانت أقل تأثراً من الريف بما سببته حرب الأيام المائة من متاعب ودمار. ومع رأسماليتها الآخذة في الازدهار واقتصادها المتقدم بالفعل، كانت تعلو على الريف المحيط. وهكذا فإن انطلاقة القرن السادس عشر قد بدأت من أعلى إلى أسفل وليس، كما في أزمنة آل كابيه، من أسفل إلى أعلى. وقد لاحظ جي بوا، حول نورماندي، أن "المدى الذي راح النشاط الصناعي والتجاري يرقى إليه فجأة، كانت له أصداء قوية على القطاع الزراعي"(٤٦).

ومع ذلك، يجب أن نحذر من الإفراط في التبسيط. لأنه بالإمكان أن نقدر بسهولة أنه حتى في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، فإن المدن الكبيرة التي كانت تقام فيها الأسواق الكبرى، والمراكز التجارية الرئيسية، والموانيء الرئيسية، كانت تدين بالجانب الأعظم في نموها ليس لتطور الريف المجاور، وإنما للتجارة الكبيرة ولتجارة المسافات البعيدة. وهذه التجارة، في ظل الحماية الملكية، كانت مزدهرة بالفعل في عهد الكارولينچيين، وكان من بين الشركاء التجاريين إنجلترا وإسبانيا والأسواق الشرقية عبر ستراسبورج(٤٧).

وأياً كان نمط تطور مدن هذا الرينسانس "الأول"، إلاَّ أنها قد لعبت بالتأكيد دوراً كاملاً في الانطلاقة، حيث اجتذبت السكان من المنطقة المحيطة وحفزت الحركة داخل مدى واسع وضيق على حد سواء. وكانت بعض المراكز الحضرية، المحظوظة بشبكة طرق ربما، أو بنهر، أو بموقع ساحلي، أو بمخاضة أو بميناء جيد الموقع، مسرحاً لتوسع سريع. وحول هذه المدن المميزة نمت الضواحي التي اختار التجار العيش فيها. ومع تزايد حجم مثل هذه المدن، فإنها قد تنقسم إلى عدد من المراكز الحضرية للتعامل مع المهام المختلفة التي تقع على عاتقها. "كانت لتولوز ثلاثة مراكز: مدينة الأسقف؛ بورج سان سرنان الخاضع لرئيس دير الرهبان؛ والشاتو ناربونّيه المنتمي إلى الكونت". أمَّا پواتييه - هل كان ذلك رقماً قياسياً؟ - فقد انقسمت إلى ستة مراكز حضرية(٤٨).

الخلاصة أن المدن نمت في أحضان وتحت رعاية مؤسسات مختلفة، غالباً ما كانت تتنافس بغيرة فيما بينها. وعندما كانت مدينة تنجح في تحرير نفسها، بعد جهد صبور وأحياناً عنيف، فقد كان ذلك يحدث عبر التلاعب بهذه المؤسسات وتحريك الواحدة ضد الأخريات. وكانت أهداف ما تسمى بالحركة الكومونية للمدن تتمثل في كسب ضمانات و"حريات"، وتخفيض الضرائب المفروضة عليها، والحصول على حق حكم نفسها بنفسها (se muer en seigneurie، كما كان يقال). (كان أول جهد منسق يهدف إلى التحول إلى seigeurie قد بُذل في لو مان في عام ١٠٧٠)(٤٩). لكنني لا أنوي الآن معالجة هذه المشكلة الضخمة والتي نوقشت كثيراً، فهي سوف تظهر مرة أخرى عندما ننظر في الدولة.

والشيء المهم الآن هو بيان أنه كان مضمراً في منطق المدينة ذاته ـ سواء أكانت الثورة الزراعية هي التي خلقتها أم لا ـ أنها يجب أن تكون القائدة، وأن تمثل البنية الفوقية. إذ يكفي لمدينة أن توجد حتى يتسنى لها السيطرة. وهكذا فعاجلاً أم آجلاً، بهذه الدرجة أو تلك من بيان قوتها أو ازدهارها، نجحت في العلو على الريف، وقدمت له "نموذجاً"، وأخضعته لاحتياجاتها؛ وكلما ازدادت ضخامةً، كلما زادت سيطرتها على البورجات والقرى المحيطة بها. وكانت السمات الرئيسية الثلاث لسيرورة التحول الحضري هي: استيعاب المدينة لمعظم الحرفيين من ورش الإقطاعات؛ ظهور صناع حضريين أقاموا دكاكين، ثم، مع تطور السوق الحضرية، بدأوا يتخصصون ويقسمون صناعاتهم إلى فروع (فأصبحوا رأسماليين محليين أو احتكاريين داخل المدينة)؛ وأخيراً ظهور التجار الكبار الذين سرعان ما سوف يهتمون بتجارة المسافات البعيدة.

وهكذا كانت المدينة مسئولة عن انتشار أسلوب جديد للحياة، وشكل أرقى للاقتصاد كانت هي مركزه. أمّا الوقود الذي حرّك هذا الاقتصاد سريع النمو فهو النقود. وأنا أعالج هذا الموضوع في فصل آخر، يمكن أن يرجع إليه القارىء. وفي هذه المرحلة من هذه المناقشة، أود فقط الإشارة إلى أن ذلك كان نقطة تحول حاسمة.

٤ ـ **الثورة الصناعية**. كان التوسع العام للاقتصاد مصحوباً بعدد من الابتكارات التقنية: فالسفن تتمتع الآن بدفات مركبة على مؤخراتها وبعدة صوَار(٥٠)، "وكانت العربات تُجَرُّ من جانب خيول ذات حدوات حديدية بينما كانت عجلاتها محمية بإطارات من الحديد"؛ وقد جرى صُنع أدوات ومعدات مختلفة من الحديد. والحال أن

الحدّاد، عن طريق الخدمات التي قدمها، قد أكد صدارته المثيرة والدائمة: "إن الخيول وحيوانات الجر الأخرى التي كان يتعين تركيب حدوات حديدية لها من آن لآخر سوف تقود الفلاح بصورة منتظمة إلى الورشة، حيث يمكن أيضاً إصلاح الأدوات الزراعية المصنوعة من الحديد"(٥١).

لكن مثل هذه التفاصيل طفيفة الأهمية نسبياً في ما يُعرف بـ "الثورة الصناعية الأولى"، التي انتشرت بفضل التكاثر غير العادي أولاً لطواحين الماء التي اخترعها الرومان، ثم لطواحين الهواء فيما بعد. وفي البداية، ولوقت طويل تالٍ، كانت هذه الطواحين، المصنوعة من الخشب، "تتكون من أجهزة مكلفة (حجر الرَّحى وأعمدته الحديدية)، كان يجري تفكيكها، في وقت الحرب، لتيسير حمايتها"(٥٢). ولا يقل أهمية أو قيمة عن هذه الأجهزة الرجل الذي يقوم بتشغيلها، الطحّان، وهو متخصص في مهنته. "وأحياناً ما كان يجري تزيين الدخل... الذي يحصل عليه (من الطاحون) بلقب الإقطاعة، بل كان يحدث أحياناً أن يُستقبل من جانب السيد المحلي باعتباره واحداً من الأتباع المعاونين الجديرين بالترحيب بهم"(٥٣).

وكانت الطواحين عبدات آليات، روبوتات، تخدم سادتها: كان هناك ما لا يقل عن عشرين ألف طاحون مائي في فرنسا بحلول أوائل القرن الثاني عشر. وتذهب التقديرات إلى أن هذا كان يعادل عمل ستمائة إنسان ـ وهو رصيد ضخم(٥٤).

وبحلول أواخر القرن الثالث عشر، كان عدد طواحين الماء قد ارتفع إلى ٤٠,٠٠٠، وبحلول أواخر القرن الخامس عشر، وصل العدد إلى ٧٠,٠٠٠، في مقابل ٢٠,٠٠٠ طاحون هواء، كانت قادماً جديداً: وقد وُصفت طاحونة الماء بأنها "إقطاعية"، بينما وُصفت طاحونة الهواء بالفعل، بمعنى ما، بأنها "رأسمالية"(٥٥). وكان عدد كبير من هذه الطواحين ما يزال عاملاً في أوائل القرن العشرين(٥٦). ويمكننا أن نضيف تفصيلاً آخر إلى مجموعة التباينات التي لدينا بين الشمال والجنوب: "كان هناك أسلوبان لبناء طواحين الهواء (في فرنسا)، على محور في الشمال ـ الشرقي وعلى أسطوانة في الجنوب ـ الشرقي. والحد الفاصل بينهما هو عين الحد الفاصل تقريباً بين الأسقف القرميدية المدرجة والأسقف القرميدية المسطحة"(٥٧).

وليس من السهل تماماً قياس الدور النسبي لهذه العبدات الآلية في الاقتصاد العام(٥٨). إلاّ أن من المؤكد أن بوسع المرء أن يتصور الفارق الذي أدخله على الحياة اليومية هذا الابتكار الذي كان على أية حال أولياً تماماً. ويكمن البرهان غير المباشر،

وإن كنت أعتقد أنه برهان بليغ على ذلك، في القصة التي رواها إيطالي من القرن العشرين وصل إلى جوندار، في عام ١٩٣٦، خلال فتح إثيوبيا. لقد أصابته الدهشة عندما وجد أن الحبوب كانت ما تزال تطحن بيد الهاون. وقد سمح له موتور قديم بتحريك حجر رحى على آخر. وسرعان ما بنى، بإمكانات عرضية، "طاحونة" أخرى، ثم أخرى، حتى وصل العدد الإجمالي للطواحين إلى عشرين، وزعها توزيعاً حكيماً على المستوى الجغرافي. وسرعان ما أصبح الطحن في الطواحين رخيصاً (يمكن تصور أنه كان بنسبة ١٠٪ من تكلفته السابقة). على أن صاحب الطواحين كسب مالاً وفيراً من المشروع وصار ثرياً بين عشية وضحاها تقريباً: كان الفلاحون يصطفون في طوابير على أبواب "طواحينه"(٥٩). فهل حدث شيء كهذا في الماضي؟.

يبدو ذلك جد محتمل عندما نتذكر أنه منذ البداية تقريباً كانت طواحين القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر مهيأة لأداء سلسلة من المهام: طحن الحبوب، صوغ المطارق السقّاطة ومدقات الركائز؛ وكانت هناك طواحين لصناعة الورق وطواحين لدبغ الجلود وطواحين لتقصير الصوف وطواحين لحلج القنب. و"إقتفاءً لأثر هـ. ك. داربي، الجغرافي التاريخي البريطاني الشهير، يرى روبير فيليب أن من السليم القول إنه في فرنسا أيضاً، "كان القرن الثاني عشر هو القرن التاسع عشر في عصره"(٦٠). وبشكل عام، يذهب فلهلم آبيل المذهب نفسه إلى حد بعيد، فهو يقول إن من المعجزات أن الأجور قد ارتفعت بذات المعدل الذي ارتفعت به الأسعار(٦١)! ويستعير بيير شوني فكرة و. و. روستو عن الانطلاقة(٦٢)، والحق إنه تحت تأثير سلسلة كاملة من "مضاعِفات الآثار"، نجح الملكوت المسيحي الغربي بالفعل في الانطلاق، وشمل ذلك فرنسا إلى جانب الباقين. بل إن ماء المستنقعات قد جرت السيطرة عليه بحيث أخذ يحرك الطواحين في نورماندي بحلول نهاية القرن الحادي عشر(٦٣).

وليس واضحاً ما إذا كانت الطواحين قد مثلت سبباً أم نتيجة (الأرجح أنها مثلت سبباً ونتيجة في آن واحد) لتحول أوروبا الأولى هذه. وقد كان هذا التحول عميقاً بحيث يمكن مقارنته بثورة البخار في القرن التاسع عشر ـ مع فارق أن المحرك البخاري يمكن أن يُقام في أي مكان، في حين أن الطاحونة يجب أن تقام قرب مجرى مائي. وهكذا، في المدينة أم في القرية، كان من المستحيل تحريك مصادر الطاقة هذه، والصناعات التي تعتمد عليها، بعيداً عن مواقعها قرب الأنهار. والحال أن هذا الثبات في الموقع، والذي دام لقرون، كان في آن واحد سمةً وقيداً لهذا العصر الحديث الأول في أوروبا.

الشكل ٢٦

طواحين قديمة على الآندر

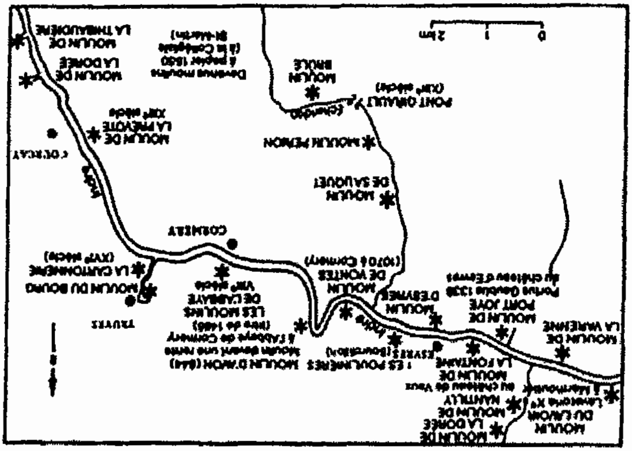

اعتباراً من القرن الثامن، بدأت الطواحين تتكاثر. وعلى هذا القسم من الآندر - والذي يصل طوله إلى نحو ١٥ كيلومتراً - بروافده، كان هناك إجمالي ١٩ طاحونة.

ويكمن قيد آخر، وهو قيد أخطر بكثير، في أن هذه الثورة (باستثناء تطورات طفيفة قليلة) قد ظلت حبيسة منطقها، فراحت تكرر نفسها بلا نهاية. أما الثورة الصناعية التالية، والتي بدأت في إنجلترا في القرن الثامن عشر، فقد دشنت، على العكس من ذلك، سلسلة من الثورات المرتبطة فيما بينها، إذ أدت كل واحدة منها ـ بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر ـ إلى ظهور الأخرى. ولا مراء في أن الطواحين قد لعبت دوراً قيادياً في خلق هذا العصر الحديث الأول وفي إنجازاته. إلاّ أنه إذا كان تطور هذه "الثورة" قد توقف في نهاية المطاف، فإن واحداً من بين الأسباب الكثيرة لذلك هو أن "ثورة" تلك الفترة لم تؤد إلى أية انطلاقات جديدة، خاصة ابتكار حلول جديدة لمسألة الطاقة.

فرصة فرنسية: أسواق شامبانيا وبري الكبرى

أصبحت أوروبا القرن الثاني عشر والاقتصاد العالمي الجديد الذي أخذ يتشكل حولها متمحورين حول إقليم تروا وبروفان وبار ـ سور ـ أوب ولاني. وسرعان ما راح هذا الإقليم يبدي السمات المميزة لجميع الاقتصادات العالمية، أي، منطقة مركزية، مع عدد من المناطق البينية وهامش. وهكذا اشتمل على عدد من المستويات المختلفة والتفاوتات، على الرغم من أن تماسك الكيان الإجمالي كان يعني أن نبضاته تدق بإيقاعات واحدة، أكان ذلك في الأوقات الجيدة أم السيئة. وهناك وفرة من الأسباب التي تبرر اهتمامنا بهذا الاقتصاد العالمي، وهو **أول** اقتصاد عالمي يوجد بالكامل داخل **أوروبا القارية**(٦٤).

أعتقد أن ثلاثة عوامل أولية حيوية تكمن وراء هذا الكيان الاقتصادي الأوروبي الأول: الإحياء المبكر لاقتصاد نشيط في إيطاليا، والذي سرعان ما سوف ينفتح على البحر المتوسط (عبر آمالفي والبندقية وبيزا وجنوه)؛ الانبثاق الذي حدث في منطقة المصبات الثلاثية للراين وللمير وللايسكو لمنطقة اقتصادية نشيطة، تستند إلى الصناعة الحرفية والتجارة؛ وأخيراً، الإقامة التي حدثت على ضفاف السين والأوب والمارن، لنقطة اتصال بين هذين القطبين الاقتصاديين ـ الأسواق الكبرى المقامة في تروا وبروفان وبار ـ سور ـ أوب ولاني.

ووفقاً لفيليكس بوركلو، المؤرخ الذي عاش في القرن التاسع عشر (ويتفق معه روبير ـ هنري بوتييه)(٦٥)، فإن أسواق شامبانيا وبري الكبرى قد استهلت دورها الدولي

خلال أعوام ١١٣٠ ـ ١٣٦٠ ـ أي، يجب أن نلاحظ ذلك، بعد زمن ملحوظ من تلك العلامة الزمنية المهمة الأخرى، والتى مثلتها الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥). فهل أخذت الأصداء من الحملات الصليبية لكي توفر الدافع لإقامة الأسواق الكبرى؟ أياً كان الأمر، كان هناك تأخر زمني واضح.

وخلال هذه السنوات، ١١٣٠ ـ ١٣٦٠، أصبح القطبان التوءمان المتمثلان في البدان الواطئة وإيطاليا مرتبطين بالفعل ـ حيث يمر التيار الموصل بينهما، بهذه الدرجة أو تلك، بطرق "البرزخ الفرنسي"، والتي تجتاز أوروبا من الجنوب إلى الشمال. والحال أن السياسات المتحررة والبناءة التي اتبعها كونتات شامپانيا، بدءً بتيبو الثاني في عام ١١٢٥، قد أسهمت في انتصار الأسواق الكبرى الشهيرة. وكانت تجري مبادلة منتجات من شرقي البحر المتوسط، التوابل، والمنسوجات الحريرية، علاوة على قروض من التجار الإيطاليين، بالأقمشة غير المقصّرة المنتجة في منطقة صناعية واسعة تمتد من الزويدرزي إلى السين وإلى المارن.

جزئية بسيطة: كيف نفسر الأفضلية الممنوحة لتروا ولپروفان ولبار ـ سور ـ أوب وللاني، وللطرق التي (وهذه مشكلة أخرى) لم تكن طرقاً رومانية قديمة، قياساً إلى طرق الشمال ـ الجنوب التي تمر عبر رانس وشالون ولانجر(٦٦)؟ هل كان هذا "الانقلاب" نتيجة لعداوة كونتات شامپانيا لمدينتي رانس وشالون الأسقفيتين (واللتين كانتا خارج مجال ولايتهم)؟ أم أنه يرجع بالأحرى إلى أن التجار الجنوبيين كانوا مضطرين، أو ميالين إلى أن يكونوا قريبين من مشتري السلع الشرقية، أي قريبين من الحوض الباريسي المركزي ومن عاصمة المملكة، باريس نفسها؟

أياً كان السبب، ففي الأسواق الكبرى المتعاقبة التي تقام بشكل تناوبي دون انقطاع بين هذه المدن الأربع استقر مركز الاقتصاد العالمي الجديد الذي يستوعب أوروبا الغربية ويحكم حياتها الاقتصادية المشتركة الأولى.

ولن نشدد البتة كثيراً على الأهمية التي مثلها هذا الاختيار بالنسبة لفرنسا. فواقع أن مركز هذا الاقتصاد العالمي الجديد يقع على مسافة قصيرة إلى هذا الحد من باريس، والتي تشكل مركزاً رئيسياً آخر، لا يمكن إلاَّ أن يكون واقعاً مهماً. ومن ثم، فإذا كانت باريس قد تحولت إلى مدينة ضخمة، يسكنها ٢٠٠,٠٠٠ نسمة على الأقل بحلول عام ١٣٠٠ تقريباً(٦٧)، وهو رقم لا مثيل له في أية مدينة أخرى في الغرب؛ وإذا كانت قد "انفجرت خارج حزام الأسوار ـ ذي المقاييس السخية بالفعل ـ والذي يرجع إلى عهد

الشكل ٢٧

المدن المتصلة بأسواق شامبانيا الكبرى

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر

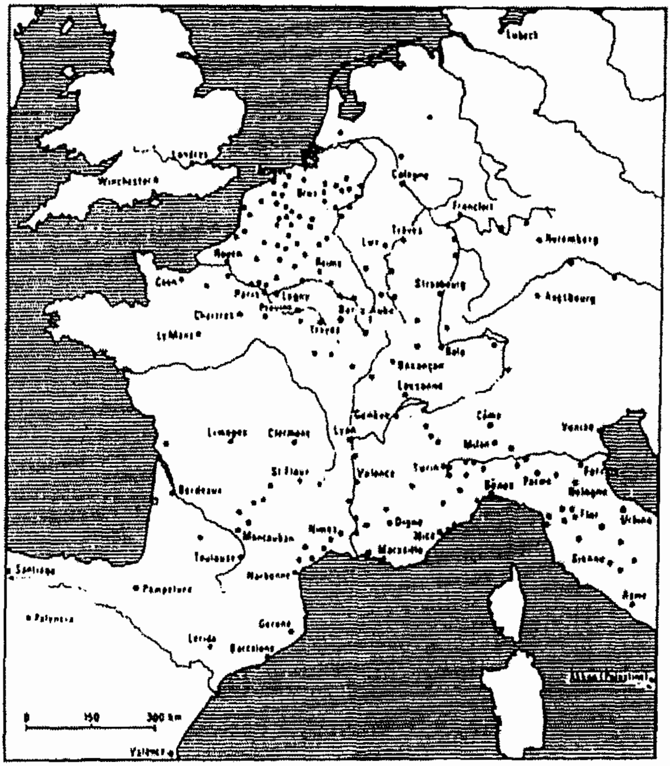

توضح هذه الخريطة الكيان الاقتصادي العام والقطبية الثنائية لأوروبا: البلاد الواطئة في الشمال وإيطاليا في الجنوب.

نقلاً عن:

H. Ammann

فيليب أُغُسطُس"(٦٨)؛ وإذا كانت جامعتها قد غمرت بشعاعها أوروبا برمتها؛ وإذا كانت الملكية الفرنسية قد ازدهرت في باريس كسنديانة قضاء، وسمحت لمؤسساتها المركزية بالانجذاب إلى هناك؛ وإذا كانت العمارة القوطية، التي ولدت في فرنسا، قد انتشرت وراء حدودها - فإن أسواق شامپانيا الكبرى، التي ازدهرت حتى نهاية القرن الثالث عشر، كانت مسئولة عن كل ذلك بمعنى ما من المعاني. وفي باريس وحولها على حد سواء، أخذت سلسلة من الكاتدرائيات في الانبثاق على الأرض: سانس في عام ١١٣٠؛ نويون في عام ١١٣١؛ سانلي ولاون نحو عام ١١٥٠؛ نوتردام في عام ١١٦٣؛ شارتر في عام ١١٩٤؛ أميان في عام ١٢٢١؛ بوفيه في عام ١٢٤٧. "في أقل من قرن، أقام أسلافنا هذه العجائب الرخامية. وقد حققوا مآثر غير مسبوقة في هذا العمل: إن ارتفاع صحن الكاتدرائية في سانلي يصل إلى ثمانية عشر متراً، بينما يصل ارتفاع صحن الكاتدرائية في بوفيه إلى ثمانية وأربعين متراً. ولن يبني أحد بعد ذلك صحناً أعلى"(٦٩). (يرتفع صحن كاتدرائية نوتردام خمسة وثلاثين متراً فقط). وبما أن هذه الكاتدرائيات قد استغرق بناؤها وقتاً طويلاً، فإنها تعد شاهداً ممتازاً على الفترة الطويلة برمتها. لقد بدأ بناء نوتردام في عام ١١٦٣ إلاَّ أن هذا البناء لم يكتمل إلاَّ فى عام ١٣٢٠.

من الصعب إذاً أن يستغرب المرء من أن باريس كانت بالفعل بحلول القرن الحادي عشر "المركز الثقافي للغرب"(٧٠)، وأن جامعتها، في السنوات التالية، في سعيها المحموم إلى أفكار جديدة، قد أدخلت الدراسة الثورية للمنطق الصوري وفقاً لأرسطو - أي ما كان يُعتبر **العلم** آنذاك. والنتيجة أن الفلسفة والنزعة المدرسية قد طمستا الشعر والأدب اللذين كانا حتى ذلك الحين الموضوعين الرئيسيين للبحث. وفي قصيدة ساخرة، يهاجم الفيلسوف ميشيل دو كورنيبي الشاعر هنري دافرانش: "أنا كرست نفسي للعلم... بينما أنت تفضل أشياء صبيانية كالنثر والإيقاع وبحور الشعر. ما نفع هذا كله؟ بوسعي القول إن لا نفع له البتة... أنت تعرف أجروميتك، لكنك لا تعرف شيئاً عن العلم أو المنطق. فلماذا تنتفخ أوداجك بينما أنت جاهل؟"(٧١).

ولم يكن البهاء كله يتركز فقط في الحي اللاتيني، المحيط بالسوربون، أو حتى في باريس وحولها. دعوني أذكركم مرة أخرى بأن العمارة القوطية في فرنسا قد انتشرت طولاً وعرضاً، فمن موطنها الأول، الإيل دوفرانس، رحلت إلى جرمانيا وإسبانيا الشمالية وجنوب إنجلترا، بل وإلى مناطق أبعد مثل كراكوف وميلانو وسينيا في شمال

الشكل ٢٨

خريطة العمارة القوطية

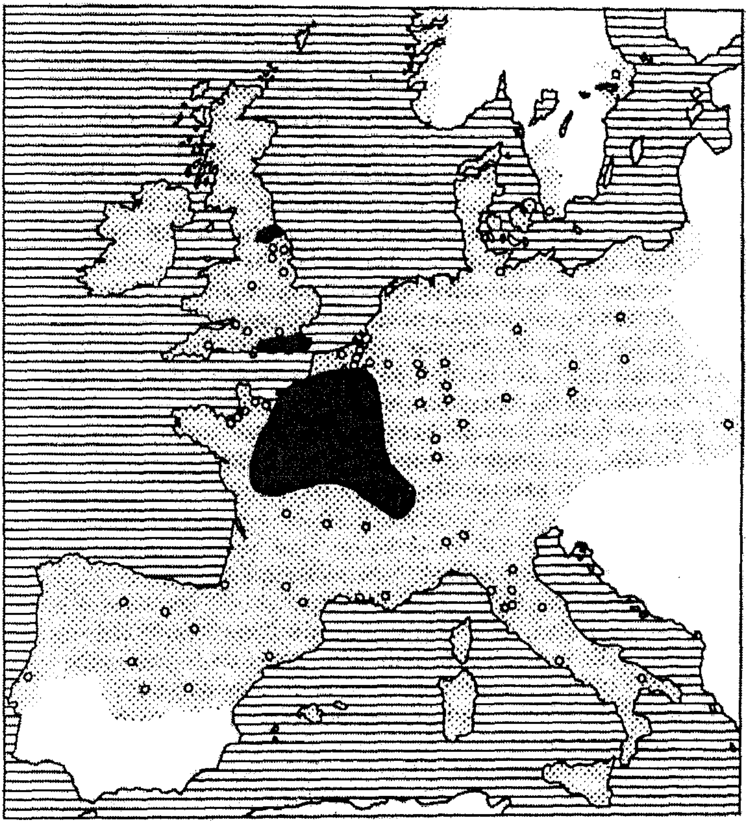

المنطقة المظللة تظليلاً أكثر قتامة تبين الموجة الأولى للعمارة القوطية في القرن الثاني عشر (الدوائر السوداء)؛ أما المنطقة الفاتحة أكثر فهي تبين انتشار العمارة القوطية في القرن الثالث عشر (الدوائر البيضاء). وتشير المثلثات إلى عمائر بائدة.

إيطاليا (ولـو أن شبه الجزيرة لم تكن بوجـه عام مرحبة جداً بهذا الأسلـوب الفرنسي). ولتأخذوا مثالاً بسيطاً لكنه دال: في ميدان سييـنا الكبير، توجد نوافذ قوطية لعدة قصور ـ فالـتجار الأثريـاء الذين يمـلكونهـا كانوا قـد زاروا مدينتـي تروا وپروفان. وفـي عام ١٢٩٧، أصدرت البلـدية قراراً ينص على أنـه سعياً إلى الحـفاظ على انسجام الـمشهد العام، يجب على كل من يعيـد بناء أو ترميم بيت في الـ **Campo** أن يراعي انـسجام النوافذ على الواجهة مع هذا النموذج "حيث الأعمدة صغيرة ولا وجود لشرفة"(٧٢).

التوسع الجغرافي: الحملات الصليبية

لعل المسـئولية عن ظهور أوروبا ترجع إلـى الشكل الأبسط للنمو: تـوسع الساحة الجغـرافية التي استـولى عليهـا الاقتصاد الأوروبي والـذي راح يمتد في كل اتـجاه من الاتجاهات الأربعـة. لقد تم التوسع الإنجليـزي على حساب سكُتلنده وايـرلنده وويلز؛ وفي أوروبا الـشرقية، تغـلغل الجرمـان والسكاندينـافيون في البـلدان السلافيـة وبلدان البلطـيق؛ وتحول البولـنديون والمجريون إلـى اعتناق المسـيحية قبل الـعام ألف؛ وفي الجنوب، كان الاسترداد المسيحي لإسبانـيا (مع انتصار لاس نافاس دي تولوزا الحاسم) يجري علـى قدم وساق؛ وفي البحر الـمتوسط، أُعيد الاستيـلاء على الباليار وسـردينيا وكورسـيكا؛ واستـقر النورمـان في صقلـية وجنوب إيـطاليا. وأخـيراً، مع الحـملات الصليبية، كسب الغرب البحر المتوسط وشبكة طرقه التجارية.

وكانت الحملات الصليبية بالطبع ساحة اختبار ضخمة لمصير أوروبا وخاصة لمصير فـرنسـا **(Gesta Dei per Francos)**. وسرعان ما أصبح الغرب شديد الـعدوانية (١٠٩٤). لقد جاء الدور على أوروبا لكي تغزو، بعد أن كانت هي نفسها التي تتعرض للغزو؛ جاء الـدور على أوروبا لتلعب دور البـربري تجاه القوى التي اصـطفت ضدها: الإسلام وبيزنطة؛ جاء الدور على أوروبا لكي تـمارس الفتح والاستغلال وإنزال النوائب بالآخريـن، في انقلاب للأدوار. لـقد جرى إشعال حـمية دينيـة لن تخمد لـعدة قرون وكانت الامبريالية والاستعمار مسألة تفرض نفسها بقدر ما كانت هدفاً اختيارياً بل وبأكثر من هذا الـقدر. وقد اختار فـرديناند لو أن يشـير إلى الظلال والأفـعال القاتمـة في هذه الحملات المتكررة، فقد أوضح، بشكل مشروع، أنها كانت مماثلة للفتوحات الوحشية للعالم الـجديد، حيث أظهرت درجة مماثـلة من العنف. والفارق الوحيـد ـ لكنه فارق مهم ـ هو أن العدوان الأوروبي في أمريكا لم يواجه غير حضارات إمَّا أنها كانت ما تزال

بدائية أو ذات حماية هزيلة من الناحية المادية. والحال ليست كذلك في إفريقيا الشمالية أو الشرق الإسلامي، أو في المنطقة التي تسيطر عليها بيزنطة، والتي جرى غزوها في عام ١٢٠٤ ولكن دون أن يجري بحالٍ تحويلها إلى رماد. على أن مثل هذه التأملات، بالرغم من اتصالها بالأجل الطويل، إنما تبعدنا كثيراً عن موضوعنا ـ الشكل الأول للتوسع الأوروبي، وهو معيار قاسٍ، لكنه بليغ، للحكم على الاقتصاد والحضارة اللذين قاما في أوروبا، وداخل أوروبا، في فرنسا.

الطريق الهابط (١٣٥٠-١٤٥٠)

هل هذا العنوان الهادىء هو العنوان الأنسب لوصف الأعوام المائة العاصفة التي يرى روبير فوسييه أنها "تتقاسم مع القرنين العاشر والعشرين المجد المشبوه، مجد أنها الأكثر عنفاً في التاريخ الأوروبي" ـ وفي التاريخ الفرنسي أيضاً(٧٣)؟ ألم يكن من الأفضل العثور على تعبير أكثر صخباً عن هذه الأعوام الواقعة بين محن فيليب السادس دو فالوا وانتصارات شارل السابع "المخدوم على نحو رائع"؟ تعبير قد يكون من قبيل "الكساد العظيم" أو "السياق الشيطاني"؟ فأوروبا، بعد مسيرتها الصاعدة غير العادية، الصعبة ولكن طويلة العمر، قد وجدت نفسها أسيرة انحدار مباشر، ضخم، واسع الانتشار، وعنيف: وهو انحدار أعتقد أنه كان اقتصادياً أولاً وأساساً.

يرى روبير فوسييه أنه "إذا كان أتباع سيميان [وهو واحد منهم، شاء ذلك أم أبى، وأنا واحد من أتباعه الأكثر إخلاصاً بكثير] يومئون برؤوسهم ويرون بعداً اقتصادياً عاماً في هذه الأعوام، مرحلة "B"، كما يسمونها(٧٤)، مرحلة الكساد، [فإن ذلك] ليس من شأنه إلاّ أ يضيف مصراعاً آخر إلى رافدة المذبح"(٧٥). لكنني لا أعتقد بالمرة أن تفسيراً من النوع السيمياني هو مجرد "إضافة": إنه بالأحرى يستوعب جميع التفسيرات الأخرى ويربط فيما بينها. وهو لا يقتصر على "البعد الاقتصادي". لأنه عندما يتأثر الاقتصاد على كل مستوى، ويجد نفسه عاجزاً **بشكل دائم** إمَّا عن استعادة توازنه أو عن تصور علاجات ملائمة، فيمكننا أن نكون واثقين من أن ما وراء ذلك هو شيء أكثر من الاقتصاد، وأن أسباباً كثيرة للانحلال تمارس فعلها.

وقد اعتاد التفسير التقليدي أن يبدأ بالطاعون الأسود، الذي ضرب فرنسا لأول مرة في عام ١٣٤٧، "كركلة موجهة إلى المحشر البشري"، في نهاية فترة التوسع الديموجرافي(٧٦). لكن السجل الزمني للوباء يتلو المؤشرات الأولى للكساد

الاقتصادي. ومنذ أعوام ١٣١٥ ـ ١٣٣٠، كانت سلسلة من الشتاءات الرهيبة قد أدت بالفعل إلى مجاعات ودلائل منذرة مزعجة. وسوف تعقب ذلك مجاعات أخرى، في عام ١٣٤٠ في بروفانس وفي عام ١٣٤٨ في الليونيه. والحال أن الوباء الذي انتشر عندئذ "قد أطال أمد وزاد حدة اتجاه [ديموجرافي] هابط كان ماثلاً بالفعل، ومن هنا آثاره التي يصعب علاجها"(٧٧).

كان قد مر بالفعل بعض الوقت على وصول الانتاج الزراعي إلى ذروته، وكان قد توقف عن التزايد بالسرعة التي يتزايد بها السكان. ويذهب أندريه شيدفيل في كتابه الرائع(٧٨)، إلى أنه في الريف المحيط بشارتر "كان الركود قد حدث بالفعل بين عامي ١٢٢٠ و١٢٣٠". وكان استصلاح الأراضي الزراعية قد انتهى. "وقد سُجِّلت آخر استصلاحات مهمة نحو عام ١٢٣٠. إن أزمنة القديس لويس القديمة الطيبة، والتي سوف يتم تذكرها فيما بعد بشيء من الحنين، لم تكن بالتأكيد أزمنة مصاعب خطيرة، إلاَّ أنه [في إقليم شارتر على أية حال] كان معاصرو الملك الورع قد تركوا بالفعل وراءهم أفضل أيامهم". ومن الوارد بالطبع أن الريف المحيط بشارتر كان ضحية لموقعه: فهو بعيد جداً إلى الشمال بحيث يصعب أن تتوافر فيه مزارع كروم كثيرة، وهو بعيد جداً إلى الغرب بحيث يصعب دمجه في المناطق الواسعة لانتاج المنسوجات، ومن ثم فقد فشل، في أواخر القرن الثاني عشر، في العثور على تلك الريح الثانية التي ربما كان بوسعها إنقاذه. إلاَّ أنه في أماكن أخرى أيضاً، كان استصلاح الأرض قد توقف قبل وقت طويل من الطاعون الأسود: "بحلول عام ١٢٣٠ حول باريس، بحلول عام ١٢٥٠ تقريباً في بواتو وبيكاردي ونورماندي وبروفانس؛ بحلول عام ١٢٧٠ في ... سولونيه... ـ؛ ١٢٩٠ في ليموزان والبوردليه والپرانس؛ ١٣٢٠ في الفوريز... ودوفينيه"(٧٩)، وبين عامي ١٢٨٤ و١٣٥٠ حول بار ـ سور ـ سين...(٨٠).

والحال أن النهاية المبكرة لاستصلاح الأرض كانت بحد ذاتها علامة منذرة، شأنها في ذلك شأن توقف تزايد السكان، والذي قلما يتجاوز نهاية القرن الثالث عشر. ويكتب فوسييه فيقول: "بين عامي ١٣١٠ و١٣٢٠، بل وقبل ذلك أحياناً، لنقل بين عامي ١٢٨٠ و١٢٩٠ مثلاً، يبدو أن أوروبا المسيحية كانت قد وصلت إلى ذروة توسعها الديموجرافي"(٨١). وذلك أيضاً هو رأي روبير فيليب الذي يرى، مستخدماً سجلات أبرشية شارتر، أن ذروة الموجة الديموجرافية الكبرى إنما تقع في زمن ما قريب من عام ١٢٨٠ ـ أي قبل الطاعون الأسود بوقت طويل. أمَّا السقوط "بقدر ما

يمكننا تقدير ذلك... فهو يبدأ نحو عام ١٢٨٠ وقد زاد من سرعته [بعد ذلك] كل ظرف غير مؤات"(٨٢). ويحدد جي بوا "نقطة تحول المنحنى الديموجرافي" في نورماندي "قرب منعطف القرن"(٨٣). وأنا لا أزعم أن التغير السكاني، مع كونه "مؤشراً" أولاً، يحكم كل ما عداه، لكنه يقدم مؤشرات جد واضحة على مسار سيرورة استغرقت زمناً طويلاً وشهدت تحولاً دراميـاً. والحق إننا لا نحوز غير رقم واحد وحيد يمكن أن يكون قريباً من المعقولية بالنسبة لسكان فرنسا (إن جاز أصلاً أن يوصف بهذه الصفة): في عام ١٣٢٨، عام ارتقاء فيليب السادس دو فالوا العرش، يبدو أن السكان الفرنسيين قد وصلوا إلى رقم إجمالي، خرافي عندما نستعيده ونتأمله الآن، قدره نحو عشرين مليون نسمة. ومن هذه الذرى، كان الانحدار مباغتاً وسريعاً: ففي عام ١٤٥٠، جرت الإشارة إلى رقم قدره نحو عشر ملايين ـ بما يشكل انحداراً إلى نصف الرقم الأول. بل إن الانحدار ربما كان أكثر حدة بكثير، إذا ما اعتمدنا على تقديرات تتصل بعينة صغيرة في نورماندي: "عند أدنى نقاط المنحنى، كان نحو ثلاثة أشخاص يعيشون في المكان الذي كان يعيش فيه من قبل عشرة"(٨٤).

لكن الانحدار لم يكن منتشراً بشكل متساوٍ على مدار نصف القرن الذي شهد انحداراً مطلقاً: فقد حدث في سلسلة من الانخفاضات الحادة التي تخللتها فترات كان السكان يبدأون فيها في التزايد من جديد، ثم يؤدي الانحدار التالي إلى محو كلٍ من المكاسب الجديدة وجانب من رأس المال السابق. وهكذا ففي نورماندي العليا، بعد "مرحلة استرداد أولى" دامت نحو أربعين سنة، على أثر الكوارث التي رافقت الطاعون الأسود في منتصف القرن الرابع عشر، حدث انحدار حاد آخر بين عامي ١٤١٥ و١٤٢٢، ثم تلاه إحياء تدريجي من عام ١٤٢٢ إلى عام ١٤٣٥، قبل أن يتم محو جميع المكاسب مرة أخرى بين عامي ١٤٣٥ و١٤٥٠، من جراء أزمة رهيبة، أطلق جي بوا عليها اسم "هيروشيما نورماندي"، في بحثه عن تسمية تتناسب مع مدى الكارثة(٨٥). إن الحاصد الكئيب قد حمل المنجل مرة أخرى. وقد ذهب چاكوب فان كلافيرين إلى أن انتاج الكائنات البشرية، لو تُرك لنفسه، هو الصناعة الوحيدة التي لا تعمل وفقاً لقانون الغلة المتناقصة. إلاّ أنه في مواجهة قوة الحياة هذه، الإمكانيات هذه، ترتسم ظروف، مناوئة أو مؤاتية.

ومن المؤكد أن الطاعون الأسود وحرب الأعوام المائة يندرجان تحت عنوان الظروف المناوئة. إلاّ أنه كان هناك أيضاً قانون قاس للغلة المتناقصة يمارس فعله،

ويجعل من المستحيل مواصلة التوسع السابق. وكانت ما تزال هناك أراضي جديدة تجب زراعتها، لكن تربتها كانت رديئة جداً بحيث إن زراعتها ما كانت لتساعد على إطعام أحد. ومن ثم فقد كان هناك فائض سكاني، وعندما انهار تحت عبئه هو، انهالت عليه مصائب أخرى: إن السلطات الضريبية الملكية قد طرحت مطالب مسرفة، وفرضت على الفلاحين "ضريبة إضافية" أدت إلى الاضطراب في عام ١٣٣٧. وانطلق عنان التلاعب بالعملة: "بين أكتوبر ١٣٥٨ ومارس ١٣٦٠، تغيرت قيمة العملات الفضية ما لا يقل عن عشرين مرة"(٨٦). وتحت هذه الضربات المتكررة، بدأ المجتمع نفسه ينهار ويتفكك: إن الفلاحين، الذين بوغتوا في زخمهم، قد انحدروا إلى الكارثة؛ بينما شهد السادة انحدار إيراداتهم وانصاعوا لإغراءات الحرب وأعمال قطع الطريق واللصوصية. وقد تحدث المؤرخون عن أزمة وعن "أفول الإقطاع"، لكن أي نظام اجتماعي لا ينهار إلاَّ لكي يفسح السبيل أمام نظام اجتماعي آخر.

الطاعون الأسود وحرب الأعوام المائة

في عام ١٣٤٧، اجتاح الطاعون الأسود، وهو مصيبة ذات أبعاد خطيرة، أوروبا التي كانت قد نسيت لزمن طويل هذا الوباء، منذ أوبئة القرون السادس والسابع والثامن القاتلة ولكن البعيدة زمنياً. وقد جرى النظر إلى الطاعون بوصفه شراً غير مسبوق بالمرة. والحال أن جي دو كولياك، الطبيب الشهير لبابا آفينيون كليمون السادس، قد كتب فقال إن مثل هذا الطاعون لم يحدث من قبل قط. لأن كل الطواعين المعروفة في السابق "لم تُصب غير إقليم محدد، في حين أن هذا الطاعون عالمي، وكانت الطواعين الأخرى قابلة للعلاج في بعض الحالات، أمّا هذا الطاعون فهو غير قابل للعلاج في أية حالة"(٨٧). والمناطق الوحيدة التي نجت من الطاعون الأسود بين عامي ١٣٤٧ و١٣٥٠، وإن لم تكن نجاتها كاملة أيضاً، هي مناطق داخلية قليلة في أوروبا الشرقية، ولم تنجُ في الغرب سوى البيارن ورويرج ولومباردي والبلدان الواطئة: أي الأقاليم المحمية إمّا بعزلتها - حيث لا تتصل بالطرق الرئيسية التي انتقل الوباء عبرها - أو برفاهها الاستثنائي، والذي يعني وجود سكان جيدي التغذية ومن ثم أكثر قدرة على مقاومة الداء.

ولم تكن مصائب الطاعون تشبه بحال من الأحوال مصائب الأمراض العادية، مع أن هذه قد تفاقمت خلال العقود السابقة من جراء المصاعب الاقتصادية. وفي فرنسا،

كانت الموجة الأولى للطاعون الدبلي (١٣٤٨ ـ ١٣٤٩)، والتي اجتاحت البلد كله من الجنوب إلى الشمال، موجة كارثية: وبحسب الإقليم، هلك ربع أو ثلث أو نصف أو، في بعض الحالات، ٨٠ في المائة أو ٩٠ في المائة من السكان. إن فرنسا، مع بقية أوروبا، قد طالها الخراب التام. وفيما بعد، لم يختف الطاعون من الغرب بل كان يجيء ويذهب، ويختفي من مكان ليظهر قوياً في مكان آخر، ثم يعاود خطواته. إن دورة جديدة للوباء قد بدأت، وهي دورة تبدي عين سمات الدورات التي كانت تحدث قبل ذلك بألف سنة.

وإذا استندنا إلى السجلات الدقيقة التي جمعها الدكتور بيرابن، فقد يبدو للوهلة الأولى أن الطاعون كان ماثلاً في أوروبا بلا انقطاع تقريباً حتى عام ١٦٧٠، العام الذي رمز إلى اختفائه التام (كان الانفجار الوحشي للوباء في مرسيليا بعد ذلك بخمسين سنة في أعوام ١٧٢٠ ـ ١٧٢٢ مقتصراً على جنوب فرنسا الذي مسه الوباء من جديد، كما في الماضي، عن طريق الطرق البحرية)(٨٨). والواقع أن الداء كان ينتشر بصورة متقطعة، إذ كان انتشاره يحدث كل خمس أو ثماني أو عشر سنوات تقريباً، مع تخفيفات لحدته وفترات هادئة بين مرات انتشاره. وكان انتشاره ينتقل من مكان إلى مكان: فباستثناء سنوات ١٦٢٩ ـ ١٦٣٦، لن يضرب فرنسا كلها أبداً مرة أخرى في وقت واحد. لكنه كان يدور بلا كلل داخل حدودنا. وبمرور الوقت، أصبحت مصائبه أقل حدة: ففي القرن السابع عشر، لم يتسبب في زيادة في معدل الوفيات إلاً بنسبة ٥ في المائة أو ٦ في المائة في المتوسط(٨٩). ثم لأسباب ما تزال غامضة، اختفى **تماماً** في أوروبا القرن الثامن عشر(٩٠)، مثلما كان قد سبق له الاختفاء تماماً منها قبل عدة مئات من السنين، بعد أن ظل موجوداً لقرون متصلة ـ بما يشكل تكراراً غريباً لسيرورة واحدة. ولذا فلا يجب أن نبالغ في تقدير الدور الذي لعبته تدابير العزل الصارمة المتخذة ضد المدن أو الأقاليم الموبوءة، مع أنها قد تبدو معقولة إلى حد بعيد. ويبدو أن تاريخ الطاعون يتبع بالأحرى دورة بيولوچية طويلة الأجل من نوع ما.

والمقصود من وراء هذه الملاحظات هو رصد وتيرة الطاعون الأسود وأهميته، أي التدشين المخيف لمرحلة مروعة سوف تستمر لمدة ثلاثة قرون. على أن الطاعون، بالرغم من عنفه وإلحاحه، قد خضع لعين القوانين التي تخضع لها جميع الأوبئة الأخرى: إن فجوات عظيمة قد ظهرت في السكان، إلاً أنه بمجرد انقضاء الخطر، كانت الحياة تعيد تأكيد نفسها، وكانت الجراح تلتئم، وكان الأرامل، رجالاً ونساءً،

يتزوجون بسرعة من جديد (يقول لنا چان دو فينيت "إن من كتب لهم البقاء من الرجال والنساء قد تدافعوا بالمناكب إلى الزواج")(٩١) وكان معدل المواليد يرتفع كما هو متوقع. وفي جيفري في بورجونيا، كان العدد السنوي المتوسط العادي للزيجات ١٥ زيجة؛ أمّا في عام ١٣٤٩ فقد ارتفع إلى ٨٦ زيجة(٩٢).

لكن آثار الطاعون قد تضاعفت من جراء الخراب الناجم عن حرب لا تنتهي أبداً. وحرب الأعوام المائة لم تكن شيئاً يشبه الحروب الحديثة بالطبع. وسوف يكون من الأنسب وصفها بـ "مائة سنة من الاشتباكات لا حرب مائة عام"(٩٣). فالمعارك - الاجتماعية والفوضوية والسياسية بالقدر نفسه - كانت متقطعة، تتخللها هدنات ومفاوضات. وفي المتوسط، ربما كان هناك قتال فعلي يستغرق عاماً في كل خمسة أعوام. لكن الخراب حل بالريف، إما عن طريق القوات التي تمارس النهب، والتي عاشت بشكل متواصل على حساب الأرض، أو عن طريق تاكتيك الأرض المحروقة، والذي كان يهدف إلى حرمان العدو من الإمدادات. والحال أن الفلاحين الذين احتموا خلف أسوار المدينة كانوا، متى تسنى لهم ذلك، يرجعون إلى أراضيهم بمجرد انقضاء الخطر. أو أنهم، كما ذكر ذلك توماس بازان، كاتب أخبار شارل السابع، كانوا يكتفون بزراعة قطع قليلة من الأرض "كما لو كانوا يزرعونها سراً"، "حول أو داخل المدن"، مستعدين للانسحاب وراء الأسوار عند أول إنذار بالخطر(٩٤). وهكذا ظلت حقول كثيرة مهجورة، وكان الخوف من الحرب، المجتمع مع هبوط حاد في السكان، يعني انتشار الأرض المهملة من جديد. والحال أن فيليب دو لا بواسيير، رئيس قيادة فرسان الاسبتارية في بروي - دي - پا في عام ١٤٤١، قد كتب وهو يتحدث عن الجيل السابق فقال إن "أرض سانتونج هذه، باستثناء المدن والحصون، كانت مهجورة وغير مأهولة... وبينما كانت قد وُجدت هناك في وقت من الأوقات مزارع وضياع وأراضي تركات، فإن الأشجار الكثيفة قد راحت تنمو وتعلو". وفي عام ١٤٧٢، كانت ما تزال توجد في هذا الإقليم نفسه "قفار كانت في يوم من الأيام حقولاً للكروم"(٩٥).

وبوسعنا أن نورد ألف تقرير مباشر مماثل من كافة أرجاء فرنسا. ومن المرجح أن من الصحيح بوجه عام أن "أقاليم قليلة هي التي أثرت الحرب عليها تأثيراً عميقاً ومقيماً"، إلى جانب الأقاليم التي "كان القتال فيها ممتداً، كإقليم باريس [أو] الأقاليم التي عسكر فيها الجنود القدماء، كپروفانس"(٩٦). ومن جهة أخرى، لم يفلت إقليم واحد إفلاتاً تاماً. بل إن المسيف الأوسط، الذي كان بعيداً عن الحرب عادةً، والذي

الشكل ٢٩

انتشار الطاعون الأسود (١٣٤٧ - ١٣٥١)

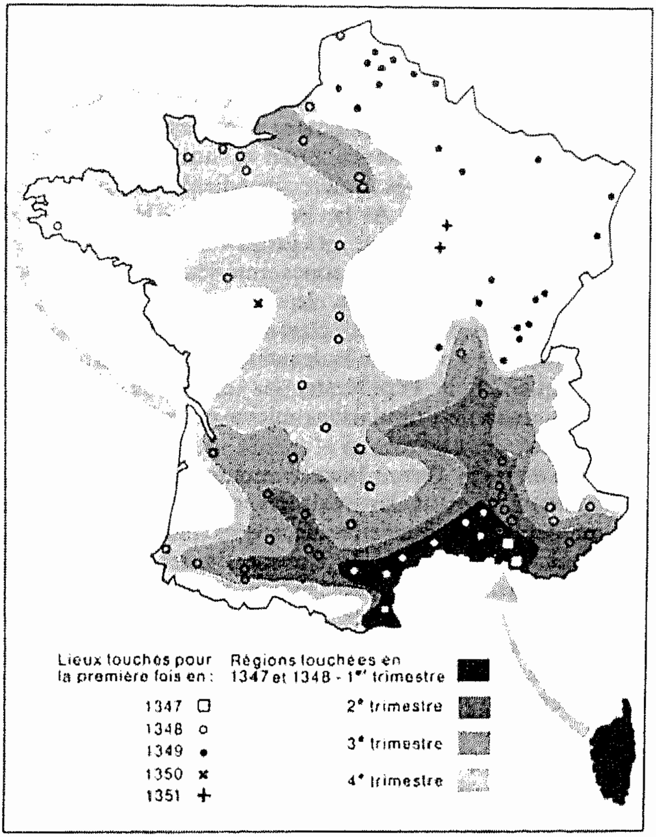

نقلاً عن:

Jean Favier, *la France médiévale*, 1983.

وجد فيه شارل السابع في نضاله ضد بورجونيا مساعدين يحتلون موقعاً ممتازاً، قد اخترقه الأمير الأسود في عام ١٣٥٦ : لقد عثر الإنجليز على "أرض أوفرنيا التي لم يسبق لهم قط دخولها. . . وكانت جد مزدهرة وكانت جد عامرة بجميع أنواع الخيرات بحيث كانت رؤيتها مصدراً للعجب"، كما قال فراسّار(٩٧).

وفي باريس، كان الآرمانياك والبورجونيون يتنافسون فيما بينهم للبرهنة على المدى الذي يمكن للتعطش إلى الدماء أن يمضي إليه: إن أعمال القتل والمذابح لم تتوقف قط. وعندما دخل البورجونيون العاصمة في مايو ١٤١٨، كانت مفروشة بجثث الآرمانياك "المتراكمة تراكم خنازير في الوحل"(٩٨). وقد عاش الباريسيون زمن "محنة ولعنة" كابوسي، زمن "عالم يقترب من نهايته"، بحسب تعبير الشاعر أوستاش دوشان(٩٩) (ولد في عام ١٣٤٦). أمّا پترارك، الذي زار فرنسا قرب نهاية عهد جان الصالح، نحو عام ١٣٦٠، فقد مسه الذهول: "لا يكاد يسعني تمييز أي شيء أراه. إن المملكة الأكثر ثراءً بين الممالك كوم من الرماد؛ ولا قيامة لبيت واحد باستثناء البيوت المحمية بأسوار المدن وبالقلاع. أين أصبحت الآن باريس التي كانت مدينة جد عظيمة؟"(١٠٠).

على أن باريس اجتازت الكوارث وظلت، حتى نهاية القرن الرابع عشر وبعده "المركز الذي تُصاغ فيه الموضات، وتُبتكَرُ فيه الشعائر الاجتماعية ويتشكل فيه أسلوب حياة ويُصاغ فيه ذوق جميع أولئك الذين يسعون في أوروبا إلى أن يحيوا حياة كريمة"(١٠١). لقد كانت ما تزال عاصمة، لكنها عاصمة عفنة ومورثة للعفن، غارقة حتى عنقها في الحرب ومتكيفة معها تكيفاً تاماً ـ شأن آنفير [آنتويرب] في عام ١٥٦٧ عندما وصل الدوق دالب إليها، وجعل منها العاصمة الحربية للبلدان الواطئة؛ أو شأن سايجون خلال حرب "نا" الفيتنامية [حرب الهند الصينية]، البارحة.

وفي نهاية هذا الاحتضار، كان السكان الفرنسيون قد انكمشوا انكماشاً حاداً. وإذا كانت المملكة قد ضمت، في عام ١٣٢٨، ما بين ٢٠ و٢٢ مليون نسمة، فيجب أن نقبل أن عدد سكانها قد هبط، في عام ١٤٥٠، ربما إلى ١٠ مليون أو ١٢ مليوناً عند أقصى تقدير ـ وهو رقم **من المرجح** أنه أعلى من رقم السكان في زمن شارلمان. ولكن ما أبشع انحداره!

لم تكن فرنسا بالطبع البلد الوحيد الذي تأثر بمنحنى ١٣٥٠ ـ ١٤٥٠ الهابط (كل من التاريخين تقريبي). ومن المؤكد أن القارئ يعرف، من كتب التاريخ العام الممتازة الكثيرة المتاحة، أو من السطور السابقة، أن التفسيرات المتعلقة بكل من التوسع والانكماش إنما تنطبق على أوروبا ككل. وقد كان التاريخ الفرنسي إلى حد بعيد **نتيجة** للبيئة المحيطة. وحرب الأعوام المائة، بالرغم من أنها خيضت أساساً على الأرض الفرنسية، لم تكن ـ كيف أعبر عن ذلك؟ ـ مأساة فرنسية شخصية. لقد كانت أشبه ما تكون بوباء، اجتاح القارة كلها، ومد جذوره فيها، وانتشر طولاً وعرضاً، وكانت آثاره واحدة إلى حد بعيد في كل مكان. وعبر كل أرجاء أوروبا، كانت العصابات المسلحة تمارس النهب بشكل شائن، ولا تطيع إلاّ زعيمها، كوندوتّييرها (**condottiere**): "قد يضع الأخير نفسه في خدمة أمير بدلاً من أمير آخر، لكن المسألة كانت مجرد مسألة من الذي يدفع أكثر. لقد انحاز جان شاندو وروبير نوليس وجون فالستاف إلى صف الإنجليز، بينما خدم دي جيسكلان وجريسار وسيرفول آل فالوا؛ وكان هوكوود يعمل لحساب البابا في روما، بينما كان كوليوني يعمل لحساب البندقية؛ أمّا كامپوباسّو وبيّاندرادر فقد عملا لحساب كل من يدفع لهما أكثر، في حين أن فرانشيسكو سفورزا كان يعمل لنفسه فقط"(١٠٢).

فهل من المحتمل أننا نحن المؤرخين الفرنسيين قد ضَخّمنا أحداث حربنا التي دامت مائة عام، وكأننا نخص أنفسنا بجميع مآسيها؟ وكأن فرنسا وحدها هي التي تورطت في الحرب وليس فرنسا بالإضافة إلى أوروبا. وكأن علامات الأزمة نفسها يستحيل رصدها في كل مكان: نقص مأساوي في النقود(١٠٣)؛ تبدلات مفاجئة ومتكررة في نسبة الذهب إلى الفضة، هبوط في أسعار الحبوب وفي الدخول الزراعية عموماً، أكانت دخول مالك الأرض أم الفلاح، قياساً إلى الأجور والأسعار "الصناعية"، التي ظلت مرتفعة نسبياً في كل مكان. وفي كل مكان كان هناك ذلك التفاوت في المحنة والذي أعطى المدن ميزة متزايدة: لقد كان صمودها للعاصفة أفضل. ومن بولنده إلى المحيط الأطلسي، ومن بحر الشمال إلى إسبانيا، كان يجري صوغ تاريخ **واحد**.

إلاّ أنه كان من الصعب أن يوجد تقهقر عام على النطاق الأوروبي دون شيء من الاضطراب والفوضى وتحول لمركز الاقتصاد العالمي يفسره. والواقع أن تحول المركز

قد حدث بالفعل.

فخلال عصر النشاط الفائر، كان المركـز قد تحدد على مدار مائة عام أو نحو ذلك داخل مربع أسواق شامپانيا الكبرى النـشيط. وحول هذا المركز كان يتذبذب ذراع توازن أساسي: فعـلى أحد الجانبين نـجد البلدان الواطئة، وعـلى الجانب الآخر نجد إيـطاليا الشمالية بـمدنها، وهي **متعددة الـقوميات** بالفعل آنذاك، : البنـدقية، ميلانو، جنوه، فلورنسا. وكان الشمـال يرمز إلى تجارة الأقمشة، بينما كان الجـنوب يرمز إلى التجارة الكبيرة والأعمال المصـرفية ـ مما يميل بالميزان ميلاً حاسمـاً إلى صالحه. ومن ثم فقد رمز انحدار أسواق شامپانيا الكبرى إلى نقطة تحول: إن ازدهارها، من زاوية السلع، لم يستمـر إلى ما بعد نهايـة القرن الثالث عشـر؛ والمدفوعات من سوق كـبرى إلى سوق كبرى أخرى، بعبارة أخـرى آلية الائتمان، لم تستمر إلى مـا بعد عام ١٣٢٠. وبحلول عام ١٢٩٦، كان رجال الأعمال الفلورنسيون قد بـدأوا بالفعل ينتقلون إلى ليون(١٠٤). و"يُعتقد أن إيراد الأسواق الكبرى [من حيث الضرائب] قد هبط من ست آلاف أو ثماني آلاف **livres** في القرن الثـالث عشر إلى ١٧٠٠ **livres** في أوائل القرن الـرابع عشر، ثم عاد إلى الصعود بصعوبة إلى ٢٦٣٠ **livres** بحلول عام ١٣٤٠"(١٠٥).

وهذا في مجملـه إنما يعد نقطة تحول حاسـمة بالنسبة لأوروبا، وبالنسـبة لفرنسا. ففي عام ١٢٩٧، نجح الإيطاليون فـي إقامة أول خط بحري مباشر **ومنتـظم** عبر جـبل طارق إلى ساوثامپتون ولندن وبريج، بفضل سفن جنوه الشراعية الضخمة، والتي سوف تتلوها على آماد أطول أو أقصر سفن متوسطيـة أخرى (لم تدشن سفن البندقية الشراعية الضخمة رحلاتها الأولى إلاَّ في عام ١٣١٧)(١٠٦). وفي الوقت نفسه، تحركت الطرق الأنشط عبر الألب في اتجاه شرقي أبعـد: فبدلاً من ممري مون ـ سيني وجران ـ سان ـ برنار، استخدمت المواصلات الآن ممرات سيـمپلون وسان ـ جوتّار وبرينر. ولـم يخرج البرزخ الفرنسي مـن دائرة الاستخدام، لكنه واجه منافسة و، من حـيث الجوهر، فشل في هذه المنافسة وانحدرت أهميته. ولا مراء في أن الـفضة القادمة من المناجم الألمانية كانت إحدى القوى الكامنة وراء هذا التغيير للطرق(١٠٧).

والنتيجة النهائية هي أن فرنسا، التي كانـت أسواق شامپانيا الكبرى قد أضفت عليها قدراً مـن الحيويـة ـ على الأقل فـي بعض الـمناطق كـوادي الرون والشرق والـحوض الباريسـي الأوسط ـ قد وجدت نفسهـا الآن مفككة، ومعزولة مـن الناحية العمـلية عن الطرق الرئيسيـة التي اتخذتها **الرأسمـالية** الأوروبية. وسوف يكون هذا الـتهميش طويل

العمر. والحال أن البلدان التي سوف تستفيد من الرأسمالية الآخذة الآن في التشكل كانت تقع بشكل غريب على دائرة تحيط بفرنسا، ولكن عن بُعد: دائرة شكلتها الطرق المارة عبر ألمانيا، والممرات البحرية التي تسلكها سفن البحر المتوسط، والتي كانت ترسو أحياناً في مارسيليا والايج ـ مورت، إلاَّ أنها كان من المحتمل أكثر أن تزور برشلونه وفالينسيا وسيفيل ولشبونه، قبل أن تمضي مباشرة إلى الشمال عبر خليج جاسكونيا، ثم مباشرةً إلى سوثامبتون ولندن وبريج. ولم تكن تتوقف في أي ميناء فرنسي إلاَّ في حالات الطوارىء (ربما باستثناء لا روشيل، حيث أقام التجار الفلورنسيون الذين حموا المدينة خلال حرب الأعوام المائة)(١٠٨). وهكذا كانت فرنسا محاطة بدائرة من الطرق.

وكان استقرار الاتصالات الجديدة بطيئاً كما هي حال مثل هذه المشاريع غالباً. لكن التوازن الذي كان يجري خلقه آنذاك كان يميل إلى صالح إيطاليا. وهكذا فخلال الأزمنة الرمادية والقاتمة التالية، سوف تكون إيطاليا "في مأمن" نسبياً، بحسب تعبير الاقتصاديين.

وقد أصبح الصراع على الهيمنة أكثر شراسة وإثارة بين المدن الكبرى في شبه الجزيرة، والتي كانت كل واحدة منها مركزاً رئيسياً بالفعل، مرتبطاً بالاقتصاد الدولي. إن فلورنسا التي كانت حتى الآن مكتفية بشراء الأقمشة الصوفية غير المقصّرة من الشمال ثم صبغها، وهو ما شكل وظيفة الـ **Arte di Calimala** في المدينة، قد بدأت في صناعة أقمشتها الخاصة مع صعود الـ **Arte della Lana** السريع(١٠٩). وقد انتصرت المدينة، ليس فقط في القطاع الصناعي وإنما أيضاً في قطاع الأعمال المصرفية والمالية المحفوف بالمجازفات أكثر من سواه ـ وهو قطاع كانت لها فيه على أية حال ممارسة طويلة. وقد لعبت فلورنسا بالورقة الإنجليزية ضد فرنسا. أمّا جنوه، أول من يستشعر الفرصة كالعادة، فقد فتحت الطريق إلى الشمال، عبر جبل طارق، وهو طريق جديد وسوف يصبح منذ تلك اللحظة فصاعداً طريقاً منتظماً. في حين أن ميلانو، التي كانت في ذروة نشاطها، كانت تقترب مما يحتمل أنه كان طبعة مبكرة من الثورة الصناعية(١١٠). فهل الأزمة (وهي موجودة حتى بالنسبة للمحظوظين) هي التي حرمتها من هذا النجاح غير المنجز تماماً البتة وإن كان يبدو في نظر المؤرخين مدهشاً ومثيراً؟

في النهاية، كانت البندقية هي التي انتصرت على منافسيها، وذلك بفضل رأسمالية

قائمة ليس على الأعمال المصرفية بل علـى التجارة ـ وهي رأسمالية سوف أصفها بأنها تقليدية وعتيقة الـطراز بالفعل. على أن القوة الرئيسية وراء اقتصاد الـبندقية، في جوانبه الدولية والأكثـر ربحية، قد جاءت بالطـبع من شرق أوروبا ـ من البحـر الأسود وطريق الحرير، حتى الغـزو المغولي في عام ١٣٤٠؛ وبعد ذلك من شرقي الـبحر المتوسط، خاصة مصر (مستودع الفلفل والتوابـل الواردة من المحيط الهندي وبودرة الذهب الواردة من النيجر)، حيث وجدت البندقية مرة أخرى **مدخلاً** إليها نحو أربعينيات القرن الرابع عشر. والحـال أنه على البحر، وفـي أسواق الشرق الأوسط والبحـر الأسود، خاضت جنوه والبندقـية حروبهما التي لا ترحم. وقد ظـلـت نتيجة الحرب مشكوكـاً فيها لوقت طويل، لأن البندقـية لم تنجح بشكل نهائي فـي إزاحة جنوه منافستها والتمـتع بممارسة هيمنـتها المطلقـة في سلام إلاً في أواخر القرن الرابـع عشر، بعد انتصـارها في حرب شيوچّيا الدرامية (١٣٨٣)(١١١). وقد أدت هيمنة البندقية إلى تدشين أفول فرنسا، التي ظلت لـسنوات تالية خـارج السباق بشـكل مؤكد، بل وسـوف تظل خارجه حتـى عند خروج أوروبا أخيراً من النفق.

أوروبا ومصير فرنسا

هل أوضحت بما يكفي، كما كنت أرجو، أن مصير كل من فرنسا وأوروبا قد تحدد بشكل حـاسم خلال الفترة الـواقعة بين القـرن التاسع أو العاشـر وعام ١٤٥٠؟ أن هذه القرون هي مفتاح التاريخ الفرنسي؟

السبب الأول: خلال هذه الفترة، كانت أوروبا آخذة في التشكل وفي تأكيد نفسها. ودون أوروبا، لا يمكن أن توجـد فرنسا. إن أوروبا هي عائلتنـا، شرط وجودنا. ونحن نحيا في قلب أوروبا بـالضبط، بشكل أكثر رسوخاً حتى من حيـاتنا داخل الامبراطورية الرومانية. وقد تجمعت أوروبا ووطدت نفسها حول فرنسا. ونحن الفرنسيين سجناؤها، بين جيران يراقبوننا ويحرسوننا في آن واحد.

الـسبب الثـاني: لم يكن بـوسع أوروبا أن تصبح وحـدة إلاً لأنها قد مثلـت أيضاً الملكوت المسيحي؛ لكن الملكوت المسـيحي، ومعه أوروبا، ما كان يمكن لهما تأكيد هويتهـما إلاً ضد آخـرٍ ما. فالأسمنت الأقوى الذي يربط أيـة جماعة أياً كان نوعها هو المعارضة لـطرف ثالث. وهكذا فقد لـعب الإسلام، بطريقته، دوراً فـي نشوء أوروبا ـ ومن هنا أهمية الحملات الصليبية.

السبب الثالث: إن عصر التوسع الاقتصادي والسياسي والديموجرافي والثقافي قد أعطى أوروبا قواعدها، أساسها المتين، قوتها الكفاحية وعافيتها التي سوف تحتاجها فيما بعد لمواجهة المحن القادمة.

السبب الرابع: وهو أهم الأسباب. فقد بينت كيف أن حظوظ أوروبا المبكرة قد تمحورت على فرنسا. وبالنسبة لهذه الأخيرة، وفرت أسواق شامپانيا الكبرى قرناً من الازدهار النسبي، إلاّ أنه عندما انتهى ذلك القرن، انتصرت الممرات البحرية على الطرق البرية، ولم تعد فرنسا شريكاً في نشاطات أوروبا الاقتصادية الأكثر تقدماً. لقد كانت حبيسة دائرةٍ خارج حدودها تماماً، تمتد من إيطاليا الشمالية في اتجاه الغرب، عبر جبل طارق، وفي اتجاه الشمال إلى البلدان الواطئة، ثم تلتف عبر ألمانيا وعبر الألب لتعود إلى إيطاليا الشمالية مرة أخرى. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، سوف تكون فرنسا متفرجة على نجاح الآخرين، وسوف يُسيل هذا النجاح لعابها في مناسبتين على الأقل. ففي سبتمبر/ أيلول١٤٩٤، عَبَرَ شارل الثامن الألب على أمل فتح إيطاليا: لكن إيطاليا تملصت منه. وفي عام ١٦٧٢، أرسل لويس الرابع عشر وكولبير الجيش الفرنسي ضد هولنده، لكن هولنده أفلتت هي الأخرى. والحال أن أوروبا، بإحاطتها بفرنسا، قد رسمت مصيرها وقيدته في آن واحد. وكان من الأفضل لها لو قامت، في عام ١٤٩٤، أو حتى قبل ذلك، بعبور المحيط الأطلسي بدلاً من ذلك. وفي عام ١٦٧٢، ربما كان من الأفضل أيضاً نصح فرنسا بالتفكير في أمريكا. وهذه آمال زائفة بالطبع ـ ولكن أليس من شأن تخيل ما كان يمكن أن يكون التاريخ عليه أن يساعدنا أحياناً على فهمه فهماً أفضل وقد أصبح مكتوباً بشكل لا يمكن محوه؟

الشكل ٣٠

الاقتصاد العالمي الأوروبي في عام ١٥٠٠

أبحرت التجارة الدولية حول البحر المتوسط (مع امتدادات إلى المحيط الهندي) وفي اتجاه الشمال حول شبه الجزيرة الايبيرية إلى بلجيكا وبحر الشمال. أمّا الطرق التجارية البرية (الخطوط المنقوطة) فقد مرت عبر ألمانيا، على الجانب الشرقي من فرنسا، دون أن تمر بفرنسا نفسها.

II
١٤٥٠ ـ ١٩٥٠:
منحنى صاعد،
وياله من منحنى!

إذا ما نظرنا إلى القرون الخمسة الممتدة من عام ١٤٥٠ إلى ١٩٥٠ كتجربة تاريخية متواصلة واحدة، مع تتمة استكمالية تصل إلى الوقت الحاضر، فسوف يؤدي ذلك على الأقل إلى إرغامنا على أن ننحي جانباً الكثير من تجارب ماضي فرنسا الدرامية، بينما سوف يساعدنا بشكل مثالي على توضيح ذلك التاريخ الأعمق الذي يميل مسلسل الأحداث العادي إلى طمسه. والحال أن استكشافاً يخترق عدة قرون إنما يساعد على إتاحة منظور أفضل، هو المنظور الوحيد الصالح بالفعل لأية محاولة تهدف إلى رسم محصلة تاريخية بناءة.

وسوف يواصل الواقع الديموجرافي احتلال الصدارة خلال هذا البحث الاستكشافي. ولا يرجع ذلك، دعوني أكرر القول، إلى أنني أعتقد أنه العامل المقرِّر الوحيد، بل لأنه هو في نهاية الأمر السجل الأصلح لقياس القوى الفاعلة في التاريخ ـ دائمة كانت أم مؤقتة، قوية كانت أم ضعيفة. والديموجرافيا تقدم كلاً من عنصر التركيب وعنصر التصنيف. وقد لاحظ پيير شوني محقاً أن "السجل الديموجرافي، بالنسبة للمؤرخ، هو المعيار الأساسي، خط الحياة، خط العوم... وليس هناك تاريخ غير تاريخ الناس"(١١٢).

دعونا إذاً نتخيل المستحيل: أن بحوزتنا جميع الأرقام والمنحنيات البيانية التي نحتاجها: عن السكان والانتاج وتداول السلع وحركات الأسعار ـ وأن بوسعنا التمييز بوضوح بين جميع تبدلات مراحلها. سوف يكون بوسعنا على الأقل استخلاص نتيجة واحدة: بالرغم من جميع التقلبات المسجلة، لم تعان فرنسا قط مرة أخرى من تقهقر كارثي كتقهقر ١٣٥٠ ـ ١٤٥٠. لم تحدث ضربة **قاتلة** أخرى، لم تنفتح هوة تبتلع ثلث أو نصف السكان الفرنسيين. وحتى تحدث اليوم كارثة كهذه، لابد للمرء من أن يتصور ـ مثلما يتصور ذلك عدد غير قليل من الناس ـ كارثة نووية تتاخم حدود فناء العالم.

وبالمقارنة مع الأعوام المائة المدمرة بين عامي ١٣٥٠ و١٤٥٠، فإن كوارث مثل حروب الدين وجميع الحروب الخارجية (أكانت في عهد لويس الرابع عشر أم في عهد

نابوليون أم في زمن الامبـراطورية الثانية) لابد من اعتبارها ثانـوية الأهمية. ولو أضفت إلى القائـمة كلاً من الحرب الـعالمية الأولى والـحرب العالميـة الثانية، فسـوف يحتج مؤرخون وكتاب سياسيـون كثيرون وسوف يتهمونني بالتجديـف وبارتكاب فعل فاضح. ويمكنني أن أفهـم السبب في ذلك. لكنني لن أتزحزح. ألا يرى كـثير جداً من الناس، بحكم الـعادة أو من جراء الكسـل، أن الحرب هي التي تحـدد الإيقاع الرئيسـي لحركة تاريخ العالم؟ إن جميع الحروب تؤدي إلى جراح وإلى تضحيات جسيمة بأرواح البشر. ومن المحزن أن هذا كان صحيحاً دائماً وأن الثمـن الذى يتعين دفعه قد تزايد بثبات مع اقترابنا من اللحظـة الحاضرة. لكن مثل هذه الجراح، بالرغم من جسامـتها، إنما تلتئم بمرور الزمن. فحرب الأعوام المائة، عندما انتـهت في نهاية المطاف، قد فتحت الباب أمام الإحيـاء الذي شهده "الـقرن السادس عـشر الطويـل" (١٤٥٠ ـ ١٦٥٠)، والذي سوف يعيد السكان إلى حجمهم السابق، داخل فرنسا وخارجها على حد سواء. ويجب أن نتذكر دائماً أنه إذا كان تقهقر الفـترة الممتدة من عام ١٣٥٠ إلى عام ١٤٥٠ قد مَثَّل هبوطاً إلى الجحيم، إلاَّ أن الحرب لم تكن حَفَّار القبر الوحيد. فإنجلترا لم تكن السبب الوحيد لـمتاعب فرنسـا: فقد ترافقت الـحرب، كما بينـت بالفعل، مع فـقدان أساسي للحيوية، ومع المجـاعة، ومع الانهيار والتقهقر الاقتصاديين، ثـم جاء الطاعون ليقصم ظهر البعير.

أمَّا حروب الدين فلم تؤد إلى مأساة مماثـلة: فهي، في المقام الأول، لم تدم مائة عام بل سـتة وثلاثين عـاماً فقط (١٥٦٢ ـ ١٥٩٨)، وحتى هـذه الأعوام لم تكن كـلها أعوام قتال مـتواصل. كما أن المـعارك لم تغط مجـمل البلد في أي وقـت واحد (أنظر الشكـل ١١ في المجـلد الأول). ثم إن الإسبـان (الذين تعـرضوا لاتهامـات زائدة عن الحد) لم يـلعبوا في تلـك المناسبة الـدور الشيطاني الـذي لعبه الإنجلـيز خلال حرب الأعوام المائة. وأخيراً، فإن الاقتصاد الفرنسي قد ظـل سليماً أو سليماً بدرجة معقولة، كما رصد ذلك فـرانك سپونر(١١٣) وهنري لاپيـير وأنا(١١٤) منذ وقت بـعيد، مع أن استنتاجاتنا لا يبدو أنها قد أثرت على الكتابة التاريخية. فهناك بعض الأساطير التي يثابر المؤرخون على تخليدها، بصرف النظر عن أي شيء. على أن الأب روچيه مول، وهو خبير في تاريخ السكان الأوروبيين، قد كـتب في كتابه الضخم الصادر في عام ١٩٥٤: "من الناحـية الديموجرافيـة، يبدو أن [حروب الدين] قـد سببت من الذعر مـا يفوق ما سببته من الضرر الفعلي"(١١٥).

وبالرغم من كل ذلك، فإنني لا أود التقليل من شأن أثر هذه الحروب بين الأشقاء والتي أعتبرها أنا شخصياً مرعبة. إذ يمكنني أن أتخيل تماماً الدمار والعذاب الناشئين عن الاستيلاء البروتستانتي على ليون في عام ١٥٦٢؛ أو عن "الجولة الفرنسية" البطولية التي قام بها كوليني، والتي مثلت "زحفاً يائساً" خلال الحرب الثالثة، بين أكتوبر/ تشرين الأول ١٥٦٩ وصيف عام ١٥٧٠ - "عدة آلاف قليلة من الرجال، يدفعون على طول الطرق خيولهم التي أنهكتها المعارك" ويمارسون النهب "حتى يتسنى لهم استرداد قواهم"[116]. أو، أخيراً، عن الغارتين اللتين شنهما الكسندر فارنيس من هولنده، مرغماً هنري الرابع على رفع حصاري باريس (١٥٩٠) وروان (١٥٩٢). لكن المحك الذي أحيل إليه دائماً هو ما يلي: إن السكان الفرنسيين **لا** يبدو أنهم قد انخفضوا خلال الأعوام الثلاثين التي استغرقتها هذه الحروب الدينية. ومن ثم فإنها لا تشبه حرب الأعوام الثلاثين "الحقيقية" (١٦١٨ - ١٦٤٨) والتي سوف تخلف آثاراً دموية جسيمة في ألمانيا.

وتنطبق هذه الاعتبارات نفسها على حروب لويس الرابع عشر، والتي خيضت بعيداً عن الأرض الفرنسية، أو على حروب الثورة [الفرنسية الكبرى] والحروب النابوليونية: فقد عاد السكان الفرنسيون إلى تعويض خسائرهم وأخذوا يتزايدون من جديد، بل إن هذا كان صحيحاً أيضاً بعد الحرب العالمية الأولى، بالرغم من أنها كانت قاتلة بالنسبة لفرنسا، حيث مات ما بين ١,٥٠٠,٠٠٠ و ١,٨٠٠,٠٠٠ فرنسي، كلهم من الشبان القادرين على العمل؛ كما كان صحيحاً أيضاً بعد الحرب العالمية الثانية، والتي تذهب التقديرات إلى أن نحو ٦٠٠,٠٠٠ فرنسي قد ماتوا فيها. وفي عام ١٩١١، كان عدد سكان فرنسا ٣٩,٦ مليون نسمة؛ وفي عام ١٩٢١، كان هناك ٣٩,٢ مليون نسمة (لكنهم يشملون ساعتها ١,٧١٠,٠٠٠ نسمة من الألزاس واللورين)؛ وفي عام ١٩٣٦، كان هناك ٤١,٩ مليون نسمة، وفي عام ١٩٤٦: ٤٠,٥ مليون؛ وفي عام ١٩٨٣: ٥٤,٦ مليون.

وأمام هذه الأرقام، إن كان بوسع القارىء أن ينحي للحظة ردود الفعل العاطفية، بالرغم من أن ذلك قد يكون صعباً، فسوف يلاحظ أنه بشكل مستقل عن الحروب أو حوادث ومآسي التاريخ الأخرى، فإن قوى عميقة الجذور كانت فاعلة منذ القرن الخامس عشر، وهي قوى كانت تحفز وتزيد وتحفظ سكان فرنسا، بل وسكان كل بلد آخر، وتتيح لهم، كتيار لا يكف عن الجريان، إمكانية اجتياز المحن والملمات

والكوارث. وقد لاحظ پيير جوبيه محقاً: "إن «السر» الحقيقي للسكان قد يتمثل في قدرتهم على النجاة"(١١٧). وهذه هي المشكلة التي أود معالجتها هنا.

مراحل متعاقبة

مع قدر من التبسيط، يمكننا أن نميز أربع مراحل للنمو. فبين عامي ١٤٥٠ و ١٦٠٠، عاد السكان الفرنسيون بهذه الدرجة أو تلك إلى المستوى الذي كانوا عليه قبل عام ١٣٥٠ (ربما بدرجة أقل وليس بدرجة أكبر)؛ وبين عامي ١٦٠٠ و ١٧٥٠، ربما يكون قد حدث تقدم طفيف ما، لكن الركود كان هو المهيمن؛ وبين عامي ١٧٥٠ و ١٨٥٠، حدث في البداية صعود ملحوظ، أخذ يفقد حيويته تدريجياً، إلاّ أنه لم يتوقف بالفعل قط. وبعد عام ١٨٥٠، استمر الصعود لكن المشكلات أخذت تتغير، كنتيجة للتطورات في التقدم الطبي والصحة العامة، ومنع الحمل والهجرة الأجنبية. وسوف ننظر في هذه الفترة الأخيرة على حدة، ونكتفي هنا بالنظر أولاً في الفترات الثلاث الأسبق.

أ) من ١٤٥٠ إلى ١٥٥٠-١٦٠٠

بدأت الزيادة الأولى، جد الملحوظة، في السكان الفرنسيين، قبل "الاكتشافات الكبرى": رحلة كولومبوس في عام ١٤٩٢، رحلة فاسكو دا جاما في عام ١٤٩٨. وبالمثل، كان التزايد، في بلدان البحر المتوسط، جارياً على قدم وساق قبل وقت طويل من ثأر الملكوت المسيحي المتأخر من الأتراك عبر الانتصار الحاسم في معركة ليبانت، في عام ١٥٧١. كما لا يمكننا أن نحدد كعامل ممكن شجع على نمو السكان الدورَ الذي لعبته أوروبا الشرقية، عبر شحنات القمح والجاودار المتجهة إلى الغرب من البلطيق، حيث إن أمستردام لم تصبح مركزاً رئيسياً لإعادة توزيع الحبوب إلاّ في أربعينيات القرن السادس عشر. والحال أن الغرب سوف يكون بحاجة إلى مواد غذائية من الخارج بعد التزايد الحاد في سكانه.

لابد لاستنتاجنا إذاً من أن يتمثل في أن فرنسا، وأوروبا الغربية ككل (والتي جربت النمو نفسه) قد وجدتا كلاً من الأسباب والسبل التي أدت إلى إحيائهما في داخلهما: لقد كان هذا الإحياء **من الداخل**.

فهل يعني ذلك إذاً أن السكان الفرنسيين، بعد أن انخفضوا إلى أدنى عدد لهم، قد

أخذوا يتزايدون من جديد ببساطة من تلقاء أنفسهم، تشجعهم على ذلك عودة السلم؟ لقد كان الانخفاض حاداً، وكانت آثاره مدمرة. وكان هناك نقص جد حاد في القوى العاملة بحيث إن الأشجار والأشجار الخفيضة الكثيفة قد عادت إلى غزو مساحات كبيرة من أراضٍ زراعية كانت منتجة في وقت من الأوقات. وكان الخراب منتشراً إلى هذا الحد أو ذاك. وفي نورماندي، أعلن نائب في المجلس العام للفئات في عام ١٤٨٤ أنه "من ديب إلى رووان. . . لا يوجد أثر لطريق؛ ولا يرى المرء مزارع ولا بشر، باستثناء عدد قليل من قطاع الطرق الذين ما زالوا يعيشون فساداً في الريف"(١١٨). وبين الواز والمارن (حيث كانت الحرب قاسية بشكل خاص)، كانت قرى وقرى صغيرة ومزارع بأكملها قد تلاشت من الوجود. وإعادة الإعمار تتطلب مالاً ومزيداً من المال، ورجالاً ومزيداً من الرجال، ووقتاً ومزيداً من الوقت ـ مائة عام أحياناً. وفي أغلب الأحيان، كانت الأرض غير المزروعة تستصلح من جانب السيد، المالك الأصلي لها، إلاً أنه قد لا يعثر بسهولة على مستأجرين جدد لإصلاح الأمور، لترميم الدور وبناياتها الخارجية ولإعادة زراعة الحقول. ولذا فقد يضطر إلى عرض إيجارات مغرية طويلة الأجل على الفلاحين أو على جماعات من الفلاحين.

ويمكن أن نرى السيناريو نفسه في لانجدوك التي كانت تشكو من انحدار عدد السكان: إن الـ **garrigues** قد أخذت تزحف من جديد على كثير من السفوح الحجرية. وقد تكاثرت الحيوانات البرية: "إن دببة السيفين البنّية قد عادت إلى الاستقرار بأعداد غفيرة على سفوح الآيجوال والايسبيرو؛ أمّا قطعان الأيائل فقد راحت تعدو على الـ **garrigues** وعبر غابات البلوط الحي؛ وكان الكوس مليئاً بالذئاب؛ وأصبحت طيور الحجل منتشرة انتشار الدجاج؛ وحتى بداية القرن السادس عشر، كان الفلاح حراً في اصطياد كل ما يريد، لأن كمية الطرائد كان يبدو أنها لا تنفد"(١١٩). وقد جرى استصلاح الأرض ببطء عبر كدح عائلات عديدة، تجمعت تحت سلطة العائلة الأقدم، "حيث كان يجري تقاسم الموقد وقدر الطهو: فالجميع يأكلون خبزاً واحداً ويشربون نبيذاً واحداً"(١٢٠). ثم حدثت المعجزة: لقد بدأ السكان في التزايد من جديد، قبل انقضاء وقت طويل، وبمعدل أثار عجب المعاصرين. وكان يقال في لانجدوك نحو منتصف القرن السادس عشر إن "الناس يتكاثرون تكاثر الفئران في الأجران"(١٢١).

وقد حدث الشيء نفسه في جميع أرجاء فرنسا. فقرب بار ـ سور ـ سين بين عامي

١٤٧٧ و١٥٦٠، "تراجعت أشجار العليق والأشجار الشائكة وأشجار الأجمة أمام زحف شفرة المحراث والمعول"؛ ونمت حقول القمح وحقول الكروم والمروج على الأرض المستصلحة من جديد(١٢٢). ورمزت البنايات والمحاصيل على حد سواء إلى عودة السياق المؤاتي. وجرى ترميم الكنائس وبُنيت كنائس جديدة. وفي بار ـ سور ـ سين، تم الانتهاء من بناء كنيسة سانت ايتيان في عام ١٥٦٠، وكان هذا البناء قد بدأ في عام ١٥٠٥. أما الكنيسة الأقل ضخامة قرب ريملي فقد بنيت بين عامي ١٥٢٧ و١٥٤٩(١٢٣). وعلى مسافة أبعد، في سانت آنطونان في الكوس، حدثت نهضة معمارية حقيقية في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر(١٢٤). وكانت الكنائس والبنايات الجديدة تنمو بالسرعة التي ينمو بها الناس. ونحو عام ١٥٧٢، رأى برانتوم أن فرنسا "مليئة كالبيضة"(١٢٥). وكانت موجة بشرية عالية آخذة في التكشف عبر أوروبا كلها، في إنجلترا وإيطاليا وإسبانيا. وفي ألمانيا، ذكر الإنساني النمساوي آفينتينوس أن الناس قد أصبحوا موفوري العدد بحيث إنهم يبدون وكأنهم "ينمون على الأشجار"(١٢٦). بل إن الامبراطورية التركية في ظل العثمانلية كانت تمر بتوسع ديموجرافي عام(١٢٧).

وإذا عدنا إلى فرنسا، فسوف نجد أن الصعود كان أكثر وضوحاً في الأعوام الأولى؛ ففيما بعد سوف يصبح بطيئاً أحياناً بل وسوف يتوقف تماماً. وإذا ما استعرنا عبارة ريشار جاسكون، فإن "ربيع القرن السادس عشر"، قد أخذ يهدأ نحو عام ١٥٢٠. فمنذ ذلك الحين فصاعداً ـ هل كان هناك بالفعل عدد كثير جداً من الناس؟ ـ بدأت الأسعار ترتفع، وبما أن الأجور لم تحذ حذوها، فإن المستويات المعيشية قد أخذت في التدهور. وإنها لمجرد مفارقة ظاهرية أنه خلال الانحدار العظيم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهما زمن انخفاض في السكان وانخفاض في أسعار المنتجات الزراعية، عندما أصبحت مساحات شاسعة من الأرض متروكة للماشية ترعى فيها، كانت هناك وفرة من الطعام لكل من الفلاح وساكن المدينة(١٢٨). أمّا الآن، فسوف يكون الخبز أقل والنبيذ أقل، وبشكل خاص، سوف تكون اللحوم أقل عند تناول الوجبات؛ وفي منتصف القرن، بين عامي ١٥٥٠ و١٥٦٠، كان هناك ركود دام عشر سنوات، وهو ركود يتطابق في خطوطه العريضة مع العهد المظلم الذي شهد حكم هنري الثاني (١٥٤٧ ـ ١٥٥٩).

وفي لحظة ما، من المستحيل تحديدها بدقة، كان الإحياء الديموجرافي قد أصبح

ناجزاً من الناحية العملية. إذ كـان في فرنسا نحو أعوام ١٥٥٠ ـ ١٥٧٠ عدد من الناس مساوٍ **بشكل تقريبي** للعدد الذي كان موجوداً قبل ذلك بقرنين. وقد وصف پيير شوني ذلك بأنه تعويض، استرداد، عودة إلى توازن سابق. وليس هذا مجرد تعبير بلاغي، بل هو مدخل إلى تفسـير. وقول ذلك إنما يعني أن العودة إلى تـوازن سابق قد حدثت من تلقاء نـفسها، أنها كـانت نتيجة دافع عـفوي ونشيط، أحبطـته قلاقل ومصائـب العصر السابق.

ولكن ما هو هذا الدافع الحي النشيط؟ ذلك هـو السؤال الحقيقي. فليس من المهم كثيراً أن نعرف ما إذا كان قد تم الوصول إلى المستوى السكاني السابق أم لا، ولا ما إذا كان ذلك قد تـم بشكل ناجز أم غير نـاجز، إن كان قد حدث بالفـعل، ولا ما إذا كان ذلك قد تم فـي عام ١٥٥٠ أم في عام ١٦٠٠ أم بعد ذلـك. فبما أننا لا نـحوز أرقاماً دقيقة عن السكان في هذه التواريخ، فلابـد للمناقشة من أن تظل مفتوحة(١٢٩). لكـن القوة المـحركة الكامنة وراء الـزيادة هي المهمة، فقـد حدثت زيادة بالتأكـيد. وأمكن، بشكل مـا، علاج جرح ١٣٥٠ ـ ١٤٥٠ المتقيح؛ وصـمدت البشرية لتحـدي التاريخ. ربما لأن الكـوارث (الطاعون والمجـاعة) قد تراخت وتراجـعت؛ ربما بسبـب اكتشاف موارد غذاء جديدة (إمدادات لا تنفد من السمك من نـيوفاوندلاند، حبوب من البلطيق، انتشار الـحنطة السوداء)؛ ربمـا بسبب الصحة العـامة الجيدة للاقتـصاد (يرى إيرل ج. هاملتون أن جـميع الجراح قد التئمت بـسرعة في القرن السادس عشـر، وجي بوا يقول الشيء نـفسه)(١٣٠). وأخيراً، ربما يكون الاقتصاد قـد وجد عوناً عبر وصول المعادن الثمينة من أمريكا، مما أعطى حافزاً جـديداً لمستويات الاقتصاد الأعلى، مع أصداء في كل مجال آخر بالتأكيد.

ب) من ١٦٠٠ إلى ١٧٠٠

بعـد عام ١٦٠٠، كانت زيـادة سكان فرنـسا محـدودة وقد أخذت تصـبح بطيـئة فالحجم الإجمالي سوف يظل لقرن ونصف عنـد مستوى يرتفع ارتفاعاً قليلاً، إن ارتفع على الإطلاق. وفي الوقت نـفسه، أخذ التقدم الاقتصادي يصبح بطـيئاً هو الآخر؛ فلم تحدث تـحولات تكنـولوچية مـهمة، بيـنما حدثـت سلسلـة من الأزمات: إن خمـسة التقـاءات رئيسية لـلمجاعة ولـلوباء قد أثـرت على الممـلكة كلهـا في أعوام ١٦٣٠ ـ ١٦٣١؛ و١٦٤٠ ـ ١٦٥٢؛ و١٦٦١ ـ ١٦٦٢؛ و١٦٩٣ ـ ١٦٩٤؛ و١٧٠٩ ـ

١٧١٠(١٣١). وقد دخلت الأزمة الأخيرة التاريخ باعتبارها مأساوية بشكل خاص، لكن لا شيء يقول إن الأزمة السابقة التي حدثت في عامي ١٦٩٣ و١٦٩٤ لم تكن أكثر حدة منها بكثير. والحال أن هذه الأزمات قد أثرت بشكل عميق على أرقام السكان.

ثم إ أزمة أعوام ١٦٤٠ ـ ١٦٥٢، والتي سبقت حرب الفروند (١٦٤٨ ـ ١٦٥٣) واستمرت خلال تلك الحرب الأهلية العنيفة، قد أسهمت إسهاماً غير بسيط في كوارثها. وبالنسبة للسكان الفرنسيين ككل، فإنني أعتقد أن هذه السنوات كانت تجربة أكثر قسوة بكثير من تجربة حروب الدين، التي خيضت في عصر ازدهار اقتصادي؛ فالفروند، خلافاً لذلك، قد حدثت في زمن شدة اقتصادية. وكانت المدن مرغمة على فتح أبوابها أمام الفلاحين الفارين من الجنود النهابين الباحثين عن الغذاء؛ وفي رانس، نجد أن الفلاحين المحليين الذين "لجأوا إلى المدينة"، ومعهم ماشيتهم، كانوا يخرجون كل ليلة عند إغلاق الأبواب، ولا يعودون إلاَّ في الفجر "عند فتح الأبواب"، مستفيدين من هبوط الظلام حتى يتسللوا إلى مزارعهم بحثاً عن علف للحيوانات(١٣٢). وينطبق الشيء نفسه على كوربي وسان كينتان وپيرون... لقد كانت المدن مثقلة بعبء سكان ليسوا محل ترحيب وكان الريف خرباً ومُهْمَلاً، أما المحاصيل فقد كان مصيرها الضياع.

وقد عانى الجميع خلال تلك الأوقات القاسية ـ البالغون والأطفال، بل والأطفال الذين لم يولدوا (لأن الجوع يمكن أن يؤثر على الدورات الحيضية للنساء، كما تأكد ذلك في قرننا هذا، خلال حصار لينينجراد مثلاً). وقد تحدث إيمانويل لوروا لاديري عن دورة حياة مالثوسية. كما كانت وفيات الأطفال جد منتشرة. وبحسب تعبير پيير جوبير: "كان وصول طفل إلى سن الرشد يتطلب طفلين"(١٣٣). وكان الموت في قلب الحياة اليومية، مثلما أن الكنيسة في وسط القرية(١٣٤). فهل كان متوسط العمر آنذاك ثلاثين سنة؟

وإذا كانت الأنماط تكرر نفسها، فقد يتوقع المرء العثور على نوع معين من الانهيار أو الكارثة نحو منتصف القرن السابع عشر، يماثل انهيار وكارثة عام ١٣٥٠: فالمقدمات الواحدة لابد لها من أن تؤدي إلى نتائج واحدة. لكن السيرورة لم تكن مجرد استنساخ. إذ لم يحدث انهيار. فالصورة **العامة** (التي تتجاوز التباينات الإقليمية التي كانت جد ملحوظة أحياناً، كما هي الحال مثلاً في التباين بين شربور والألزاس أو پروفانس)(١٣٥)، كانت صورة "استقرار غير عادي، مع بعض الارتفاعات

والانخفاضات»، الملحوظة تماماً أحياناً، وإن كانت تتوازن فيما بينها في نهاية الأمر(١٣٦). ويبدو أن الميزان قد استقر عند حد أقصى ديموجرافي معين؛ ومتى تم تجاوزه (لأن معدلات المواليد ظلت مرتفعة) تحدث أزمة و«يموت مئات الآلاف من الفقراء». وبعد هذا، يتأكد من جديد فائض إجمالي للمواليد يتجاوز الوفيات. وفي نهاية الأمر يظل متوسط عدد السكان مستقراً نسبياً، ويصمد على نحو جيد في وجه الطاعون أو المجاعة أو الحرب الأهلية أو، فيما بعد، في وجه حرب الخلافة الإسبانية الطويلة (والتي لم تكن آثارها في نظري كارثية)، ناهيك عن الخروج البروتستانتي (والذي شمل ما بين مائتي ألف وثلاث آلاف نسمة) بعد الإلغاء الكارثي لمرسوم نانت في عام ١٦٨٥.

فلماذا حدث مثل هذا الاستقرار النسبي؟ لقد حدث لعدد من الأسباب المجتمعة التي تباينت من إقليم إلى آخر، ولو لمجرد الانتشار غير المنتظم للمحاصيل الجديدة المجلوبة من العالم الجديد. فالذرة والبطاطس لم يجر تبنيهما بالكامل إلاً في القرن الثامن عشر وفي بعض الأماكن في القرن التاسع عشر. لكن بعض الأقاليم رحبت بهما قبل أقاليم أخرى. وقد تبنى الجنوب ـ الغربي زراعة الذرة منذ وقت مبكر: فنحو عام ١٦٤٠، كان سعرها يتحدد في أسواق تولوز وكاسلنوداري(١٣٧)؛ وبحلول أواخر القرن كانت قد امتدت إلى البيارن بل وكانت «تحتل مكانة ممتازة في نظامٍ محصولي جد كثيف»(١٣٨). وكانت «النبات الذي يأكله الناس العاديون». وكان الشيء نفسه صحيحاً في كومينيج، حيث كانت الذرة غذاء الأيدي العاملة الزراعية وكانت في الوقت نفسه محرك ثورة في تربية الأوز والخنازير.

والحال أن الدور الذي لعبته الذرة في الجنوب الغربي قد كفلته الحنطة السوداء في بريتانيا حيث فرضت نفسها كغذاء للفقراء. ولا شك أن هذا هو السبب في أن بريتانيا قد تمكنت من تصدير الحبوب طوال القرن السابع عشر(١٣٩). أمَّا فرنسا الشرقية، خلافاً لذلك، فلم تتوفر غير مساحات قليلة لزراعة الحنطة السوداء، لكن البطاطس هيمنت فيها. وفي دوفينيه والألزاس بحلول عام ١٦٦٠، وفي اللورين بحلول عام ١٦٨٠، بدأت زراعة البطاطس في الحقول، بعد أن كانت شائعة بالفعل بين الخضروات في البساتين الملحقة بالبيوت(١٤٠). وبحلول نهاية القرن السابع عشر، كانت زراعة البطاطس في الألزاس قد انتشرت بما يكفي لأن يدور حديث عن إدراجها في العشور. وفي القرن التالي، بعد نحو ١٧٤٠ ـ ١٧٥٠ وقبل بقية فرنسا بخمسين سنة، سنجد أن

هذا "الخبز الجاهز"، كما كان يُسمى، سوف يحل محل نباتات الحبوب في الوجبات الألزاسية، ولكن دون أن يؤدي ذلك إلى اختزال انتاج الحبوب. والحال أن البطاطس، التي لا تحتاج إلاً إلى قليل من السماد، قد احتلت مكانة الأرض المراحة في الدورة الزراعية. ويرى إيتيان چوييار أن "هذا التبني الواسع للبطاطس [الذي سرعان ما سوف يمتد إلى بقية فرنسا] إنما يرمز إلى انتهاء حالات النقص الدورية في الغذاء"(١٤١).

ويكمن سبب آخر وراء صحة فرنسا الجيدة نسبياً (وصحة أوروبا ككل) في شحن الفضة من العالم الجديد. وقد اعتاد المؤرخون تصور أن هذا التدفق قد توقف، أو انحسر انحساراً كبيراً على أية حال، بعد عام ١٦٠٠ ـ وهذا هو الاستنتاج الذي توصلت إليه دراسة ايرل ج. هاملتون الرائدة(١٤٢). على أن الأبحاث التالية، والتي قام بها پيير وهيجيت شيني، قد زحزحت هذا التاريخ إلى ١٦١٠(١٤٣). وفي وقت أحدث أيضاً، قرر ميشيل مورينو، مستخدماً شواهد من صحف هولندية، أن هذا التاريخ الحاسم ربما يرجع إلى عام ١٦٥٠(١٤٤). وهكذا فقد كان هناك عصر وفرة طويل، وانقطاع قصير نسبياً، لأن النشاط في المناجم في العالم الجديد قد تجدد في ثمانينيات القرن السابع عشر، ومن ثم فإنه إذا كان نقص الفضة قد ترك أثراً ما، فإن ذلك لم يدم إلاً لنحو ثلاثين سنة.

وإذا ما أخذنا هذين التاريخين (١٦٥٠ ـ ١٦٨٠) في اعتبارنا كفاصل ممكن، فمن المغري تقسيم فترتنا إلى فترتين، على جانبي هذه الأعوام الثلاثين: أولاً نصف قرن، ١٦٠٠ ـ ١٦٥٠، عندما كانت الحياة الاقتصادية صامدة على الأقل، إن لم تكن قد حققت ازدهاراً بشكل محدد، ثم مائة سنة أقل مؤاتاة، ١٦٥٠ ـ ١٧٥٠، تتجاوز من حيث الأمد عهد لويس الرابع عشر الشخصي (١٦٦١ ـ ١٧١٥).

ومن المحتمل أن أوائل القرن السابع عشر لم تكن عصر ذلك الانحدار العميق الذي غالباً ما دار الحديث عنه. وإلاً فكيف نفسر لغزاً تطرحه الحالة الفرنسية بالتحديد: أن ريشليو قد قام، على أثر وصوله لثاني ولآخر مرة إلى السلطة في عام ١٦٢٤، بزيادة الضرائب في سائر أرجاء فرنسا، مضاعفاً إياها مرتين بل وثلاث مرات؟ ما كان يمكن العمل على زيادة الضغط الضريبي بهذه الدرجة من الشدة إلاً إذا كان الناتج القومي (أي عدد دافعي الضرائب ومجمل دخولهم) قد أخذ يتزايد أو ظل على الأقل ثابتاً.

وعبر سائر أرجاء فرنسا، إسودّ الأفق خلال حرب الفروند (١٦٤٨ ـ ١٦٥٣). فقد تقلبت الأسعار بشكل واسع. وقد أوضح پيير جوبير الطابع المسرف لما يسمى بـ "أزمة

إرتقاء العرش" بين أعوام ١٦٥٦ ـ ١٦٥٧ و١٦٦٧ ـ ١٦٦٨، بما رافقها من تبدلات حادة(١٤٥). لكن هذه الحركات غير المنتظمة قد أدت إلى شيء يشبه ما تؤدي إليه الدراما المتكررة لمواسم الحصاد الرديئة: لقد انسحب الفلاح ببساطة إلى قوقعته كالحلزون (صورة فيتولد كولا الأثيرة)(١٤٦) ثم خرج منها عندما تحسنت الأمور (أو بدا أنها تتحسن). والواقع أن الأسعار كانت تنحدر بوجه عام، ولكن هل تعد المرحلة B مضرة دائماً بالمستويات المعيشية لرقيقي الحال؟ إذا كانت تقديرات فرانك سپونر صحيحة، فإن الدخل القومي الإجمالي قد ظل ثابتاً عند مستوى واحد، بين ١,٢٠٠ و١,٥٠٠ **livres** بين عامي ١٧٠١ و١٧٦٠(١٢٧). وكان عدد السكان نحو عام ١٧٢٠ نحو ٢٠ مليون نسمة: فوق المستوى الذي اعتبره كارل يوليوس بيلوك حداً أدنى لقوة عظمى في الماضي: ١٧ مليوناً(١٤٨).

ج) من ١٧٥٠ إلى ١٨٥٠

لدينا عن هذه الأعوام المائة الحافلة بالأحداث، والتي اخترقتها الأحداث العنيفة للثورة وللامبراطورية الأولى (١٧٩٢ ـ ١٨١٥) في المنتصف، معلومات تفوق في دقتها ما لدينا من معلومات عن العصور الأسبق، وتتحسن نوعية المعلومات أكثر كلما اقتربنا أكثر من الحاضر. كما أن لدينا مرشداً ممتازاً(١٤٩) إلى المشكلات الديموجرافية وعدداً من دراسات حالات ممتازة(١٥٠).

ولسنا بحاجة إلى الدخول في كثير من التفاصيل هنا (خاصة في المناقشات التي تثيرها بشكل مشروع نوعية الوثائق وتفسيرها) كما أننا لسنا بحاجة إلى أن نميز بشكل جد دقيق بين الفترات: أولاً النمو السكاني جد السريع من عام ١٧٤٣ إلى عام ١٧٧٠؛ ثم تفوق المواليد الملحوظ على الوفيات من عام ١٧٧٠ إلى عام ١٧٧٨؛ ثم عودة إلى مناخ أزمة من عام ١٧٧٩ إلى عام ١٧٨٧ (مع أن هذه كانت أزمات طفيفة ومستترة بالمقارنة مع القرن السابع عشر)؛ ثم في نهاية المطاف، بعد فاصلي الثورة والامبراطورية (وهما زمن زيادة سكانية، ولو على مجرد نطاق متواضع)، فترة نمو متواصل حتى عام ١٨٥٠. والحق إن السكان الفرنسيين قد تزايدوا بسرعة أقل من سرعة تزايد سكان بقية أوروبا: بين عامي ١٨٠١ و١٨٥١، كانت هناك زيادة بنسبة ٣٠ في المائة في فرنسا، في مقابل نسبة ٥٠ في المائة في أوروبا ككل و١٠٠ في المائة في بريطانيا.

ومرة أخرى، نجد اختلافات إقليمية ملحوظة، إلاّ أن بوسعنا بوجه عام أن نفترض حالة صحية للسكان الفرنسيين ككل: نحو ٢٦,٣ مليون في عام ١٧٨٩(١٥١)؛ ٢٧,٣ مليون في عام ١٨٠١؛ ٢٩,١ في عام ١٨٠٦؛ ٣٠,٥ في عام ١٨٢١؛ ٣١,٩ في عام ١٨٢٦؛ ٣٢,٦ في عام ١٨٣١؛ ٣٢,٥ في عام ١٨٣٦؛ ٣٤,٢ في عام ١٨٤١؛ ٣٥,٤ في عام ١٨٤٦ و٣٥,٨ في عام ١٨٥١. وهذا التقدم المتواصل (والذي لا يتراجع إلاّ مرة واحدة، بين عامي ١٨٣١ و١٨٣٦، بسبب وباء الكوليرا في عام ١٨٣٤) هو السمة الرئيسية للفترة.

لكنها سمة مثيرة للعجب. فما أكثر الأسباب التي تدعو إلى توقع انحدار عام. فهذه الفترة تغطي على أية حال الأزمة الأخيرة للنظام القديم؛ وحصادات ١٧٨٨ و١٧٨٩ الرديئة والتي لعبت دوراً في إنهاء ذلك النظام؛ ثم المتاعب الكثيرة التي حدثت منذ إعلان الحرب في عام ١٧٩٢ إلى عام ١٨١٥ ـ نزوح نحو ١٨٠,٠٠٠ إنسان، والخسائر في الحرب (١,٢٠٠,٠٠٠ بالإضافة إلى نحو ٤٠٠,٠٠٠ في حرب الفانديه الأهلية الرهيبة). وقد ترافق هذا كله مع "تغيرات في توزيع الثروة، وآفاق جديدة للحراك الاجتماعي، وتحول في المواقف، ومستحدثات قانونية ـ وكلها عوامل كانت لها أصداء ديموجرافية مهمة وسوف يمتد أمد تأثيرها" إلى ما بعد عام ١٨١٥(١٥٢).

لكن السكان الفرنسيين صمدوا أمام جميع هذه العقبات المتراكمة. كما أنهم سوف يخرجون سالمين من السنوات الصعبة لأزمنة عودة الملكية وملكية يوليو والجمهورية الثانية قصيرة العمر (١٨٤٨ ـ ١٨٥٢)، وهنا أيضاً، يمكننا أن نعرب عن العجب. لأن المؤرخين قد حددوا سنوات ١٨١٧ ـ ١٨٥١ على أنها الشطر الهابط لدورة كوندراتييفية، أي أن هذه النظم الثلاثة كانت مصحوبة بتدهور متواصل وسريع في الحياة الاقتصادية، بلغ ذروته في أزمة ١٨٤٧ ـ ١٨٤٨ الخطيرة، وهي مثال كلاسيكي لـ "أزمة نظام قديم"، أي أزمة ناجمة عن كارثة زراعية لكنها يمكن أن تستشري وتصيب الاقتصاد برمته(١٥٣). ومن المرجح أن هذه الأزمة كانت آخر أزمات المعيشة قديمة الطراز، وهي تشكل نقطة تحول. وسوف تحدث أزمات أخرى من نوع مختلف في أعوام تالية، في فرنسا أصبحت صناعية، حيث سوف يتعين على السكان أن يواجهوا من جديد العقبات والمصاعب المترتبة على مثل هذه الأزمات.

ويرى المؤرخون التقليديون أن من المستحيل اعتبار الأعوام المائة بين عامي ١٧٥٠

و ١٨٥٠ كتلة واحدة، وذلك بسبب كل من القطع السياسي الذي أحدثه انهيار النظام القديم والقطع الاقتصادي الذي أوجدته بدايات الثورة الصناعية. بينما يميل الديموجرافيون التاريخيون، خلافاً لذلك، إلى رؤية استمرارية معينة في مصائر السكان الفرنسيين، بين عهد لويس الخامس عشر وعهد الأمير - الرئيس لويس - نابوليون، نابوليون الثالث فيما بعد. ولو أصغينا إليهم، فقد نستنتج أن أواخر القرن الثامن عشر كانت تبدي بالفعل أمارات حداثة معينة، في حين أن أوائل القرن التاسع عشر كانت ما تزال تبدي آثار النظام القديم. وقد اعتاد المؤرخ أندريه ريمون القول في مناقشاتنا في زمن بعيد أن جيزو كان آخر رجال القرن الثامن عشر - وهو تعبير آخر عن الشيء نفسه. واعتقادي الخاص هو أن تاريخ السكان إنما يتجاوز بمعنى ما اعتبارات وروايات التاريخ المعتادة: فالأحداث التي نسجلها قد تلدغ السكان لكنها، في أسوأ الأحوال، لا تخلف غير جراح عرضية عابرة.

هل يوجد تفسير أو تفسيرات ممكنة للسيرورات الديموجرافية قبل عام ١٨٥٠؟

لابد من فهم تاريخ السكان الفرنسيين **في مجمله** عبر الفترة برمتها (١٤٥٠ - ١٩٥٠، وحتى الحاضر). وهو يواجهنا بمشكلة تاريخية واحدة، إذ لا شك هناك في الاتجاه العام: فبوجه عام، كانت تلك الفترة فترة توسع. ولكن لماذا؟ ما هي الأسباب، العامة والخاصة على حد سواء؟

بالإمكان تلخيصها من حيث الجوهر في كلمتين: المرض والغذاء. فمما له فائدة مهمة أن الطاعون قد اختفى من فرنسا بعد عام ١٧٢٠، وأن السكان كانوا قد أصبحوا أقدر على مقاومته بعد عام ١٤٥٠.

ومما له أهمية مماثلة الاختفاء البطيء ولكن المتواصل للجدري خلال القرن التاسع عشر؛ التحول الحاسم للطب؛ ومنذ نحو ١٨٥٠ على الأقل، تحسن العلاج في المستشفيات؛ وفي مرحلة تالية أبعد، بعد الحرب العالمية الثانية، المكاسب الضخمة التي وفرتها دولة الرعاية الاجتماعية - يجب النظر إلى هذه الأمور على أنها علامات ذات أهمية كبرى.

ولكن ألا يجب أن نتنبه بالمثل إلى التغيرات - المهمة جداً هي الأخرى - في الغذاء البشري؟ كما يقولون في ألمانيا: "الإنسان هو مأكله". لقد كان الغذاء الذي يأكله

الناس آخذاً في التحسن بشكل تدريجي. وكانت هذه السيرورة بطيئة، لكنها كانت حقيقية، وكانت تكمن وراء تقدم أو صون مستويات السكان. ومن المؤكد أن التقدم لم يكن سريعاً، لكن فرنسا شأنها في ذلك شأن أوروبا كانت بلداً زراعياً أساساً؛ والحال أن الحقول والمحاصيل والفوائض التي تملأ الأفواه إنما يصعب تحويلها بين عشية وضحاها. وقبل عام ١٢٠٠، كانت غلة الحبة المزروعة ثلاث حبات عند الحصاد؛ وقد ارتفعت إلى ٤,٣ بين عامي ١٣٠٠ و١٥٠٠؛ ثم إلى ٦,٣ بين عامي ١٥٠٠ و١٨٢٠. وهذه المتوسطات التي أخذتها من حسابات ب. هـ. سليشر فان باث جد المقنعة قد تبدو لنا جد منخفضة، لكنها على أية حال قد زادت بأكثر من الضعف خلال ثلاثمائة عام(١٥٤). وهي تشير إلى اتجاه أساسي لا شك أنه يفسر أموراً كثيرة. ويمكن أن نضيف إلى ذلك المساهمة غير المتوقعة ولكن الحيوية من العالم الجديد، والتي أشرنا إليها بالفعل، والتزايد في المواد الغذائية الواردة من خارج فرنسا: القمح من بلدان البحر المتوسط، والذي استمر وصوله إلى مارسيليا لسنوات كثيرة (في القرن التاسع عشر حل القمح الأوكراني محل الشحنات الواردة من إفريقيا الشمالية وشرقي البحر المتوسط)؛ القمح وخاصة الجاودار من البلطيق، منذ الجزء الأخير من القرن السادس عشر؛ أسماك بحر الشمال وخاصة أسماك نيوفاوندلاند؛ القمح وبراميل الدقيق من الولايات المتحدة منذ أواخر القرن الثامن عشر. وقد نتذكر أيضاً أن تكاليف المعيشة في فرنسا خلال زمن النظام القديم كانت على الأرجح أدنى مما في جاراتها الكبيرات، ومن ثم كانت الوفرة فيها أعلى(١٥٥).

وقد تمثلت محصلة كل هذه التحسنات في ارتفاع تدريجي في متوسط العمر، أي في كبر أعمار السكان. وقد حدد الديموجرافيون عام ١٧٥٠ باعتباره مستهل بداية هذا التحول الذي استمر بلا انقطاع حتى أيامنا. وقد أعرب بعض الناس عن القلق حيال هذا الأمر، كما لو أن الانتصار على الموت ليس الانجاز الرئيسي و، من نواح كثيرة، الأكثر مدعاة للسرور بين انجازات الحداثة. ويقال لنا مثلاً (ولكن هل هذا صحيح؟) إن السكان القادرين على العمل في فرنسا في المستقبل لن يكونوا جد غفيرين بما يكفي لتمويل معاشات المجموعات العمرية الأكبر سناً. لكن صناعة الغد لن تكون كصناعة اليوم. ونحن لا نعرف بشكل مؤكد أنه سوف يحدث هبوط في المجموعات العمرية القادرة علي العمل، في حين أن الحدود بين العمل والتقاعد لن تظل بالضرورة في الموقع الذي تخترقه الآن.

وأعتقد أن هناك اتجاهاً لافتراض أن أوروبا، التي قامت تاريخياً باستغلال الأجزاء الأفقر والأقل نمواً في العالم، كانت من ثم في موقع مميز؛ وأن أوروبا قد عاشت وتحركت واستمدت عظمتها من هذه المزايا والامتيازات. وهناك قدر من الحقيقة في هذا الكلام. لكن الحكم يجب أن يكون مرهفاً. فالتوسع الأوروبي الذي يبدأ مع الحملات الصليبية وامتد مع الاكتشافات الكبرى، لم يؤد بين عشية وضحاها إلى الاستغلال المنتظم والشامل لبقية العالم. وكانت الهجرة إلى خارج أوروبا على نطاق جد متواضع دائماً. وعلاوة على ذلك، لو كانت تقديرات پول بيروش صحيحة، وأنا أعتقد أنها صحيحة، فإن المستويات المعيشية في أوروبا حتى عام ١٨٠٠ لم تكن تقريباً أعلى مما في مناطق العالم الرئيسية الأخرى ـ كالصين مثلاً[١٥٦]. فمع انتصار الصناعة فقط أمكن لأوروبا أن تشهد ثورة نمو، وأن تضمن لنفسها مستقبلاً مميزاً. لكن الثورة الصناعية كانت نتاج تحول متأخر ومتعدد الجوانب للاقتصاد وللتكنولوچيا وللمجتمع وكذلك للزراعة التي كانت قد أصبحت أكثر فأكثر كفاءة ودراية ـ وهو تقدم رئيسي ما زال يتعين على كثير من بلدان العالم الثالث إنجازه لأنه يتوقف على الجهود والمعارف المتراكمة لأجيال من الفلاحين. وما أحاول قوله هو أن أوروبا، وفرنسا داخل أوروبا، كان عليهما أن تعثرا على قوى في داخلهما حتى تحققا تقدمهما الذي تطلب صبراً وكداً ومثابرة. وهذا يضفي شكلاً معنوياً أفضل قليلاً على تاريخهما: إنه تاريخ نجاح ناشيء جزئياً عن كفاح داخلي.

III

المشكلات الأحدث:
انتصارات الطب،
الحد من المواليد،
الهجرة الأجنبية

لا يجب أن تتخيلوا أننا عندما نصل إلى الفترة المعاصرة بالفعل، بعد عام ١٨٥٠، سوف تصبح مشكلاتنا أوضح أو أسهل على الحل مما في العصور السابقة. إن لدينا معلومات أوفر عشر أو مائة مرة. لكن ذلك يؤدي في معظم الأحيان إلى جعل استيعاب الوضع الحقيقي أكثر صعوبة بكثير.

بين عام ١٨٥٠ وثمانينيات القرن العشرين، تواصل تزايد سكان فرنسا وانتاجها وثروتها العامة وممتلكات المميزين كما ارتفعت المستويات المعيشية للفرنسيين العاديين. فكل عام يمر إنما يشهد المزيد من العربات والمزيد من الطرق والمزيد من السكك الحديدية والمزيد من المصاهر والمزيد من الحديد والصلب والمزيد من الأقمشة والمزيد من القطن والحرير، والمزيد من الطلاب في الجامعات والمزيد من الناس الذين يحيون في فرنسا. وقد حدث تحسن ضخم في المستويات المعيشية. وتواصل نمو كل من الدخل القومي ودخل الفرد. وحتى في أقصى أرجاء فرنسا(١٥٧)، واصلت أجور العاملين في الأحراج ومعدي الفحم النباتي وناشري ألواح الخشب الارتفاع، بالقيم الجارية للفرنك. وأنا لا أقول إن كل شيء يسير إلى الأفضل في أفضل العوالم الممكنة وأكثرها عدلاً: فحتى في باريس، غالباً ما كانت الجماهير في فقر عظيم. إلاّ أننا إذا نحينا جانباً المآسي والأزمات (والتي كانت لفرنسا منها حصة عظيمة)، فإن هذه الفترة كانت فترة تحسن ملحوظ.

ولا أعتقد أن من الضروري أن أقدم عرضاً مطوّلاً لهذا التقدم، ولا لمكانة فرنسا في صفوف قسم محظوظ من الجنس البشري، هو أوروبا الصناعية: فسوف يجد القارىء في مكان تال من هذا العمل الأشكال والجداول التي تقدم مختلف قياسات هذا التحسن الذي لا شك فيه. ومع استبعاد هذه المهمة المرهقة نوعاً ما، سوف يكون من الأيسر لي أن أركز على ثلاث مشكلات ـ أعتقد أنها أساسية ـ تجرنا إلى الواقع الحاضر الذي أتوق إلى الوصول إليه.

١ ـ ما هي بالضبط التحسينات المعجزة التـي، بفضل العلم الطبي والتقدم المشترك للاقتصاد وللمجتمع، أدت في مدى عمرنا إلى تـحويل الظروف البيولوچية المؤثرة على السكان الفرنسيين، جنباً إلى جنب شعوب محظوظة أخرى في العالم؟

٢ ـ ما هو الـدور الذي لعبـه في مجتـمعنا الانتـشار الشائـع الآن لممارسـات منع الحمل، والتي غالباً ما كانت محل شجب في الماضي؟

٣ ـ كيف ننظر إلى الدور المتزايد والمؤرِّق إلى حدٍ ما والذي تلعبه الهجرة الأجنبية في التكوين الحالي، والمستقبلي خاصة، للسكان الفرنسيين؟

ولكن قبل أن أستطرد، أود أن أوضح أمرين:

١ ـ في الصفحات التالية، لا أنوي أن أجعل التاريخ الذي ما يزال غير مؤكد والذي يتشكل تحت أعـيننا أساساً لأية **حلـول** للمشكلات التي تهمـنا. فأنا لست رجل سياسة ولا ممثل حزب ولا واعظ. ولـو كان القرار بيدي، فإنني أعرف أنـه سوف تكون هناك هوة عميـقة بين **ما يجب عمله وما تسـمح لي الظروف بعمله** (وهو لا شيء تقـريباً في معظم الحالات). وأخشى أن فرنسا، لسوء الحـظ، قد أصبح عليها أن تتحمل قدرها، بدلاً من أن تختاره.

٢ ـ يجب أن نحذر مما يقوله لنا **ضميرنا**، لأنه طرف معني في المناقشة. ويمكن رصد الحاضر علمياً. إلاَّ أنه بسببنا نحن، يميل الحاضر **المـوضوعـي** إلى مراوغـتنا والإفلات منا، خاصـة وأن "العلوم" الاجتماعيـة ما تزال غير ناجزة ومن الـمحتمل أن تظل كذلك لزمن طويل قادم.

وهكذا، فكيف يمكن للمرء إبقاء المنـظور الأخلاقي خارج المناقشة؟ من المحتمل أن يتعدى، بشكل عفوي وبشكل منطقي، على حقل الملاحظة نفسه. وفي الرياضيات، لا تتدخل الأخـلاق. وفي الفيزياء، لا يـوجد غير عدد قلـيل من مناطق الـخطر ـ وإن كانـت منـاطق جـد خطرة. وفي البـيولوچيا، تحتج الأخلاق دائـماً وسوف تواصل الاحتجاج. أمَّا في العلوم الاجتماعيـة، فالأمور أسوأ بكثير: إن صوت الأخلاق أعلى، خاصة إذا كـان المرء غير حـذر بما يكـفي وانكب علـى تناول الحاضـر أو المستـقبل القريب. أما تاريـخ الماضي البعيد فهو فـي مأمن بدرجة معقولة. لكـن تاريخ اليوم أو الغـد هو شيء يعـتقد كل إنسـان أن لديه مـا يمكـنه قوله عـنه. وهكذا فـإن الأخلاق ومنظوراتـنا الأخلاقية تترصـدنا. ولن يكون بوسعي أن أبـقيها خارج المنـاقشة، إلاَّ أنه سوف يتعين عليَّ بذل قصارى جهدي للسيطرة عليها.

من المؤكد أن تاريخ الطب هو أكثر التواريخ فتنة. لكنه أيضاً أكثرها تعقيداً وتشابكاً وأصعبها على الوصف. والأرجح أن ذلك إنما يرجع، كما ذكرت كثيراً، إلى أنه لا يمكن أن يوجد شيء كالتاريخ الخاص أو الجزئي - أكان تاريخاً للطب أم لسواه - دون أن يترك أثراً على مجمل فضاء التاريخ العام.

ويعتقد أطباء كثيرون اليوم أنه لا معنى، ولا فائدة عملية تُرجى من دراسة طب الأمس. وهم يقولون إنه لا جدوى من النظر إلى ما وراء عام ١٩٤٥، إن كانت هناك أية جدوى أصلاً من النظر إلى الوراء. على أن اكتشاف البنسلين، والذي كان يحوم ضمن مجال الوصول إليه لعدة عقود، قد توصل إليه الكسندر فليمنج في عام ١٩٢٩؛ أما الهيبارين، وهو مضاد طبيعي لتخثر الدم "أتاح إمكانية تنمية استكشاف وعلاج أمراض القلب والأوعية الدموية، فقد اكتشف في السويد" خلال الحرب الأخيرة(١٥٨). لكن هذه التطورات تنتمي، والحق يقال، إلى التاريخ الأحدث؛ وهناك هوة تتزايد اتساعاً أبداً بين طب اليوم وطب الأمس.

وأثناء إعدادي لمحاضرات ألقيتها في الماضي في الكوليج دو فرانس، تزايد اهتمامي بعمل آمبرواز پاريه (نحو ١٥٠٩ - ١٥٩٠)؛ وكنت قد افترضت أنه سوف تكون هناك استمرارية معينة بين الأدوات الجراحية المستخدمة في القرن السادس عشر والأدوات الجراحية المستخدمة اليوم. وربما بدا الأمر كذلك، إلا أنه حدثت تغيرات حتى في أسلوب استخدام أدوات تبدو متماثلة، كالمشرط العادي، كما أشار إلى ذلك چان - شارل سورنيا، وهو جراح ومؤرخ طبي واسع الدراية في آن واحد: "إن أبسط بادرة جراحية، كشق الجلد مثلاً، لا تُؤَدَّى اليوم بالشكل الذي كانت تُؤَدَّى به في زمن هيبّوقراط: فمشرط الجراح لم يعد يتميز بالحد نفسه ولا بالسن نفسه ولا بالمقبض نفسه. وجراح [اليوم] يحوز معرفة أوفر عن التشريح ويتحكم في عمق الشق، حتى يتجنب التنزيف غير الضروري؛ وهو يراقب كل انزلاق للمشرط. ومن ثم فإنه لا يمسك الأداة بالأسلوب نفسه الذي كان يمسكها به أبو القاسم أو آمبرواز پاريه أو حتى فارابوف، على الأرجح، في القرن الماضي. فالمعصم يتخذ وضعاً مختلفاً وهو ما يؤدي أيضاً إلى اختلاف وضع الساعد والكتف بل والجسم كله"(١٥٩). أمّا فيما يتعلق بالأدوات الحديثة المستخدمة في الجراحة المتقدمة والجراحة الدقيقة فهي محل تحسين

متواصل وقد وصلت إلى درجة غير مسبوقة من الدقة والحذق.

ومن الواضح بالمثل أن تاريخ الطب، وهو تيار لا ينتهي من الأفكار والأعمال، هو فرع أصيل ومفيد من فروع التاريخ العام. كيف كان الناس يُعالجون في الماضي؟ كيف اقترب الأطباء من معرفة الجسم والمرض والصحة؟ كيف نظرت السلطات، خاصة في المدن، إلى حماية صحة الجمهور ومراقبتها وتحسينها؟ هذه كلها أسئلة ذات قيمة لا تُقَدَّرُ بالنسبة لدراسة المجتمعات في الماضي.

ثم إن ماضي الطب الطويل، والذي يصب بشكل متواصل في مسار التاريخ الأوسع، يمكنه أن يلقي ضوءاً على بعض سمات وهياكل طب اليوم نفسه. وكل من قرأ كتب جورج كانجيلهيم، الفيلسوف ومؤرخ العلم، سوف يعرف أن طب اليوم، بالرغم من أنه يعتبر نفسه علماً خالصاً وتجريبياً، لا أكثر ولا أقل، ما يزال متشبعاً بمفاهيم مسبقة كما كان في زمن ماري - فرانسوا خافييه بيشا (١٧٧١ - ١٨٠٢) و"مذهب الحيوية" الذي طرحه. فهل يمكننا أن نسمي هذه المفاهيم بـ "الأساطير"، إذا ما استشهدنا بالبروفيسور سورنيا مرة أخرى؟ على أن مثل هذه الأساطير، إن كانت أساطير، تحل الآن إحداها محل الأخرى بسرعة مذهلة، كما أن دراسة ميكانيزمات الحياة والخلية البشرية تتقدم بمعدل سريع وثوري.

وقد حدث التحول الحاسم في منتصف القرن التاسع عشر. ففي غضون سنوات قليلة، حدثت ثورة عميقة. ولم يحدث قبل ذلك الزمن، كما قال البروفيسور جان برنار، أن اكتسب الطبيب "كفاءة عقلانية... مع الانبثاق الذي حدث في غضون ست سنوات فقط (١٨٥٩ - ١٨٦٥) لاكتشافات أساسية كاكتشافات داروين وباستور وميندل وكلود برنار - والتي أرست أسس الطب الحديث والثورة البيولوجية التي تجري الآن تحت أعيننا"(١٦٠). وإلى هذه الأسماء، ربما جاز لنا أن نضيف اسماً آخر على الأقل، هو اسم فرانسوا ماجندي (١٧٨٣ - ١٨٥٥)، أستاذ وسلف كلود برنار في الكوليج دو فرانس. فبعد الثورة الفرنسية، التي جَرَّتْ في أنقاضها كلية الطب القديمة، كرس ماجندي نفسه قلباً وروحاً للبحث المطلق عن الجديد، ومن ثم لجدل لا ينتهي ولا يرحم ضد معاصريه. وقد تمثل إنجازه في ربط الطب والفيزيولوجيا بعلمي الفيزياء والكيمياء اللذين كانا قد تشكلا بحلول ذلك الوقت: وهي خطوة إيجابية، لأنه، بإقدامه عليها، كان يؤسس الطب التجريبي. وهو لهذا يستحق مكاناً خاصاً في بانثيون المفكرين المبدعين، يماثل مكان إيفاريست جالوا (١٨١١ - ١٨٣٢)، الذي يحتقره

بنحو ثلاثين سنة، وهو عالم رياضيات رائع، قتل في مبارزة في العشرين من عمره، لكنه كان لديه ما يكفي من الوقت لكي يصوغ في ورقته الأخيرة النظرية الجديدة عن الدوال الجبرية.

والحال أن ماجندي، وتلميذه كلود برنار (١٨١٣ ـ ١٨٧٨)، كانا يدركان على نحو فريد أنهما يعيشان في لحظة ثورية في تطور الطب. وقد كتب إميل ليتريه (١٨١٠ ـ ١٨٨١)، عن ماجندي بعد موته: "لم يكن مهتماً بالتاريخ، بل كان مناوئاً له. . . فالإنساق القديمة وأنماط الحجاج والمناهج والاتجاهات التجريبية القديمة قد بدت كلها له غير جديرة بالاهتمام من جانب إنسان جاد. وكان يرى أن العلم لا جذور له في العصور السابقة" (١٦١). كما أكد كلود برنار دون تردد أن "العلم المعاصر هو بالضرورة أرقى من علم الماضي، ولا يوجد أي مبرر على الإطلاق للبحث عن أي من تطورات العلم الحديث في كتابات القدماء. إن نظرياتهم، الخاطئة حتماً لأنها لا تستوعب ظواهر تم اكتشافها فيما بعد، لا يمكن أن تكون لها أية أهمية فعلية بالنسبة للعلم المعاصر" (١٦٢).

وهذا كلام غير منصف لكنه مفهوم: فقد كان ماجندي وبرنار على حد سواء منهمكين بحماسة في خلق علم طبي قائم على التجريب وحده. وبما أنهما كانا ثوريين بالمعنى الحقيقي للكلمة، فقد كان عليهما النضال ضد نظام قديم قائم كان يحاصرهما عند كل منعطف وكان يهيمن بدرجة غير معقولة على جميع المؤسسات الطبية الفرنسية آنذاك ـ المستشفيات، كراسي تدريس الطب، المدارس الطبية. وحتى بعد زمانهما، احتاجت الثورة التي ناضلا من أجلها إلى مزيد من الوقت حتى تترسخ. ككل الثورات البعيدة الأثر بالفعل، خاصة وأن الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ـ الأسس الجوهرية ـ كانت هي نفسها علوماً ما تزال في طفولتها، وكان تقدمها ما يزال مترنحاً وحبيس أطر معينة. والحال أن الطب الجديد لن يتبلور مفهومه ويتخذ شكلاً محدداً إلا ببطء، وذلك بفضل العيادات الاستشفائية ثم بفضل الطب المعملي فيما بعد. ولن يصبح فعالاً حقاً إلا عندما تأخذ الدولة والمؤسسات الموسعة للصحة العامة بيده وتدعمه.

وليس هدفي هنا أن أحلل التصاعد البطيء لثورة هي بحد ذاتها مهمة أهمية الغزو الحالي للفضاء، إن لم تكن أكثر أهمية: فهنالك الكثير من الكتب التي تفعل ذلك. وكل ما أريده هو الإشارة بإيجاز إلى نتائج هذه المنجزات المعجزة بالنسبة للحيوات اليومية للسكان الفرنسيين (٥٤ مليون نسمة على الأقل عند التعداد الأخير في عام ١٩٨٢).

وكانت هذه النتائج واضحة بالفعل منذ بعض الوقت. ففي نوفمبر ١٩٤٩، عندما توليت منصبي في الكوليج دو فرانس، لم أكن أنا نفسي في أول شبابي، إلاَّ أنه بما أن المستمعين إليَّ كان بينهم عدد من الناس أكبر سناً مني بكثير، فقد بدأت محاضرتي الاستهلالية بالقول: "يمكننا أن نكون واثقين من أمر واحد: في زمن فرانسوا الأول، مؤسس هذه الكلية، كان من المستحيل تماماً تصور اجتماع كاجتماعنا هذا، يشمل المحاضر والمستمعين. فالمعجزة الكبرى للتاريخ الحاضر هي التزايد غير المتوقع في متوسط العمر". والواقع أن الهبوط في الوفيات، كما كتب الفريد سوفي مؤخراً، هو "انتصار فزنا به على عدونا الأزلي، الموت"(١٦٣).

وأنا لا أعني أن هذا الانتصار كان نتيجة للتقدم الطبي وحده، والذي زادت من أثره تطورات أخرى كثيرة: التقدم في المواصلات، المباراة الدولية، الانتاج الضخم لما نسميه الآن بالعقاقير السحرية واللقاحات والكلوروفورم (الذي اكتشف في عام ١٨٣١ وطبق لأول مرة في عام ١٨٤٧)، وأشعة اكس، والليزر، والتوظيف الطبي للالكترونيات ولعلم البصريات ولتقنيات التجميد بدرجة صفر فارنهايت، وعمليات نقل الأعضاء، وجراحة القلب المفتوح، والحملة الشاملة ضد أمراض القلب، والنضال الذي لا نهاية له ضد السرطان - وهلم جراً. ودعونا نعترف بأن هذه الحرب متعددة الجوانب ضد الأمراض - حيث أمكن إنقاذ ملايين الناس بالفعل - تشكل فارقاً أهم بالنسبة للجنس البشري من حروبنا السياسية المزرية، حتى أكثرها دماراً.

وهناك نتيجة واضحة تماماً: إن متوسط العمر في فرنسا اليوم هو ٧١ عاماً بالنسبة للرجال و٧٩ عاماً بالنسبة للنساء. وفي عام ١٩٠٠، كان هذا المتوسط ٤٦ عاماً بالنسبة للرجال(١٦٤).

وقد يساعدنا هذا على أن نرى في "منظور مستقبلي" الأوضاع التي نتجه إليها، دائماً تقريباً، وأعيننا مغمضة. لكنني أخشى من أن الناس يميلون إلى إجراء تنبؤات قائمة على مجرد الحجج الخطية، دون أن يدركوا أن المستقبل هو اجتماع خطوط وحركات، بعضها يصعب التنبؤ به. ففي عام ١٩٤٢ مثلاً، تنبأ أحد الديموجرافيين بأنه بحلول عام ١٩٨٢ سوف يكون عدد السكان الفرنسيين ٢٩ مليون نسمة، لكنه الآن ٥٤ مليون نسمة. واليوم، يقول لنا ديموجرافي آخر إنه، مع تساوي الأمور الأخرى، لن يكون هناك سوى ١٧ مليون فرنسي بحلول عام ٢١٠٠. والحال أننا لن نكون بين الأحياء آنذاك حتى نثبت خطأه، لكن مما لا شك فيه أن هذه النبوءة خاطئة. كما يقال

لنا، استناداً إلى ما تسير عليه الأمور الآن، إنه لن يكون هناك ما يكفي من الشبان العاملين لدفع إسهامات لمعاشات من يكبرونهم سناً. لكن من المؤكد أن التحدث بهذا الشكل إنما يعني افتراض أن الغد سوف يكون على شاكلة الأمس واليوم بالضبط. فهل تدرك الحكومة الحالية (١٩٨٥)، التي ما تزال حبيسة أسلوب سابق في التفكير والتي تواجه مشكلة البطالة أن "هناك تناقضاً بين النسبة المتزايدة لكبار السن [في المجتمع الفرنسي] والفكرة الساذجة التي تتحدث عن تخفيض سن التقاعد؟"، بحسب تعبير ألفريد سوفي مؤخراً.

الحقيقة هي أن كل أبعاد اقتصاد مجتمع الغد سوف يتعين إعادة صوغها من نواح قديمة وجديدة بشكل جذري في آن واحد. إن "شباب" الغد لن يكونوا من هم دون الثلاثين، كما هم اليوم، بل من هم دون الأربعين، ثم من هم دون الخمسين. وقد لا يعود متوسط العمر ٧١ سنة بل ٨٠ أو حتى ٩٠، من يدري؟ وسوف يكون مجتمع المستقبل مجتمعاً يهيمن عليه وقت الفراغ، اللا عمل، بدرجة غير مسبوقة. وسوف يتعين خلق قطاع معين لتلبية الحاجة إلى تسلية الناس، وإلى مساعدتهم على قضاء الوقت وتوفير ما يمكنهم عمله. ثم إن القطاع الثالث ـ الواسع بالفعل ـ سوف يجري توسيعه أكثر فأكثر، خاصة إذا ما انطلق التسيير الأوتوماتيكي بالفعل وبدأ في أداء خدمات من شأنها توفير وقت فراغ أطول بكثير لمن يسمون بالسكان العاملين. وقد اعتبر چون نيسبيت الروبوتات بمثابة "عمال الغد المهاجرين"(١٦٦).

الحد من المواليد

وصلت جميع المجتمعات الصناعية اليوم إلى مأزق بيولوجي. فهي تعاني من مرض عميق الجذور ومتأصل لا علاج له بالفعل. فالحد الاختياري من المواليد قد أدى، أو يعد بأن يؤدي، إلى انهيار ديموجرافي. وعندما يجتمع الحد من المواليد مع الزيادة في متوسط العمر، فإن ذلك إنما يسفر عن مجتمع من كبار السن ـ عن اختلال متزايد وخطير للتوازن بين السكان القادرين على العمل والسكان غير القادرين على العمل. ومن ثم ففي جميع أرجاء أوروبا، وإن كان في فرنسا بشكل خاص، تتصاعد أصوات التحذير التي تتنبأ بالهلاك وتنتقد ممارسات منع الحمل انتقاداً مريراً.

دعونا نوضح ما نتحدث عنه. هناك سلسلة بأكملها من الممارسات التي يُراد بها بشكل أو بآخر الحد من عدد المواليد المحتملين. ومن بين هذه الممارسات: الجماع

الناقص (coitus interruptus)؛ وعدم القذف (implexus restrictus) والعازل الذكري واستخدام ما يسمى بفترة الأمان (الـ Ogino) ومبيدات المني وخاصة حبوب منع الحمل، المتاحة في فرنسا منذ الستينيات والمسئولة بحد ذاتها عن ثورة في العادات الجنسية. فهل يجب أن نضيف إلى ذلك التعفف عن ممارسة الجنس، والامتناع عن الزواج، والزواج المتأخر واللواط؟ وخلافاً لمعلقين آخرين هذه الأيام، لن أُدرج بشكل تلقائي قتل الأطفال (كما كان يمارس يوماً ما في الصين) أو الإجهاض، الذي بالرغم من أنه قد يكون منتشراً إلاَّ أنه إذا أردنا الدقة منع للولادة وليس منعاً للحمل.

في الماضي، كانت وفيات الأطفال هي التي تحد من التكاثر. وهذه لعنة اختفت اليوم (وقد أصبحت فرنسا الآن زعيمة للعالم في هذا الصدد)(١٦٧) لكنها كانت في الماضي منتشرة بشكل مأساوي، خاصة بين اللقطاء، الذين كانوا أكثر عرضة للموت من الأطفال الآخرين. "في إكس - آن - پروفانس، بين ١ يناير/ كانون الثاني ١٧٢٢ و٣١ ديسمبر/ كانون الأول ١٧٦٧، من بين ٤,٨٤٤ طفلاً تُركوا في ملجأ سان چاك [واحد كل ثلاثة أيام]، لم يفلت من الموت غير ٢٢.٤، ٢,٢٢٤"، أي أقل من النصف(١٦٨). وهذا مجرد مثال بين أمثلة كثيرة. والحال أن پيير شوني، المؤرخ، الذي احتج بشكل منتظم، في الإذاعة والتليفزيون وفي كتبه ومقالاته، ضد قانون إباحة الإجهاض في فرنسا والصادر في عام ١٩٧٥ (أصبح ساري المفعول بشكل دائم في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٧٩)، قد مضى إلى حد القول بأنه: "يجري اليوم قتل الأطفال قبل أن يجيئوا إلى العالم؛ وفي الماضي، كانت وفيات الأطفال تراعي بلا كلل أن يموتوا بعد أن يولدوا".

من المؤكد أن منع الحمل ليس ابتكاراً حديثاً. لكنه لم يصل إلاَّ في الأزمنة الأخيرة إلى مقاييس وبائية، حيث امتد إلى أوروبا برمتها وبدَّل التوازن القديم وأدى إلى ثورة في الأخلاق. والحال أن هذه الثورة قد حدثت في فرنسا قبل أن تحدث في أي مكان آخر. وكان بالإمكان رصدها بالفعل بحلول منتصف القرن الثامن عشر. ولم يكن بوسع المعاصرين أن يتخلفوا عن رؤيتها وعن تخيل نتائجها. وفي هذا الصدد، كنا أسبق من جيراننا الأوروبيين بمائة سنة كاملة.

لكن هذا السبق كان كارثياً بالنسبة للسكان الفرنسيين. فقد راحوا يتزايدون ببطء، بينما واصل جيراننا التوسع - بمعدلات أسرع بكثير خلال الثورة الصناعية. وهكذا تراجعت فرنسا، نسبياً، داخل أوروبا. ومع وجود ٢٧ مليون نسمة في عام ١٨٠٠ (في مقابل ١٨ مليون في إنجلترا و٢٤,٨ مليون في ألمانيا)، كانت فرنسا الأمة الأكثر عدداً

في السكان في أوروبا، فيما عدا روسيا. لقد ضمت ١٥,٧ في المائة من السكان الأوروبيين - وهي نسبة هبطت إلى ١٣,٣ في المائة في عام ١٨٥٠ ثم إلى مجرد ٩,٧ في المائة في عام ١٩٠٠. وهكذا دفعت فرنسا ثمناً غالياً لتورطها في حلقة مفرغة لم تنج منها تماماً قط، لأنها لم تكن قط تملك القدرة (أو حتى الإرادة) لكي تحاول ذلك بالحيوية المطلوبة. وصحيح تماماً أن الشيء نفسه حدث في نهاية الأمر للأمم الأوروبية الأخرى، بمجرد سيطرة الحد من المواليد: فهي أيضاً سوف يكون من الصعب عليها تغيير الاتجاه.

فهل توقفت فرنسا عن أن تكون قوة عظمى ليس، كما هو الاعتقاد السائد، في ١٥ يونيو/ حزيران ١٨١٥ في ساحة معركة ووترلو، بل قبل ذلك، خلال عهد لويس الخامس عشر عندما حدث إيقاف لمعدل المواليد الطبيعي؟ خلال القرن التاسع عشر، كما أوضح ألفريد سوفي، اتبعت بلدان أوروبا الغربية أنماط تطور جد متماثلة أحدها للآخر: فكل شيء قد راح يتحرك بمعدل سرعة واحد إلى هذا الحد أو ذاك - التغير الاجتماعي والسياسي، الصناعة، الطب وهلم جراً، حيث الفارق مجرد سنوات قليلة. ولم يكن هناك غير استثناء واحد، يخص بلداً واحداً: فقبل الآخرين بمائة سنة، "بدأت فرنسا تختزل مخزونها من الشباب في عين اللحظة التي كان السباق فيها على التوسع العالمي قد بدأ". والحال أن مجمل مسار التاريخ الفرنسي منذ ذلك الحين قد تأثر بشيء حدث في القرن **الثامن عشر**(١٦٩).

يجب علينا إذاً أن نحلل هذا التطور المبكر، وأن نستكشف أسبابه. ولعل أول ما يجب النظر فيه هو تعليقات المعاصرين، أكانوا اقتصاديين أم "ديموجرافيين" (مع أن الكلمة لم تكن قد وجدت بعد، فكلمة **démographie** لن تُشتق إلا في عام ١٨٥٣).

إن الاقتصادي، والكاتب الموهوب في رأيي، آنج جودار، قد اتهم حب عصره للترف باعتباره ناصحاً سيئاً في هذا الصدد: "إن هذا الحب نفسه للدعة وللراحة هو الذي يملأ فرنسا بالعُزَّاب. ... الرجال الذين يختفون من العالم هم وذريتهم كلها. فهم يعتقدون أن من العار أن يعجز المرء عن عرض زوجة في المجتمع بما يكفي من الإبهار؛ ولذا فإنهم يستنتجون أن من الأفضل الامتناع عن الزواج أصلاً. وإنه لأمر مذهل أن يُحل كل يوم دون زيجات كثيرة بسبب مركبة مذهبة أو عدد كثر أو قل من الخيول والخدم والحشم" (١٧٠). ثم إن "الإنجاب لم يعد الآن نتيجة الارتباط

الزواجي، فالناس يخشونه ويعملون، بشكل مباشر أو **غير مباشر**، على عرقلة تقدمه... فالترف يجعل معظم الناس يعتبرون كثرة الأطفال عاراً. وكلما زاد ثراء الرجل، كلما كانت حاجته إلى الحد من ذريته أعظم"(١٧١). والأسوأ من ذلك أن "عدوى [الترف] تنتشر وتؤثر بشكل خفي على رقيقي الحال الذين يعتمد على عملهم مجمل بنيان الحكم المدني"(١٧٢).

لقد كُتبت هذه الكلمات في عام ١٧٥٦، في عين الوقت الذي بدأت فيه حرب الأعوام السبعة (١٧٥٦ ـ ١٧٦٣) وبينما كان ما يزال أمام لويس الخامس عشر ثمانية عشر عاماً من عهده، قبل موته في عام ١٧٧٤.

وفي عام ١٧٥٨، كتب راهب من جنوب فرنسا، هو چان نوفي دو كافيراك، عن الرجال الذين "يرفضون دون أسف اسم الأب العذب... فالبعض يكبح رغباته، والبعض الآخر **يتحايل على الطبيعة**"(١٧٣). وفي عام ١٧٦٣، أشار تيرمو دو لا مورانديير، وهو "ديموجرافي هاو"، إلى انتشار ممارسات منع الحمل: فالأزواج لا يريدون غير طفل واحد أو لا أطفال على الإطلاق. وهذا "التدنيس لقدسية الزواج، هذه الحقارة المخزية قد امتدت من شخص إلى آخر كالوباء"، وسوف يؤكد كهنة الاعتراف أن كل طبقة في المجتمع، غنية أم فقيرة، قد تأثرت بهذا الموقف(١٧٤). وقد شجب النبيل دو سيرفول في عام ١٧٧٠ الأثر الخبيث على صحة الناس لـ "هذا المسلك الفظيع" الذي ناضلت الكنيسة ضده دون طائل(١٧٥). كما كان الكاتب الشهير موهو حاسماً بالمثل: "إن النساء الثريات... لسن الوحيدات اللاتي يعتبرن تكاثر النوع البشري **حماقة بالية**؛ فهذه **الأسرار القاتلة**، التي لا يعرفها حيوان آخر غير الإنسان... قد تغلغلت بالفعل في الريف؛ ويجري التحايل على الطبيعة حتى في القرى"(١٧٦). وفي نورماندي في عام ١٧٨٢، إذا ما صدقنا الأب فيلين، وهو أحد مبشري سان ـ چان ـ أود وكان يعمل في المقاطعة "في إنقاذ الأرواح في المدن والريف"، فإن "جريمة أونان [الجماع الناقص] المخزية... منتشرة وجد شائعة بين المتزوجين... خاصة عندما لا يريدون أن يكون لديهم كثرة من الأطفال، دون أن يكونوا راغبين في حرمان أنفسهم من المتعة التي يحصلون عليها من الزواج؛ وهذا المسلك المؤسف شائع بين الأغنياء والفقراء على حد سواء: إن دوافعهم مختلفة لكن جريمتهم واحدة. ونادراً جداً ما يعترفون بها؛ ولذا فإنها السبب القاتل لما حل بكثيرين من الناس من اللعنات"(١٧٧). وبعد ذلك ببضع سنوات (١٧٨٨)، شجب ميسانس "الحساب" (أي

الفعل الذي ينطوي على قرار ومسئولـية) "الذي يدفع رجلاً إلى أن لا يريد غير طفل أو طفلين؛ والعظمة الزائفة التي تـدفع[هذا الرجل]. . . إلى أن يكون عنده وفرة من الخدم ووفرة من الضيوف على المائدة، بدلاً مـن أن يجلس محاطاً بأطفاله؛ **وأكبـر مفـسدة**، والتي تتوج كـل شيء، مفسدة **القضاء على بـذرته وهو يبذرها**". بل إن القلـق قد امتد إلى أوساط الحكم. ففي عام ١٧٨٥، أعرب نيكر عن الخوف من احتمال أن يؤدي مثل هذا الفساد للأخلاق إلى أن يهبط عدد المواليد تحت مستوى عدد الوفيات.

ومثل هذه الشواهد لا تدع مجالاً للشك فـي أن منع الحمل كان آخذاً في الانتشار، وأنه كان يكسب مـؤيدين وكان ينتقل كالمـرض: وكانت الممارسة المتبـعة هي الجماع الناقص. لكن التفسـيرات التي عادة ما تقدم لانتشاره قد تكون مفرطـة في التبسيط إلى حد ما. فـالاعتقاد الـسائد هو أن "الأسـرار القاتلة" قـد اكتشفـت وطُبِّقت مـن جانب الطبقات الـعليا ثم انتقلـت إلى الطبقات الوسطى ومـنها إلى الناسَ العاديـين في المدن والبورجات، قـبل أن تصل إلى سكان الـريف "الذين لم تفتح عـيونهم عليهـا إلاَّ فيما بعد". ويكتب أحد الـمؤرخين فيقول: "إن وصول منع الحمل إلى الـقرى كان تتويجاً لانحرافٍ ابـتدع في المـدينة"(١٧٩). ولكن هل كـان الريف "بريئاً" وجـاهلاً إلى هذا الحد، كما يقال لنا؟

لقد بينت دراسة قـام بها جي آربلو لخمس قرى في المارن الأعلـى، غير بعيد عن چوانفيـل، أنه، في القرن الـسابع عشر، كان الأطفـال في هذه القرى يولـدون إما بعد الحصاد أو بعد مـوسم قطف العنب، بحسب مـهن آبائهم(١٨٠). ويمكـن أن نستثـني الطفـل الأول، الذي يرتبط مـولده ارتباطاً وثـيقاً بتـاريخ الزواج. إلاَّ أن مواعيـد مولد الأطفال الآخريـن يبدو أنها كانـت مقصودة. والحال أن كون مـثل هذا التنظـيم للأسرة نتيجة لـممارسة منع الحمل لا نـتيجة للتعفـف الأقل أرجحية عن ممارسة الـجنس إنما يصبح أمراً مرجحاً بقوة عندما نعرف أنه فـي الوقت نفسه، في نورماندي السفلى، وهي إقلـيم "كانت إنـجابية الـمتزوجيـن فيه تهـبط إلى مسـتويات متـواضعة في وقـت جد مبكر"(١٨١)، كان منع الحمل محل شجب منتظم من جانب كهنة الاعتراف، بمن فيهم أولئك الذين يوجدون في المناطق الريفية. وفي عام ١٦٥٠ في أبرشية كوتانس، كشفت إرساليةٌ أن "الخطيئة الشائنة يجري ارتكابـها بأفظع شكل وبأبشع جهل بحيث إن [الناس غالباً] لا يتصوورون أنهم يرتكبون خطيئة أصلاً"(١٨٢).

ومن ثم فإن المرء لا يدهـش عندما يقرأ تعليقاً كتـبه في عام ١٧٥٤، أي في وقت

متأخر، وإن كان يجري تقديمه آنذاك كحقيقة عامة. النبيل المزعوم جون نيكولس، وهو في الواقع فرنسي ولد في لو مان واتخذ هذا الاسم المستعار حتى يتحدث بحرية عن كل من فرنسا وإنجلترا: "فيما يتعلق بالفلاحين، فإن الريف يقدم أمثلة كبيرة للفقر في هذه الطبقة مثلما تقدم المدن أمثلة كبيرة للثروة. فعليهم يقع الجانب الرئيسي من عبء ضرائب الدولة. والفلاح الذي لا يملك ضروريات الحياة إنما يخاف من العدد الكبير للأبناء خوفه من الطاعون. والخوف من الفقر الذي لا يحتمل يمنع البعض من الزواج؛ وقد أصبحت الزيجات أقل إنجابية، حتى في هذه الطبقة" (١٨٣).

وتظهر استنتاجات مماثلة من البحوث التي قام بها مؤخراً ديموجرافيون ومؤرخون، في الوسطين الريفي والمديني، وفقاً للمعايير وللمناهج التي صاغها لوي هنري وبالاعتماد على سجلات الحالة المدنية. وهي تمكننا من أن نحسب بشكل تقريبي معدل إنجابية النساء المتزوجات من الفواصل الزمنية المنتظمة أو غير المنتظمة بين ولادات أطفالهن. وقد ظهرت بالفعل بضعة استنتاجات: لقد أصبح منع الحمل جزءاً من السلوك الفرنسي في وقت مبكر بشكل خاص، قياساً إلى المسلسل الزمني للسيرورة نفسها في بقية أوروبا. وأياً كان تفسير المؤرخين للأمر، فإن هذه الممارسات قد انتشرت انتشار النار في الهشيم مع الثورة الفرنسية، بالرغم من أنها كانت مستخدمة بالفعل بشكل واضح قبل ١٧٨٩ بكثير.

وفي مولان مثلاً، وهي مدينة صغيرة على نهر السين، تبعد عن باريس بمسافة ٤٧ كيلو متراً، يبدو أن نسبة ٩٠٪ في المائة من المتزوجين لم تفعل سوى القليل أو لم تفعل شيئاً، حتى نحو عام ١٧٤٠، للحد من المواليد: أما نسبة الـ ١٠٪ في المائة الباقية، فقد كانت تتألف إما ممن يشكون من العقم أو ممن يقيدون إنجابيتهم عمداً. واعتباراً من عام ١٧٤٠، زادت نسبة الآخرين، حيث ارتفعت إلى ١٧ في المائة بين عامي ١٧٤٠ و١٧٦٤، بينما امتدت درجة من درجات الحد من المواليد إلى بعض المتزوجين الآخرين؛ واعتباراً من نحو عام ١٧٦٥ إلى عام ١٧٨٩، كان نحو ٢٥٪ في المائة من المتزوجين يمارسون منع الحمل. لكن الفاصل الحاد يحدث نحو عام ١٧٩٠: إن نسبة المتزوجين الذين بلا أطفال أو يقيدون إنجاب الأطفال اختيارياً إنما تقفز من ٢٤,١ في المائة إلى ٤٦,٥ في المائة بين عامي ١٧٩٠ و١٨١٥، ثم إلى ٥٩,٤ في المائة بين عامي ١٨١٥ و١٨٣٩ (١٨٤).

وإذا كان هذا صحيحاً بالنسبة لمولان، فمن المرجح أنه كان صحيحاً بالنسبة

لأماكن أخرى. ولكن هل كان صحيحاً بالنسبة لمجمل فرنسا؟ لا يبدو هذا محتملاً. ويكتب ج. ب. بارديه أنه في روان "لم يؤد سقوط الباستيل إلى أية زيادة في منع الحمل، الذي كان مستقراً بالفعل منذ نحو قرن"(١٨٥). وهو يوضح بشكل مقنع أنه "في حين أنه في عام ١٦٧٠، كان هناك ثمانية أطفال [للأسرة]، فإن العدد قلما كان يصل إلى أربعة بحلول عام ١٨٠٠. وفي أقل من ١٥٠ سنة، كان سكان روان قد اكتسبوا دراية عجيبة بـ "الأسرار القاتلة". فكيف تسنى لهم في غضون أربعة أو خمسة أجيال أن يختزلوا عدد الأطفال إلى النصف؟ إن التحليل الديموجرافي لا يكشف عن ماهية أساليب منع الحمل، لكنه يساعدنا بالفعل على تتبع وتحليل وتائر حدوث منع الحمل"(١٨٦).

وفي ثلاث قرى في الإيل دو فرانس، خلافاً لذلك، - هي بوموت - لي - تومين ومارشرو ولو ميسنيل - تيريبي (وهي الآن كومونات في مركز بوفيه، **département** التواز)(١٨٧) - يبدو أن العادة لم تستقر إلاً في أواخر القرن الثامن عشر. وينطبق هذا الكلام نفسه على شاتيون - سور - سين حيث يمكن رصد قدر من الحد من حجم الأسرة بين عامي ١٧٧١ و١٧٨٤، ولو أن البيانات لا تعطي غير فترة قصيرة(١٨٨). في حين أنه في سينجان - آن - ميلانتوا، قرب ليل، في منطقة أكثر هامشية على حدود فرنسا، نجد أن هذا التطور قد حدث في وقت أكثر تأخراً، وكانت أبعاده في البداية متواضعة تماماً، حيث لم يستقر إلاً نحو منتصف القرن التاسع عشر، أما القائلية، حتى في عام ١٨٣٠، فقد ظلت من الناحية العملية بعيدة عن "الثورة المالتوسية"(١٨٩).

وليس في هذا ما يدعو إلى العجب، فقد أبدت فرنسا ردود فعل متباينة تجاه هذا التطور الآخذ في النمو. والظروف الواحدة لا تؤدي بالضرورة إلى نتائج واحدة. والتفسيرات التي تبدو واضحة بصورة قبلية قد تجد تأكيداً لها في مكان دون أن تجد تأكيداً لها في مكان آخر. وعلى سبيل المثال، ففي بريتانيا، كما في نورمانديا، "كانت المساواة في الإرث هي القاعدة السائدة بين العوام" و، كما في نورمانديا، "كانت هناك عناية كبيرة بالأطفال"(١٩٠)، وهما دافعان قد يدفعان الأسر كقاعدة إلى الحد من عدد الأطفال. إلاً أنه يبدو أن بريتانيا كانت مالتوسية كجارتها.

والواقع أنه كلما اتسعت دائرة البحث كلما أصبحت المشكلة أكثر تعقيداً. وقد جرى التشديد على عوامل كثيرة، الواحد بعد الآخر: عمر الوالدين عند الزواج؛ إرضاع الطفل من جانب أمه الطبيعية، أو اللجوء إلى مرضعة أخرى؛ وضع الأسرة في نطاق

الأعمال، وضعها الاجتماعي؛ الوسط الثقافي الذي يمكنه، كما نعلم، تحديد شكل الأسرة نفسه؛ القوانين أو الأعراف التي تحكم الإرث (والتي تتباين بشكل واسع بين المقاطعات)، وأخيراً مدى كفاءة دروس الكنيسة التي انخرطت بقوة في الجدل الذي دار حول الموضوع. والحال أن أي تفسير عام قد يقترحه المرء من المحتمل أن يكون غير مناسب بالنسبة لأي مكان محدد أو في أية فترة محددة وأن لا يكون بالإمكان تطبيقه بشكل واسع إلاّ إذا سمح بمدى واسع للتباينات وللاختلافات الزمنية. وأنا أقبل كل هذا، إلاّ أنه ما زالت هناك جدوى من وراء محاولة فهم كيف استقرت ظاهرة منع الحمل ـ التي كتب لها الانتشار طولاً وعرضاً ـ في البداية، ولماذا ظهرت في فرنسا بشكل أسبق مما في أي مكان آخر.

يجب أن نتجنب الخطأ الشائع والذي يتمثل في رد كل شيء إلى عصر التنوير وإلى السنوات العاصفة أو المزعزعة للاستقرار والتي واكبت الثورة الفرنسية. فمنع الحمل ليس اكتشافاً يمكن توصيله بالأسلوب نفسه الذي يجري به توصيل القيم الثقافية أو الأوبئة. كما لا يجب أن نستنتج أن ممارسات منع الحمل قد ابتكرت، كما يزعم البعض، من جانب الارستقراطية الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر أو لويس الخامس عشر، وأن مثلاً سيئاً قد ضربه الدوقات والماركيزات ومعاصرو مدام دو سيفينيه (التي كانت هي نفسها جد تواقة إلى أن تباعد ابنتها بين مرات حملها)(١٩١).

إن منع الحمل يرجع إلى زمن بعيد في الماضي. وقد زعم بعض المؤرخين أن الحد الاختياري من المواليد هو الذي أنهى الحضارة الإغريقية؛ وأنه في عهد أُغُسطُس المجيد في روما، كان عدد الأطفال أقل من ذي قبل. وفي الكتاب المقدس، يعد أونان الممثل الرمزي للجماع الناقص. وتكفيرات العصور الوسطى عن الذنوب، من القرن السادس فصاعداً، تدفع المرء إلى الاعتقاد بأن "الأسرار القاتلة" كانت قد تغلغلت في حضارة أوروبا الغربية منذ وقت طويل. وأنا أميل إلى تصديق ج. ب. بارديه(١٩٢) عندما يقول إن من الصعب تخيل أي مجتمع "يجهل منع الحمل" جهلاً مطلقاً، لأنه حتى المجتمعات التي يُعتقد أنها كانت من هذا النوع قد ضمت بين صفوفها أزواجاً "لهم ممارسات مريبة". والحال أن الوصول مثلاً من العدد جد المنخفض للمواليد غير الشرعيين في القرى الفرنسية في القرن السابع عشر إلى استنتاج أن فترة كبح للشهوات طويلة إلى أبعد حد كانت مفروضة على الشبان قبل زواجهم، لأن منع الحمل كان غير معروف أو حتى يتعذر تصوره قبل الأزمنة الحديثة، كما ذهب إلى ذلك فيليب آريس؛

إنما يبدو لي غير مستساغ، مثلما يبدو غير مستساغ لـ ج. ل. فلاندران. فالمومسات، على أية حال، واللواتي كن دائماً أساتذة في مسائل الجنس، يوجد اتفاق عام على أنهن قد مارسن منع الحمل باعتباره أمراً عادياً. وعندما يكتب مونتاني عن النساء اللاتي يلدن سراً، فإنه يشير إلى "جميع العاهرات [graces] اللاتي يخفين كل يوم أطفالهن، ولادةً وحملاً"(١٩٣). (وكلمة grace لها هنا أيضاً معناها التحقيري الحالي، لأنها توضع من ثم في مقابل "امرأة سابينوس الشريفة").

ثم إنه إذا كانت الكنيسة قد ناضلت بهذا القدر من الشراسة، وحالفها النجاح أحياناً، ضد هذا الاعتداء على الرباط المقدس وعلى أهداف الزواج المسيحي، وإذا كان كهنة الاعتراف قد انزعجوا منه وطلبوا من أساقفتهم إرشادهم إلى سبل التعامل مع مرتكبي الخطيئة، فما ذلك إلاّ لأنه كانت هناك، دون شك، مشكلة تمثل تهديداً للزواج كما تتصوره الكنيسة.

موقف الكنيسة

من المهم أن ندرك ما كان عليه التمثيل المثالي للزواج المسيحي، إلى عهد قريب نسبياً ـ فهو جد بعيد عن الأفكار الحاضرة. إذ لم يكن رباطاً قائماً على الحب، ناهيك عن حب الجسد. ونحن نقرأ في نصوص ترجع إلى القرن السادس عشر أن جميع المشاعر الغرامية تهدد "طهارة فراش الزوجية". إن الرجل الذي "يشبع" مع زوجته "شهوة الجسد المختلة" إلى درجة أنه حتى لو لم تكن هي زوجته لـ "اشتهى النوم معها"؛ الرجل "الذي يبدو مع زوجته عاشقاً مغرماً بأكثر مما يبدو زوجاً هو مرتكب للزنا". فالزواج قد وجد على وجه التحديد "للوقاية من الخطيئة [التي تتمثل في البحث عن المتعة لذاتها] ومن أجل إيجاد ذرية يمكن تربيتها على حب الرب والخوف منه"(١٩٤). فهدف "قدسية الزواج" هو إيجاد "ذرية تؤبد حمد الرب"(١٩٥)، و"إنجاب أطفال وتربيتهم إعلاءً لمجد الرب"(١٩٦). والويل لمن ينسى هذه القاعدة الأساسية. والحال أن موعظة أسقفية مو، عندما كان بوسويه أسقفاً هناك، كانت تذهب إلى أن أعظم خطيئة يمكن أن ترتكب أثناء الزواج هي "الامتناع عن إنجاب أطفال، وهو جرم مقيت"، ما لم يكن السبيل إلى ذلك بالطبع هو العفاف المتفق عليه من الطرفين. والواقع أن الجرم المقيت، الذي حرمته الكنيسة بلا هوادة، كان خطيئة قاتلة، تحكم على الخاطيء بإعلان التوبة وتحرمه من تناول القربان المقدس.

ولا يجب أن نتصور أن هذه الفكرة عن الزواج كانت مقصورة على أوساط المتزمتين. فقد كتب مونتاني بعبارات ما كان كاهن اعترافه ليتردد في قبولها عن "رباط" الزواج "الديني والورع"، وعن الحاجة إلى تطهيره من كل "انحلال وتجاوز"(١٩٧). وهو يكتب فيقول: "إن العهر الشائن الذي تدفع إليه الأهواء الأولى في هذه العلاقة ليس فقط غير لائق بل إنه ضار أيضاً إذا ما استخدم حيال زوجاتنا. **دعوهن على الأقل يتعلمن قلة الأدب على أيدي آخرين.** إنهن مهيئات دائماً بما يكفي للتجاوب مع حاجاتنا".

والحال أن الجملة التي شدَّدتُ عليها إنما تبدو ناشزة في هذا المقتطف الوعظي. ويبدو أن قلة الأدب و"العهر" خارج الزواج، في الزنا مثلاً، من الأمور الطبيعية تماماً. وهذا يشير بوضوح إلى الهوة الواسعة الموصى بها والمطلوبة بين عالم الزواج، عالم النظام الأسري، عالم الكرامة، وذلك العالم الآخر، عالم الغراميات خارج إطار الزواج، حيث يمكن إطلاق العنان للوحش الهائج. وهكذا كان هناك أسلوبان لتجريب الحياة الجنسية، الأسلوب الفاضح والأسلوب الفاضل، وما كان مسموحاً به في أحدهما ليس لائقاً، من الناحية النظرية، في الآخر. والحال أن برانتوم، المتساهل إلى حد بعيد مع الحماقات الجنسية والحكايات الداعرة التي يحكيها باستمتاع أو بتسامح، إنما يقول هو نفسه إنه وفقاً "للكتاب المقدس... ليست هناك دعوة إلى أن يحب الزوج والزوجة أحدهما الآخر أكثر من اللازم... بهوىً داعرٍ وماجن؛ لأنهما إن وضعا وأغرقا جماع مشاعرهما في هذه المتع الحسية وإن انكبَّا عليها انكباباً محموماً، فسوف يهملان الحب الذي يجب أن يشعرا به تجاه الرب"(١٩٨). وهو يتحدث في مكان آخر عن "الخطايا" التي من شأنها "أن تلطخ" الزواج. لكنه يعتبر هذه الخطايا نفسها (كالأوضاع غير المتعارف عليها في ممارسة الجنس) جد فاتنة عندما يجري عرضها بخبث في بلاط أميري على مجموعة من الشابات على شكل صور منقوشة داخل الكوب الذي يشربن منه. "إن عديدات منهن قد فجرن في تجريبها، لأن كل من له روح يريد أن يجرِّب كل شيء"(١٩٩).

وهكذا فإن الشيء المدهش هو أن ما كان يعتبر إثماً خطيراً داخل الزواج قد اعتبر أقل خطورة، بل لقد اعتبر طبيعياً، خارج الزواج. على أن الأكثر إثارة للدهشة هو أن رأي الكنيسة والرأي العام في المجتمع كانا متفقين في هذا. ويتحدث برانتوم مثلاً بشكل مكشوف تماماً عن الجماع الناقص الذي يعتقد بعض النساء أن من واجبهن فرضه

في علاقة زنا، "حتى يتفادين أن يظن أزواجهن أن الأطفال أطفالهم وهم ليسوا أطفالهم وحتى لا يبدو أنهن قد أخطأن في حقهم أو ديَّثُوهن، ما دام المني لم يدخل فيهن. . . وهكذا فإنهن شريفات بحكم حسن نواياهن"(٢٠٠). وقد يبدو هذا الاستنتاج ساخراً، لكن رأي الكنيسة كان يتمثل بالفعل في أن تجنب إنجاب طفل من علاقة زنا أو فسق أو جماع محارم إنما يخفف من حجم الخطيئة. وكانت تلك هي الحال بدءً من أحكام التكفير في العصور الوسطى، والتي تضاعف سنوات التكفير المفروضة على الفاسق أو الزاني مرتين أو ثلاث مرات إذا كان قد تسبب في مولد طفل غير شرعي - إلى مجادلات المفتين وكهنة الاعتراف في القرن السابع عشر، والذين انتهوا إلى أنه في جميع العلاقات الغرامية المحرَّمة، يعد الفعل الجنسي الناقص شراً أصغر، يخفف من حجم الخطيئة.

وقد دافع المفتون عن مثل هذا التساهل باسم تفسير أكثر من معقول للخطيئة. إلاَّ أن مما لا مراء فيه أنه قد جرى فرضه على كهنة الاعتراف الذين كان عليهم أن يشتبكوا مع الحياة اليومية، من جراء مجرد الحرص على تجنب المواليد غير الشرعيين. وما كان يمكن للمحصلة النهائية إلاَّ أن تتمثل في تشجيع انتقال العدوى من مجال إلى آخر من مجالي الحياة الجنسية المنفصلين بشكل مصطنع، المجال الزواجي والمجال خارج الزواجي. والحال أن الأب فيلين نفسه الذي كان قد روَّعَهُ الطابع المنتشر لـ "جريمة أونان المقيتة" في عام ١٧٨٢، قد لاحظ أن الأزواج الذين حظرت عليهم الكنيسة والعلم الطبي آنذاك الإنجاب خلال فترة إرضاع طفل، قد نجوا من فترة تكفير طويلة بالشكل الذي أفلتت به سيدات برانتوم الزانيات، وبراحة الضمير نفسها(٢٠١).

إلاَّ أنه قبل انقضاء وقت طويل، سوف يرفض الأزواج السماح للكنيسة بالتدخل في حميمية علاقاتهم. وكانت تلك هي المرحلة الأخيرة من مراحل التفكك الطويل للزواج المسيحي، ونهاية توازن ثقافي وانهيار نظام قديم، وقد حدث ذلك ببطء كما هي الحال دائماً في تغيرات من هذا النوع.

ومن الناحية النظرية، لم تتغير التعاليم الكنسية حول منع الحمل. لكن الغالبية العظمى من الكاثوليك أنفسهم قد تخلت عنها. وكانت تلك هي الحال بالفعل بحلول عام ١٨٤٢. والواقع أن المونسنيور بوفيه، أسقف لو مان، قد اضطر في ذلك العام إلى أن يشير إلى أن "جميع المتزوجين الشبان تقريباً ليسوا على استعداد لأن تكون لهم ذرية وفيرة العدد، ومع ذلك فليس بوسعهم من الناحية الأدبية أن يمتنعوا عن الفعل

الزواجي. وعندما يسألهم كهنة الاعتراف كيف يمارسون حقوقهم الزواجية، فإنهم عادة ما يصابون بالصدمة، وبالرغم من تحذيرهم، لا يمتنعون عن الفعل الزواجي، كما لا يمكنهم أن يتصالحوا مع تكاثر غير محدد للنوع. . . وهم يعترفون كلهم عن طيب خاطر بأن عدم الإخلاص للشريك في الحياة الزوجية والإجهاض المتعمد هما من الخطايا العظيمة جداً. وقليلون منهم هم الذين يمكن إقناعهم بأن عليهم، حتى لا يرتكبوا خطيئة قاتلة، إمَّا أن يراعوا العفاف التام داخل الزواج أو يغامروا بإنجاب ذرية وفيرة العدد"(٢٠٢).

والحال أن الإلغاء التدريجي للتحريم إنما يعبر عن الانتشار السريع لمنع الحمل، بعد السنوات الأخيرة للقرن الثامن عشر. لكنه لا يفسر السبب في أن الناس كانوا غير راغبين في إنجاب أطفال. وفي القرن السادس عشر، وفقاً لمونتاني، كان "الجزء الأكثر عادية والأوفر صحة بين البشر، يعتبر وفرة الأطفال حظاً سعيداً عظيماً"(٢٠٣). فلماذا، بعد قرنين، أصبحت هذه الوفرة غير ملائمة؟ لماذا كان عدم الاستعداد هذا مبكراً بشكل مدهش وملحوظ في حالة فرنسا الخاصة؟ هذا هو السؤال الأكثر إثارة لحيرة المؤرخ.

الحالة الفرنسية

بصورة قبلية، من المرجح أن أي تفسير لا يراعي الاختلافات (لا يميز بين فرنسا من ناحية وأوروبا من الناحية الأخرى) سوف يكون خاطئاً. ولذا فلا يمكننا القول إن تبكير فرنسا في هذا الصدد ناشيء عن حالتها الاقتصادية مثلاً: ففرنسا كانت من الناحية الاقتصادية مماثلة لجاراتها. كما لا يمكن القول إن الفرنسيين كانوا أول من اكتشف منع الحمل: فقد كان معروفاً منذ زمن بعيد ولم يكن أي شعب من شعوب أوروبا بحاجة إلى إطلاعه عليه. كما لا يمكننا القول واثقين تماماً إن تنامي حب الأطفال في القرن الثامن عشر هو الذي قاد الفرنسيين إلى إنجاب عدد قليل من الأطفال حتى يتسنى لهم تربيتهم في ظروف أفضل. فقد شهدت أواخر القرن الثامن عشر تزايداً مهولاً عندنا للأطفال المتَخَلى عنهم.

ولا يمكنني أن أفكِّرَ إلاَّ في تفسيرين يمكن قبولهما: تفسير طرحه الفريد سوفي(٢٠٤)، عارَضْتهُ بشكل متسرع إلى حد ما في الماضي؛ والتفسير الآخر هو الحجة التي طَرَحْتُها ضده آنذاك. وقد يتماشيان معاً، إلاَّ أنهما لا يعزز أحدهما الآخر حيث إنهما مختلفان من حيث النوع: فأحدهما ثقافي، والآخر إقتصادي أو، بالأحرى،

ديموجرافي. وبما أن هناك وفرة من المفاجآت في هذا المجال، فإن المفاجأة هنا هي أن الفريد سوفي ليس الديموجرافي هذه المرة، بل مؤيد تفسير ثقافي (كدت أقول: مثالي).

ينظر الفريد سوفي إلى الحد من المواليد في فرنسا على أنه نتيجة لتحرر الفرنسيين من تعاليم وقيود ونير الكنيسة الكاثوليكية. فقد سعت الكنيسة إلى السيطرة على الجسد، حتى يتسنى لها أن تسيطر بشكل أفضل على الروح. والحال أن الدراما التي شهدها القرن الثامن عشر كانت نوعاً من الثأر من جانب الإصلاح. فبعد أن ترددت فرنسا، قبل قرنين، بين روما ولوثر، أو بالأحرى بين روما وكالفن، اختارت روما، لكن هذا الاختيار قد ارتد في الاتجاه المضاد. فهل كان يمكن لذلك أن يحدث بعد انقضاء قرنين؟ الآن، وقد أصبحتُ على دراية بمنظور الأجل الطويل، أجدني مستعداً تماماً لأن أقول نعم. ويجب أن أشير مثلاً إلى أنه حتى فيما بعد، في زمن فردينان بيسون وآخرين(٢٠٥)، تقدم المدرسة الابتدائية العلمانية صدى آخر للإصلاح. وهناك أصداء للإصلاح أيضاً في كواليس مجلس الفاتيكان الثاني.

ولكن هل يمكننا الحديث عن "الإصلاح" دون مزيد؟ يجب أن لا ننسى أن التعليم غير الديني قد ظهر في فرنسا لأول مرة في القرن السادس عشر، في المدارس الجديدة التي جرى تأسيسها بأعداد كبيرة وبمزيد من الحماسة من جانب تلك النخبة المميزة اجتماعياً وثقافياً التي درسها چورچ هيبير بإخلاص. فقد نجحت، لبعض الوقت، في إبعاد التعليم عن وصاية الكنيسة، إلى أن سيطر اليسوعيون سيطرة حازمة على الأمور في القرن السابع عشر. على أن هؤلاء الناس لم يكونوا پروتستانتيين. فقد رفضوا هذا الإغراء الخاص. وأنا أعتقد أنهم يمثلون ما قد يمكن وصفه بالتردد، **الأصيل** عند فرنسا، بين الإصلاح والإصلاح المضاد والجهود، الملحوظة دائماً على الأقل بين صفوف المثقفين الفرنسيين(٢٠٦)، الإنسانيين و"الانحلاليين" أو المفكرين الأحرار، الرامية إلى التحرر من الاثنين. وهذا التردد، هذا التحرك أولاً في اتجاه ثم في الاتجاه الآخر، هذا البحث عن طريق منفصل، كان سمة فريدة للثقافة الفرنسية. وقد كان عامل تشجيع لاستقلال الفكر، من مونتاني إلى فولتير وبعد فولتير. وكما هو متوقع، فقد تبين أنه محبط وضار بشكل متزايد للكنيسة. وأعتقد أن هذا لابد أنه لعب دوراً ما في المواقف الفرنسية تجاه منع الحمل.

بل إنني أكثر استعداداً لأن أتصور أن فرنسا، لكونها كانت مأهولة جيداً بالسكان

وجد متطورة منذ أزمنة مبكرة، ربما تكون قد عـانت بشكل يكاد يكون مزمناً من كونها **بلداً يتمتع بـفائض سكاني**. وهذا على أية حال هو ما تصـوره مارسيل رينهار وزملاؤه الذين ساعدوه على إعداد الطبعة الـثالثة من كتابه الضخم: **التاريخ العام لـسكان العالم** (١٩٦٨). والحق إن الـفائض السكـاني من حيث هو مـفهوم إنما يـستدعي تحـفظات وحذراً. إذ لا يمكن الاعتمـاد عليه إلاّ عندما يظهر إنعدام تـوازن أو خطر إنعدام توازن بين حجم السكان وحجم الموارد. وفي عـام ١٧٨٩، من المؤكد أن فرنسا كانت غاصة بالسكان، حيث كان هناك ٢٦ مليون نسمة وكانـت الكثافة في الكيلو متر المربع الواحد أكثر من ٥٠ نسمـة. في حين أن إنجلترا، لا بريطـانيا العظمى برمتهـا، لم تكن غاصة بالسكان، حيـث كان هناك مجرد ٨ مليون نسمـة وكانت الكثافة في الكيلـو متر المربع الواحد أعلى من المسـتوى الفرنسي بدرجة طفيفة فقط. وكان النـاتج القومي الإجمالي لإنجلترا مساوياً تقـريباً للناتج القومي الإجمالي لفرنسا، ولـذا فإن دخل الفرد فيها لابد أنه كان أعلى بكثير. وكان السكان الإنجليز يصطدمون بسقف أقل وطأة؛ وكان بوسعهم أن ينموا ضمـن ما يمكن تسميته بـإطار مرن. إذ كان بوسعهم أن يعتـمدوا، كما سوف يبين الـمستقبل ذلـك، على قطاع زراعي عـالي الانتاجية وعـلى صناعة آخذة بـالتوسع وعلى عدد مـن المدن الصناعيـة التي تحولت إلى مـراكمات ومحركات لـنمو تالٍ. في حين أن مدن فرنسا، خلال الثورة الفرنسية، كانت، خلافاً لذلك، محركات توقفت عن العمـل، ولن تشرع في الـعمل من جديد إلاّ فـي زمن القنصـلية والامبراطـورية. وفي اللحظة الـحاسمة، في عامي ١٧٨٩ و١٧٩٠، عندمـا انهارت النخب الثقـافية، بعد أن كانت قد استُنزفت لبعض الوقت، دخلت الـحياة الاقتصادية في أزمة. وقد امتزج الحد من المواليد بـظروف تشجع على انتشاره عبـر مفاقمة مصاعب الحياة الـيومية. كما أن الحروب النـاپوليونية ربما تـكون قد أحدثت درجة من الارتبـاك والقلق النفسيـين تجاه الحيـاة. وقد وصف إدجار كيـنيه(٢٠٧) مظاهر قـلق ذلك الجيل: إن والديـه مثلاً، مع أنهما كانا متـعلمين تعليماً عالياً، لـم يريا أن هناك جدوى من وراء تعليم ابنهـما تعليماً مناسباً، فقد كان من المحتمل أن يمـوت شاباً في ساحة ما من ساحات المعارك. ومثل هذا القلق يصعب أن يشجع قيام أسر كبيرة العدد.

وربما جاز لنا أن نضيف ملاحظتين إلى هـذه التعليقات. إن مارسيل رينهار وزملاءه يعتقـدون أن الفائض السكاني الـفرنسي قد استقـر في القرن السابع عشـر، الزمن الذي كانت فيه فرنسا "ممتلئة كالبيضة"، بحـسب عبارة برانتوم التي سبق لنا الاستشهاد بها.

وما قد نكون بـإزائه هو فائض سكاني طويـل العمر، يسبب ضغطـاً من المرجح أن لا مثيل له في أوروبا. ومن ثـم يصبح منع الحمل استجابة لضـرورة ملحة، شأنه في ذلك شأن خيارات أخرى، كالزواج المتأخر أو العزوبة ـ خاصة في جنوب فرنسا، حيث كان بوسع سلطة كبير العائلة فرضهما.

أمَّا ملاحظتي الثـانية والأخيرة فهي أنه خلال الشطر الأول من الـقرن التاسع عشر، شهدت فرنسـا نمو سكانها بنسبـة ٣٠ في المائة، في حين أن بقـية أوروبا قد زادت في المتوسط بنسبـة ٥٠ في المائة (وقد زاد عدد السكان الإنجليز بنـسبة الضعف). والحال أن فرنسا لـم تكن في موقف جيد حـيال اختبار القوة فـي مستهل القرن التـاسع عشر، والذي تميز في الحالة الفرنسية بمحاولة بطيئة وصعبة وناقصة لتدارك ما فاتها من الناحية الصناعية. وفي عين الـلحظة التي كان سيكون من المفيد فيهـا زيادة معدل المواليد في فرنسا، تعالت أصوات لها وزنها تشجع البلد عـلى التشبث بعاداته المالثوسية. وفي هذا الصدد، يسـتحق الجائزة چان ـ بـاتيست ساي المثـقف، مؤلف مراجع علـم الاقتصاد الـسيـاسي. فـقـد كتـب يقـول: "يـجب تـشـجيـع النـاس عـلى الإدخـار لا عـلـى الإنجاب" (٢٠٨).

الخلاصة: هل كلمة **منع الحمل** هي الكلمة الأنسب لوصف السيرورة الدرامية التي اخترقت تاريخ فـرنسا الحي؟ من المؤكد تمـاماً أن الحياة اليومية في فـرنسا قد شهدت تدهور الزواج المسيحي الـتقليدي بشكله الذي كانت الكنيسـة تريد صونه ـ وهو تدهور طويل كانت له مقدمات أسبق: فالتاريخ الثقافي، بالرغم من بعض الصور الصارخة، لا يأخذ البتة بالفعل شكل انهيال. وما حدث نحـو منعطف القرن الثامن عشر حتى التاسع عشـر كان، **بوجـه عام**، عين ما حدث مؤخراً، ومازال يحدث تـحت أعيننا، مع انهيار الأنماط الزواجية التـي كانت في وقت من الأوقات المعيار الاجتـماعي. وما نراه اليوم هو رفض مجرد الزواج الرسمـي أمام السيد العمدة: قد يكون مناسبـة أقل شعائرية من الزواج في الكـنيسة، إلاَّ أنه يمـثل مع ذلك جميـع القيود والمتـطلبات والعقـبات التي يفرضـها القانون ـ أي الـمجتمع. فـكيف إذاً سوف يتـمكن مجتـمع الغد من مـواجهة واستيعاب **الارتباط الحـر (union libre)**، حيث يحيا الشريكان معاً دون زواج؟ إن الثقافة لا يمكنـها أن تبقى عبر الزمن إلاَّ بالتخلص مـن بعض الموروثات: أولاً الزواج المسيحي، والآن الزواج المدني. فما الذي سوف تود التخلص منه غداً؟

كنت محظوظاً بما يكفي إذ وجدت نفسي على مدار عمري في صف التسامح. وأنا مرتاح لذلك. لكنني لا يسعني أن أنسب لنفسي فضلاً شخصياً في ذلك. فالواقع أنني لم أكتشف المسألة اليهودية مثلاً إلاّ في الجزائر، في عام ١٩٢٣، عندما كنت قد تجاوزت العشرين من عمري بالفعل. وعلى مدار السنوات العشر التالية، في الجزائر أيضاً، كنت أحيا في بلد مسلم حيث تعلمت أن أفهم وأحترم العرب والبربر. وفيما بعد، في عام ١٩٣٥، عندما عشت في البرازيل حيث مارست التدريس لعدة أعوام، قابلت سوداً في مناخ هو، بالنسبة لي، أشبه بمناخ **ذهب مع الريح**. وأنا أعرف جميع البلدان الأوروبية، باستثناء قليل منها، وقد قضيت فيها فترات طويلة جد ممتعة ودون صعوبات.

التسامح والمزيد من التسامح! ذلك هو المطلوب إذا كنا نريد فهم الهجرة البروليتارية الواسعة التي أصبحت فرنسا الآن وجهتها. ونحن بحاجة إلى أن نفهم لماذا تعد هذه المرة مشكلة، في حين أن فرنسا، لأجيال إثر أجيال خلت، قد استقبلت واستوعبت موجات مختلفة من المهاجرين، الذين أغنوا البلد مادياً وثقافياً.

الاستيعاب، إذا كان ممكناً ومقبولاً، هو في رأيي أفضل علاج للهجرة دون آلام.

كان هذا هو السبيل الذي سار عليه جميع أولئك الذين **اختاروا** في الماضي، بشكل فردي أم في مجموعات صغيرة، أن يصبحوا فرنسيين: لاجئون سياسيون، أكانوا إيطاليين هاربين من الفاشية أم إسبان ناجين من الحرب الأهلية، أم روساً بيض في عام ١٩١٧؛ وفنانون وعلماء ومثقفون من كل جنسية. إن هؤلاء المهاجرين، الذين جرى استقبالهم بالأحضان، قد تم استيعابهم بسرعة في نشاطات حضارتنا أو في أركانها الهادئة. ولم يعد أصلهم يميزهم عن جمهرة الشعب الفرنسي. وكثيرون من أولئك الذين كانوا فرنسيين بالتبني كانوا شخصيات محورية في أعظم نجاحات فرنسا: إن ماريا سكلودوفسكا (١٨٦٧ ـ ١٩٣٤)، المولودة في وارسو، قد أصبحت ماري كوري واكتشفت مع زوجها الراديوم في عام ١٨٩٨، وحازت على جائزة نوبل في عام ١٩١١. وقد ولد پابلو پيكاسو (١٨٨١ ـ ١٩٧٣) في مَلَقَا؛ وولد آميديو موديلياني (١٨٨٤ ـ ١٩٢٠) في ليفورنو؛ وولد مارك شاجال في فيتبسك في عام ١٨٨٧؛ وولد يوجين يونسكو في سلاتين، رومانيا، في عام ١٩١٢؛ وجاء حاييم سوتين (١٨٩٥ ـ ١٩٤٤) من ليتوانيا، وما زال الناس يتذكرونه بحبور في مدينة سيريه الصغيرة، التي أقام

فيها ردحاً من الـزمن: لقد اعتاد مسح فرشاتـه على أية ملابس يرتديها، مـما أسفر عن نتائج لا تـنسى. والحال أن الحـديث عن جميع الأجانـب المشاهير الـذين اختاروا أن يكون وطنهم في فـرنسا لا يمكن أن ينتهي. وإذا كانوا أعزاء علـى قلوبنا، فإن ذلك لا يرجع فقط إلى أنهم قـد شرفونا بمآثرهم الشهيرة، بل يرجع أيـضاً إلى أنهم قد اختاروا الانضمام إلينا، وأن يصبحوا فرنسيين شـأن أشهر أبناء وطننا، وإلى أنهم قد أضافوا ظلاً ثرياً آخر إلى ثقافتنا المركبة.

لكن الأهم من الناحية الإحصائية هو موجات الهجرة الجماعية التي شملت إيطاليين في أواخر الـقرن التاسع عـشر وروساً بيضَ بـعد ١٩١٧ وبولونـيين جاءوا إلى مـناجم ومزارع فرنـسا الشمالـية نحو عام ١٩٢٠ ويـهوداً رحلوا عن مـصر عبد النـاصر أو عن الجزائر بعد الاسـتقلال (كان اليهود الجزائريون يحـملون الجنسية الفرنسـية منذ مرسوم كريـميو في عـام ١٨٧١) والـ **pied - noirs**، المستـوطنين الأوروبيين الـذين تركوا الجزائر في عام ١٩٦٢ ودخلوا فرنسا دون ترحـيب رسمي: أكثر من مليون رجل وامرأة وطفل، أصلـهم فرنسي بالطـبع ومن ثم يعودون إلى وطـنهم، لكنهم فـقدوا كل شيء تقريباً، وغالـباً ما كان يجرى تركهم يُصَرِّفـون أمورهم بأنفسهم كالمـهاجرين. وأخيراً، كانت هناك الموجة العظمى للعمال المهاجرين في الستينيات والسبعينيات.

والحال أن الهجرة الواسعة النطاق هي ظاهرة حـديثة بما يكفي في فرنسا: ففي عام ١٨٥١، عشية إعلان الامبراطورية الثانية، كان الأجانـب يمثلون نسبة ١ في المائة فقط من السكان. وبـحلول عام ١٨٧٢، عند بداية الجمـهورية الثالثة، كانت هذه الـنسبة ما تزال ٢ في المائة فقط. وكان البلچيكيون، العاملون في مدن ومناجم وحقول البنجر في الشمال يمثلون نـسبة لا تقل عن ٤٠ في المائة من المهاجرين فـي تلك الأيام، يتلوهم الإيطاليون مباشرة. على أن استيعاب هؤلاء الـمهاجرين، والذين كانوا في الواقع جيراناً أقربين، قـد تحقق بسرعـة كبيرة، خاصة بمـجرد ما أن أدى قانون ٢٦ يونـيو/ حزيران ١٨٨٩ إلى جعل التجنس بـالجنسية الفرنسية أكثر سهـولة. ونحو عام ١٩١٤، "استقر عدد الأجانـب عند ١,١٠٠,٠٠٠ نسـمة، بما يمـثل أقل قليـلاً من ٣ في المـائة من إجمالي السكان" (٢٠٩).

وبعد الحرب الـعالمية الأولى (وحتى قبل أن تـنتهي) كانت فرنسا تشـكو من نقص القوى البشرية، حيث إن الشبان القادرين عـلى العمل بالدرجة الأولى هم الذين ضاعوا في الخنادق. ومـن هنا مجيء موجة ثانيـة من المهاجرين، الذين جـاءوا هذه المرة من

بلدان البحر المتوسط، خاصة إفريقيا الشمالية، التي كانت قد ضُمَّت (في أعوام ١٨٣٠ و١٨٨١ ـ ١٨٨٣ و١٩١١) إلى الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية. وبحلول عام ١٩٣١، كان هناك ٢,٧٠٠,٠٠٠ أجنبي في فرنسا، ٦,٦ في المائة من السكان.

وقد أدى ركود الثلاثينيات ثم الحرب العالمية الثانية إلى هبوط هذا الرقم: ففي عام ١٩٤٦ لم يكن هناك غير ١,٧٠٠,٠٠٠ أجنبي، ٤,٤ في المائة من السكان.

وبعد عام ١٩٥٦ فقط، تشكلت بسرعةِ الموجةُ الثالثةُ للهجرة. وبحلول عام ١٩٧٦، قُدِّرَ عدد المهاجرين بـ ٣,٧٠٠,٠٠٠ نسمة، أي ٧ في المائة من إجمالي السكان. ومن هذا العدد، مثل البرتغاليون نسبة ٢٢ في المائة، والجزائريون ٢١ في المائة والإسبان ١٥ في المائة والإيطاليون ١٣ في المائة والمغاربة ٨ في المائة والتونسيون ٤ في المائة والأتراك ١,٥ في المائة والأفارقة السود ٢,٣ في المائة (الأرقام من تعداد عام ١٩٧٥). وكان معظم هؤلاء المهاجرين من البالغين، الرجال المختارين (كان معدل وفياتهم أقل بكثير من المتوسط الفرنسي). وكان معدل المواليد بين المهاجرين مرتفعاً: فالمهاجرون من بلدان إفريقيا الشمالية الثلاثة تنجب المرأة الواحدة منهم ما بين ٥ و٦ أطفال في المتوسط، والمتوسط بين البرتغاليين ٣,٣ وبين الإسبان ٢,٥ وبين الإيطاليين٢. "في المتوسط، في عام ١٩٧٥، كان هذا المؤشر [معدل الإنجابية] ٣,٣٢ لجميع المهاجرين، في مقابل ١,٨٤ للفرنسيين و١,٩٣ لمجمل السكان المقيمين في فرنسا". إلاَّ أنه بمجرد استقرار المهاجرين في فرنسا، فإن معدل إنجابيتهم، حيثما كان القياس ممكناً، يميل "إلى الهبوط بشكل مواز لمعدل إنجابية الفرنسيين الأصليين"(٢١٠).

ومع الأزمة الاقتصادية خلال السبعينيات، وصلت هذه الموجة الثالثة إلى ذروتها. "هل التوقف المؤقت، بعد عام ١٩٧٤ . . . سوف يتكشف عن مجرد مرحلة عندما يرجع بعض المهاجرين إلى بلادهم، أم أنه سوف يعلن عن انقلاب لاتجاه الهجرة؟ . . . إن تأمل الوضع الديموجرافي العالمي إنما يدفع المرء إلى تحبيذ الافتراض الذي يذهب إلى أن هذا هو مجرد توقف مؤقت"(٢١١).

أياً كان الأمر، فإنني أعتقد أن الهجرة قد طرحت، لأول مرة، على مستوى قومي، نوعاً من مشكلة "كولونيالية"، موقعها هذه المرة في داخل فرنسا. وتترتب على هذه المشكلة آثار سياسية تميل إلى إخفاء تعقيد الأشكال المتبادلة للرفض والتي لا يمكن إنكار وجودها، بالرغم من عظيم الأسف لها. فهل يمكن تحليل هذه المشكلات؟

مشكلة اقتصادية

تمثل كتلة العمال المهاجرين في فرنسا، كما في أماكن أخرى من أوروبا، نسبة ١٠ في المائة من السكان القادرين على العمل. فهل أدت البطالة والأزمة الاقتصادية الحالية إلى تشجيع العداوة لهم من جانب العمال الفرنسيين؟ في بعض الحالات، لا شك في ذلك. ولكن بأقل بكثير مما يوحي به شعار حزب سياسي معين: "١,٥٠٠,٠٠٠ عاطل تعني وجود ١,٥٠٠,٠٠٠ مهاجر زائدين عن الحاجة".

فالواقع أن الغالبية العظمى من العمال المهاجرين إنما تُستَخدَمُ كعمالة رخيصة، مهمتها أداء الأعمال الأقل جدارة أو التي يُنظر إليها بهذا الشكل، وهي أعمال تعزف القوة العاملة "الفرنسية" عن أدائها في تسع حالات من كل عشر. وإذا ما جرى طرد جميع المهاجرين، فسرعان ما سوف يتضح أن العاطلين ومعظمهم فرنسيون، لن يتكالبوا على شغل أدنى درجات السلم التي كان الأجانب يحتلونها من قبل. وهذا يذكرني بتعليق كبير أساقفة فالينسيا عندما دار حديث عن طرد المغاربة غير المرغوب فيهم من إسبانيا في عام ١٦١٠، فقد تساءل: "ولكن من الذي سوف يصنع أحذيتنا؟". وإذا ترك المهاجرون فرنسا، فمن الذي سوف يبني طرقنا، ومن الذي سوف يؤدي أصعب الأعمال في المصانع أو العمل القاسي في مهنة البناء؟ هذه الوظائف لن يضطلع بها رعايا فرنسيون إلاَّ إذا تمكن نظام سلطوي ما من رفع الأجور لهم، بشكل تعسفي وغير حكيم. والواقع أن هذا قد جرت تجربته مؤخراً بالنسبة لزبالي باريس: فالمعدات الجيدة وجداول العمل والأجر الجيد قد أدت كلها بالفعل إلى تجنيد مزيد من العمال الفرنسيين في المهنة.

والحال أن الهجرة، وهي مصدر عمال يحصلون على أدنى الأجور، هي واقع كامن في جميع المجتمعات الرأسمالية. وما يحدث في فرنسا حادث في جميع البلدان الصناعية في أوروبا - حتى في بلجيكا التي تشكو من فائض سكاني، والتي ترسل مهاجرين [بلجيكيين] إلى فرنسا لكنها تستقبل مهاجرين من المغرب؛ بل وفي إيطاليا، التي كانت على مدار مائة عام ترسل موجات متواصلة من المهاجرين [الإيطاليين] إلى الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وما تزال ترسل عمالاً [إيطاليين] إلى ألمانيا وسويسرا، لكنها من جانب آخر تستقبل تونسيين للعمل كصيادين للأسماك في صقلية، جنباً إلى جنب ليبيين واريتريين. وبالمثل، في الولايات المتحدة وكندا، وفي المناطق الصناعية في أمريكا اللاتينية أو استراليا، يجرى تجنيد العمالة غير الماهرة "العضلات لا

أكثر "(٢١٣)، إمَّا من الخارج ("البروليتاريا الخارجية" التي تحدث عنها توينبي، والتي يمكن استغلالها حتى عن بُعد) أو من داخل البلد. وينطبق هذا بالمثل على الاتحاد السوفييتي، حيث لا يعتبر جميع العمال في المراكز الصناعية الكبرى روساً بحال من الأحوال.

والواقع أن الهجرة الأجنبية إنما تشكل استنساخاً وثيقاً تماماً للهجرة الداخلية في فرنسا خلال القرن التاسع عشر، بل وأوائل القرن العشرين. فصناعة ذلك الزمن قد جندت بروليتارييها ـ الذين كانوا يعاملون معاملة أفظع من معاملة بروليتاريي اليوم ـ من بين صفوف المهاجرين من الريف. وفيما بعد، حل محلهم أجانب في المهام الصناعية الأكثر مشقة. كما أن القادمين الجدد قد سدوا أيضاً بعض الثغرات المبكرة في الريف (المهاجرون البولونيون والأكرانيون في الشمال وفي الأين نحو عام ١٩٢٥). ومع النمو الصناعي السريع خلال "السنوات الثلاثين المجيدة" بعد الحرب، تعين تجنيد العمالة الأجنبية من الخارج بشكل مباشر.

وهي قوة عاملة تحيا غالباً في ظروف جد بائسة، كما يمكن التأكد من ذلك للأسف، لو نظرنا إلى أحيائنا الفقيرة وبدروماتنا وبيدونفيلاتنا (مدننا العشوائية). لقد كانت هذه المدن العشوائية ما تزال موجودة في عام ١٩٣٩ على طول الحدود السابقة لتحصينات باريس وهي الآن موجودة في الضواحي الأبعد، والتي تمتد حتى مانت ـ لا ـ جولي. وفي عام ١٩٨٠، كانت **département** الأوت ـ دو ـ سين تضم ٢٢٠,٠٠٠ مهاجر، نحو ١٥ في المائة من إجمالي سكانها. وقد قال عامل بناء جزائري هو محمد نجعي، البالغ من العمر ٥٦ عاماً، والذي عمل في فرنسا على مدار ٣٥ عاماً: "بعد أن بنيت كل هذه البيوت للفرنسيين، أظن أنه سوف يكون من العدل تماماً أن أتمتع أخيراً بشقة مُدَعَّمة"(٢١٥). لكن الشقة المدعمة، والتي تكلف قدراً معيناً من المال، ليست كبيرة بما يكفي لاستيعاب أسرة من ثمانية أو تسعة أطفال. فهل يمكن لمثل هذه الأسر أن تتحمل أعباء منزل من منازل "الطبقة الوسطى"؟ قد تتمثل إحدى الإجابات في بناء بيوت بدلاً من الشقق، لكن ما يُبنى من مثل هذه البيوت ليس كافياً بالمرة لتلبية الطلب. ويتذكر المرء التصريحات المسرفة التي كان يدلي بها في السبعينيات چاك ـ شاپان ـ ديلماس، رئيس الوزراء آنذاك في عهد الرئيس چورج پومپيدو: لقد وعد بهدم البيدونفيلات ـ كما لو أن هذا الإجراء المناسب كان ممكناً في الظروف القائمة. والحال أنه بمجرد هدم مدينة عشوائية سرعان ما تظهر أخرى على

مقربة منها. إنها تتكاثر مثل الـ macumbos أو الـ Favellas في البرازيل - خاصة أن الموجة الثالثة للمهاجرين بعد ١٩٥٦ قد فاجأت فرنسا ولم يكن قد جرى إعداد سكن لهم. فتم اتخاذ ترتيبات بديلة مؤقتة بعيدة عن أن تكون مرضية، وكان القادمون الجدد هم الذين عانوا من ذلك.

والآن وقد انقلبت الموجة الاقتصادية: هل من الإنصاف اتهام القوة العاملة الأجنبية بأنها تشكل عبئاً على الاقتصاد الفرنسي؟ وانتقاد المهاجرين لأنهم يحصلون على إعانة البطالة؟ أو لأن لديهم وفرة من الأطفال، الأمر الذي يسهم في عجز الضمان الاجتماعي؟ الأرجح هو أن مثل هذه الاتهامات جد مسرفة. ولكن حتى إذا كانت صحيحة، فإنها تظل **غير ذات موضوع**. فالمهاجرون الذين عاشوا في فرنسا لوقت طويل قد أسهموا في النمو الاقتصادي الفرنسي، وفي تبرجز قسم من الطبقة العاملة الفرنسية، وفي ارتفاع عام في المستويات المعيشية. وإذا كان على الأمة ككل أن تدفع مقابلاً لذلك اليوم، بشكل أو بآخر، حتى ولو أدى ذلك إلى انخفاض طفيف في القوة الشرائية، فإن ذلك لن يكون أكثر من إحقاق للحق(٢١٦).

المشكلة العنصرية

المشكلة هي أن الأزمة الاقتصادية قد غذت لهب الحقد العنصري. وهو يصبح حاداً بشكل خاص في المناطق التي تتواجد فيها جماعتان متماسكتان - الفرنسيون والأفارقة الشماليون مثلاً - وجهاً لوجه: شريكتان في المحنة غالباً ومضطرتان إلى العيش جنباً إلى جنب، ولكن دون أن تمتزجا بالفعل أبداً ومن ثم تضطران في كل حالة إلى تأكيد خصوصياتهما بشكل عنيف.

إنها مشكلة قديمة، وما تزال باقية معنا. إنها مشكلة **الآخرية**، أي الشعور بأن الوجود الأجنبي هو آخر وتحد لذات ولهوية المرء، وذلك إلى درجة بعيدة بحيث إن هذا الاختلاف الواقعي أو المتخيل يستثير لدى كل من الفريقين عدم ارتياح أو ازدراء أو خوف أو كراهية. فهل لكي نرجد لابد لنا من مقارنة أنفسنا بالآخر؟ لقد أدت النزعة القومية في الماضي إلى إغراق أوروبا في الفُرقة والجنون والوحشية. ونحن الفرنسيين كشفنا عن أسناننا في وجوه الإسبان والإنجليز والألمان - وهم فعلوا الشيء نفسه معنا. وفي عام ١٨١٥: كانت الياقات الحمراء على سترات الضباط البروسيين تمثل "دم الفرنسي"، Franzosen Blut، أو هكذا قيل. ولعل أبشع تعبير صاغته الآخرية هو

تعبير "speak white!" المشحون بالازدراء والذي اعتاد الإنجليز استخدامه عند مخاطبة الكنديين الفرنسيين.

حماقة؟ ربما، لكن كل عصر في التاريخ له جوانبه المخزية وحماقته وتحيزه، وهي أشياء يتقاسمها المعاصرون حتى دون أن يلحظوا ذلك دائماً. إن كتاب ناتانيال فيل الذي يحمل عنوان: **كارل ماركس، عنصرياً**(٢١٧) قد يكون مسلياً، مع أنه لا يمكن مع ذلك أن يكون مقنعاً. فهو يقول إن ماركس يظهر من رسائله وكتاباته في صورة "مؤيد للعبودية": فقد كتب ماركس في مكان ما: "دون العبودية، فإن أمريكا الشمالية، تلك الأمة الأكثر تقدماً، كان بالإمكان أن تتحول إلى مجتمع أبوي" (وهي عبارة يمكن، مع ذلك، تأويلها بأكثر من شكل). كما كان ماركس استعمارياً، ميالاً إلى الإيمان بتفوق البيض على غير البيض. وفي عام ١٨٤٩، عندما انتزع "الأمريكيون" كاليفورنيا من المكسيكيين، كتب يقول: "لا شيء يتحقق أبداً في التاريخ دون عنف... هل يسع أي إنسان القول بأنه أمر سيء أن كاليفورنيا قد انتزعت من المكسيكيين الكسالى، الذين ما كان يمكن لهم أن يعرفوا ماذا يصنعون بها؟". ولكن ما الذي يثبته ذلك؟ إنه يثبت ببساطة أن المرء لا يمكن أن يحيا في عصره دون أن يتأثر به، حتى ولو كان هذا المرء هو كارل ماركس. والحال أن العنصرية لم تسكن فكره، إلاَّ أن من المؤكد أنها قد مسته: فماركس نفسه ما كان يمكن أن يسلم من ذلك وهو يحيا في لندن، المركز المتجبر والامبريالي للعالم. [الاستشهاد الأخير يرجع إلى إنجلس وليس إلى ماركس، راجع السياق كاملاً في: ماركس، **ثورات ١٨٤٨**، لندن، ١٩٧٣، دار نشر بنجوين (بالإنجليزية)، ص ص ٢٢٦ ـ ٢٣٦. ـ المترجم].

بعد هذا الكلام، هل يمكن لأحد أن يصدق بالفعل أن العنصرية لا تسكن بلدنا، أنها لا ترقد، مستترة في الأعماق ربما، لكنها مستعدة لأن تنبثق على السطح مثل بقبقات تخرج من قاع البحر؟

إن نوع الشواهد الذي أوثره حول هذا الموضوع إنما يجيء من الحوادث اليومية ـ وهي أشياء صغيرة عادية تماماً لكنها تتكرر مراراً. وأحد أصدقائي ينتقدني بشدة على هذه العادة التي يقول إنها غير دقيقة علمياً، لكنني مازلت أعتقد أنني محق في ممارستها. ولنترك الحكم للقارىء: إنني أقدم هنا حكايتين أو ثلاث حكايات كنت فيها مشاركاً دون إرادتي، لكنني كنت مشاركاً على أية حال. وهذه الحوادث لها على الأقل ميزة تتفوق بها على كثير من الحوادث التي نقرأ عنها: ميزة أنها ليست عنيفة.

إنني أحيا في حي من أحياء باريس، هو الدائرة الثالثة عشرة، حيث يوجد مهاجرون كثيرون من إفريقيا وآسيا. ذات مساء كنت أنا وزوجتي نمشي بهدوء في اتجاه التقاطع حيث يلتقي شارع شديد الانحدار بشارعنا على زاوية قائمة. والحال أن مراهقاً أسود، في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره، لكن طوله لا يقل عن متر و٨٠سم، يرتدي ثياباً جميلة، جاء مندفعاً إلى التقاطع على مزلجة ذات عجلات، عبر طريقنا تماماً و، دون أن يتوقف، انعطف بسرعة فائقة وعلى مقربة جد شديدة منا. وقد أبديت استغرابي غاضباً ـ مجرد كلمات قليلة: كان المتزلج قد ابتعد بالفعل. لكنه عاد على الفور، وأمطرني بالشتائم، واحتدم غضباً، وهو يصيح: "ولكن دعونا نحيا!". وقد بدا لي هذا الكلام غير عادي، لكنه كرره. إنني مجرد رجعي عجوز، اقترفت ذنب الوجود في طريقه واحتجاجاتي ليست غير عدوان عنصري. وقد حاولت تهدئة نفسي، دون نجاح كبير، بأن أقول لنفسي إن صبياً أبيض على المزلجة يمكن أن يكون فظاً بالدرجة نفسها. وقبل ذلك بعشر سنوات، كان من المحتمل لرد فعلي أن يكون أكثر حدة.

والحكاية الثانية هي أنني كنت جالساً مستريحاً في تاكسي يتبع شركة اشتركت فيها لنحو خمس عشرة سنة. وأنا أعرف السائق جيداً: إنه مارتينيكي، يذكرني بسائقي التاكسيات السود في واشنطون. كان المشوار طويلاً، وقد حدثني عن نفسه، وكيف استطاع توفير قدر من المال بالعزف في فرقة موسيقية في السهرات، وكيف تزوج من امرأة فرنسية وأنجب ثلاثة أطفال، أكد لي أنهم كلهم يتميزون بالوسامة. وأحدهم الآن أصبح طبيب أسنان وله زوجة فنلندية. وقد قال لي مبتسماً ابتسامة عريضة: "ولك أن تتخيل يا سيدي أنني أصبحت جداً لبنت شقراء!". لقد أحببت هذه القصة، قصة المهاجر الذي وجد السعادة، ولسبب ما، عند عودتي ذلك المساء، وهذه المرة في سيارة أجرة تقودها شابة من الشركة نفسها، قررت أن أحكيها لها. إلاّ أنه يبدو أن هذا القرار لم يكن سليماً. فقد ردت بغضب وأمطرت سائقي التاكسيات الأجانب بوابل من الشتائم. وإذ كنت أعرف أنها وزوجها، وهو سائق هو الآخر، لا أطفال لديهما، لم يكن بوسعي أن أقاوم الرغبة في أن أكون صاحب الكلمة الأخيرة، فقلت لها: "ولكن لو كان عندك أطفال، لكان عدد سائقي التاكسيات الأجانب أقل".

وحكايتي الأخيرة قد لا يكون لها معنى إلاّ بالنسبة لي أنا وحدي. كنت أستمع إلى حديث في الراديو مع شابة جزائرية، مقيمة من الجيل الثاني في فرنسا، وهي الآن طالبة، وكانت تصف تعاستها ومشاعر الغضب لديها والمشكلات المتواصلة التي لا مفر

لها من مواجهـتها. وقد قالت هذا كله بفرنـسية ممتازة وجميلة (لا شك أن الـتعليم في المدارس الفرنسية جيد) بحيث إنني قد غمرني فجأة إحساس سار لا شك أنه ليس هناك ما يبرره، بأن النجاح، بالنسبة لها على الأقل، قد أصبح قاب قوسين أو أدنى.

سوف أتوقف هـنا عن الانطباعات الشـخصية. ولا مراء في أن كل واحد مـنا لديه مخزوناً من الحكايات من هذا النوع، وشواهد على العنصرية، تسير عادة في اتجاهين: إن الرفض متبادل وهو يتغذى على تبادل الرفض. وإذا كانت معاداة السامية قد انحسرت بشدة فـي فرنسا مـنذ زمن إدوار دريمـون (١٨٤٤ ـ ١٩١٧)، كاتب الكـتاب السجـالي **فرنـسا اليهـودية** الذي لا يُغتفر، فـإن من المزعج أن نشهد إعادة تأجيجـها كنار تحت الرماد، بينـما تتطور العنصـرية في فرنسا ضد قادمـين جدد آخرين، استيعـابهم أصعب وأعدادهم تتزايد. ومن هنا الحوادث اليومية والمخاطر.

ومع ذلك فكيف يمكن للمرء أن يتحـدث حديثاً جاداً عن "العنصر" في فرنسا. إن شعوب إفريقيا الشمـالية من أصل أبيض والجنوبيين الفرنسيـين تجري في عروقهم دماء ساراسينية وإسبانية وأندلسية. يقول عالم الاجتماع أوجوستين باربارا(٢١٨): "أنظروا إلى الحشد في مترو [باريس] أو في شوارع مدن مثل لـيون أو مارسيليا أو ليل أو جرينوبل. إن التنوع الشديد للوجوه وللأنماط البشرية إنـما يكشف عن الثراء العظيم لهؤلاء السكان ويكشف في الوقت نـفسه عن حماقة أولئك الذين يتحـدثون عن "إبعاد الأجانب". إن السكان الفرنسيون هم نسيج مكون من جماعـات عرقية مختلفة، ومن جماعات سكانية إقليمية مختلفة انضم إليها، في موجات هجرة ترجع إلى أكثر من مائة سنة، أجانب من أوروبا ومن أماكـن أبعد"(٢١٩). كما نجح "مهاجرون" كثـيرون، لزمن طويل، منذ ما قبل التاريـخ حتى التاريخ الحاضر، فـي الاستقرار، دون مصاعب كبيـرة، بين صفوف السكان الفرنسيين، بـحيث يجوز للمرء من الناحية العملية أن يـقول إن كل الفرنسيين ـ إذا ما نظرنا إلى القرون وآلاف السنين السابقـة لزماننا ـ هم أبناء مهاجرين. وفرنسا الآن متنوعة إلى أبعـد حد بالفعل: فهل يمكنهـا ألاَّ تغامر بأن تصبح أكثر تنوعـاً من الناحية البيولوچية؟

مشكلة ثقافية

تبقى مشكـلة أخيرة وحيدة، هي المشكلة الـحقيقية والمزعجة الوحـيدة: المشكلة الثقافية. وما يقوله برنار ستاسي في كتابه الرائـع إنما ينطبق على هذه المسألة بأكثر مما

ينطبق على ما عداها: "إن الصفاء الذهني هو الصفة المفتقدة أكثر من سواها في النقاش الصعب حول الهجرة"(٢٢٠). فهنا أيضاً، ليس من شأن الكلمات التي يجري تقاذفها كأشياء جيدة أو سيئة ـ الدمج، الاستيعاب، الإدراج ـ سوى حجب الواقع.

فالامتزاجات الثقافية ليست سهلة البتة، كما يدل على ذلك المثال اليهودي. وما زلت أذكر أستاذاً للتاريخ في ستراسبورج من زمن بعيد. فعندما كانوا يطلبون إليه أن يرد على شيء ما "باعتباره يهودياً"، كان يجيب: "أنا لست يهودياً، أنا فرنسي". وأنا ميال إلى التصفيق له، لكن سيرج كوستر ربما كان أصدق عندما رد على استطلاع جرى مؤخراً فقال: "إن فرنسا وطني، بلد لغتي وعواطفي. لكنني أشعر حيال [دولة] إسرائيل، التي ليست بلدي، بتعلق لا يموت"(٢٢١). وكنت ذات مرة أتناول العشاء خارج المنزل في براسيري ليب، في عام ١٩٥٨ على ما أظن، مع ريمون آرون: أوضح لي أنه باعتباره يهودياً، كان مضطراً في مناسبات معينة إلى أن يتصرف بشكل معين. فأجبته: ولكن يا ريمون، أنت لست يهودياً، أنت لوريني (حيث إن عائلته، كعائلة قريبه الشهير مارسيل موس، قد جاءت من تلك المقاطعة). وأنا لا أذكر ما إذا كان قد ابتسم لهذا الكلام أم لا، لكنني واثق أنه لم يُجب. وإنه لصحيح أن اليهودي، عندما يواجه حضارات مختلفة تعد في البداية غريبة عنه، فإنه سوف ينجح في تمثلها تماماً، ويصبح مستوعباً تماماً فيها، بينما سوف يلوذ في الوقت نفسه بحضارة كامنة ما تزال عزيزة عليه، ولا يمكنه أن ينفصل عنها إلاً بشكل ناقص، هذا إن انفصل عنها على الإطلاق.

ومع ذلك فليس هناك سوى ١٤ مليون يهودي هم كل يهود العالم، وهم موزعون في مختلف أرجاء العالم (٦٠٠,٠٠٠ في فرنسا، حيث يشكلون أكبر مجموعة خارج الولايات المتحدة). فكيف لم تؤد النجاحات الباهرة التي يحفل بها تاريخ الدياسبورا ـ بولندا في القرن السابع عشر، إيطاليا في القرن الخامس عشر، إسبانيا في القرن السادس عشر، ألمانيا في القرن الثامن عشر، الولايات المتحدة اليوم، البرازيل، فرنسا ـ إلى أي استيعاب حقيقي؟ لماذا لم يجر استيعاب هذه الجاليات اليهودية، خلافاً لأجسام أجنبية أخرى، في واحد أو آخر من البلدان الكثيرة التي عاشت فيها لأزمنة طويلة؟

لعل ذلك يرجع، كما أشار صحافي مؤخراً، إلى أنه "في كل مرة... كانت الجالية اليهودية تبدو فيها بسبيلها إلى الاستيعاب، كان شيء ما يحدث ليذكرها بأصولها، بماضٍ أليم ومعذِّب، في الجيتو"(٢٢٢). ولو كنت قابلت ريمون آرون قبل عام ١٩٣٣ [أي قبل صعود هتلر إلى الحكم في ألمانيا. ـ المترجم]، فهل كان

سيتحدث معي بالشكل الذي تحدث به معي [في عام ١٩٥٨]؟ الأرجح لا. فبعد الهولوكوست، كيف يمكن لأي يهودي، حتى وإن كان يشعر بالصدمة حيال بعض تبديات النزعة القومية الإسرائيلية، أن يعلن عن شعوره هذا على الملأ؟

إن الزيارة التي قام بها الرئيس چيسكار ديستان إلى الشرق الأوسط في عام ١٩٨٠، عندما تحدث مؤيداً للقضية الفلسطينية، قد أثارت في الصحافة واحداً من تلك الانفجارات العاطفية. لقد هددته صحيفة **Tribune juive** بـ "تصويت الناخبين اليهود ضده"، وهو رد فعل سرعان ما قوبل بدوره بوابل من الشتائم والاتهامات التي لا مصدر لها سوى المعاداة السافرة للسامية. ومن حسن الحظ، أنه كانت هناك أيضاً بعض الدعوات إلى التعقل صدرت عن مثقفين على كل من الجانبين؛ لكن الحادثة كانت حادثة كاشفة وذات مغزى.

وقياساً إلى بقاء الشعب اليهودي على مدار قرون، وهو بقاء يشكل معجزة بالفعل، فإن استيعاب الجاليات الأولى من المهاجرين الأجانب إلى فرنسا قد يبدو أنه كان سريعاً إلى أبعد حد. على أن السنوات الأولى كانت صعبة غالباً، وكانت جد أليمة أحياناً. ففي عام ١٨٩٦، لم يكن في فرنسا غير ٢٩١,٠٠٠ إيطالي، لكنهم كانوا يتركزون في الجنوب: ١٠ في المائة في الفار، ١٢ في المائة في بوش - دي - رون، ٢٠ في المائة في آلب - ماريتيم. ,والحال أن هؤلاء الـ "الريطال" [تسمية ساخرة للمهاجرين الإيطاليين. - المترجم]، كما كانوا يسمون، كان يجري اتهامهم علناً بأخذ الخبز من أفواه الفرنسيين، وقد وجدوا أنفسهم معرضين للهجوم. وكانت هناك صدامات عنيفة وجرائم عنصرية، بل وإعدامات من غير محاكمة قانونية في آليس(٢٢٣). وبعد نحو ثلاثين سنة، سنجد أن البولونيين، المتركزين تركزاً ضخماً هم أيضاً، في شمال فرنسا هذه المرة، والمعزولين علاوة على ذلك بحاجز لغتهم، والمقيمين مع بعضهم البعض ومع حرفييهم هم، كانوا هم أيضاً عرضة لعداوة عامة. وفي أي من الحالتين، لم يلعب الدين الكاثوليكي دور الآصرة - على العكس. إن عمال الموانيء من نابولي الذين عبروا للعمل في ميناء مارسيليا كانوا يتعرضون للسخرية - ومن هنا تلقيبهم بالـ **cristos**. والأشكال التي اتخذتها الكاثوليكية البولونية - مثل تقبيل يد القس - قد بدت مضحكة للناس في **département** نور. والكنيسة نفسها جعلت الأمور صعبة بالنسبة لهؤلاء القادمين الجدد الذين كانوا يريدون أن يكون قساوستهم من بني جلدتهم - وإلاّ، كما كانوا يقولون، فكيف يذهبون للاعتراف؟(٢٢٤). وقد أعلن كل مديري الشرطة

آنذاك أن "البولونيين لن يندمجوا أبداً". إلاَّ أنه كانت هناك قوى تعمل في الاتجاه الآخر، خاصة المدارس، وفي بعض الحالات عمل النقابات والأحزاب السياسية (الحزب الشيوعي خاصة بالنسبة للإيطاليين). ومع الجيل الثاني أو الثالث على أية حال، كان الاندماج قد أصبح تاماً. والآن لم يتبق من البلد الأصلي سوى لقب عائلي أو بعض التقاليد العائلية. ويشعر المرء أنه فيما يتعلق بالإسبان وبالبرتغاليين وبالإيطاليين في موجة الهجرة الأخيرة، فيما عدا أولئك الذين يرجعون إلى بلادهم ومعهم مدخراتهم، فإن سيرورة الاستيعاب السريعة هذه نفسها تواصل فعلها.

فلماذا إذاً تبدو الحالة عكس ذلك فيما يتعلق بالمسلمين في فرنسا، ومعظمهم من إفريقيا الشمالية؟ إن المهاجرين من الجيل الثاني هم الذين يواجهون أعظم مشكلة، لكونهم مرفوضين ورافضين هم أنفسهم للاستيعاب الذي كان آباؤهم وأجدادهم قد حققوه في بعض الحالات. وهناك عقبات خطيرة: الانعدام المتبادل للثقة، الخوف، التحيز العنصري، إلاَّ أن هناك أيضاً اختلافات عميقة في المعتقدات والعادات. وما نحن بإزائه هنا ليس امتزاج ثقافات، بل تجاور أو مواجهة ـ كما في الولايات المتحدة، حيث تظل المشكلات الثقافية قائمة، بالرغم من جاذبيات أسلوب الحياة الأمريكي. لكن الوضع في فرنسا أكثر توتراً بكثير وأكثر انعداماً للاستقرار بكثير مما في الولايات المتحدة، وذلك بأشكال أكثر رهافة: لأن فرنسا بلد قديم؛ ولأن البلد الأصلي لضيوفنا هو أيضاً بلد قديم وجار. ولا يحتاج عامل إفريقي شمالي إلاَّ إلى ساعات قليلة يركب فيها الطائرة ويسافر إلى مطار الميزون بلانش في الجزائر العاصمة ثم يتجه إلى القبائل، حيث يرجع إلى عالم طفولته وشبابه وسعادته أو حنينه. أمَّا في أمريكا، فإن المسافة البعيدة جداً عن الوطن ـ عبر المحيط الأطلسي بالنسبة لكثيرين ـ كانت فاصلاً قوياً. والمهاجرون لا يعودون من أمريكا إلاَّ بعد أن يحققوا حظوظهم وأحياناً لا يرجعون حتى بعد أن ينجحوا في ذلك. وعندما هبط هيرنان كورتيس على سواحل المكسيك، أحرق سفنه.

لا اعتراض لديَّ على وجود معابد يهودية أو كنائس أرثوذوكسية في فرنسا ـ ومن ثم فلا اعتراض لديَّ أيضاً على وجود المساجد التي يجري بناء المزيد والمزيد منها ويؤمها الناس. لكن الإسلام ليس مجرد دين، فهو حضارة كاملة عامرة بالحيوية، وهو أسلوب حياة كامل. والحالات التي نقرأ عنها في الصحف ـ الشابة الإفريقية الشمالية التي اختطفها وحبسها اخوتها لأنها أرادت الزواج من شاب فرنسي، مئات الفرنسيات

المتزوجات من جـزائريين واللواتي، بعد الطـلاق، يكتشفن خطف أطفالـهن وإرسالهم إلى الجزائر من جانـب آباء يرون أنهم وحدهم هم الذين لهم كل حـق فيهم - هي أكثر من مجرد مـوضوعات خبرية، فـهي رموز للعقبـة الرئيسية الـتي تواجه المهـاجرين من إفريقيا الشمالية: حضارة مختلفة عن حـضارتهم. لقد اصطدموا بنظام قانوني لا يعترف بقانونـهم، القائم علـى شرع القرآن الأسمى. ولا مراء فـي أن السلطة الأبويـة ووضعية المرأة هما أكبر المـشكلات، لأنهما تتصلان بالأسرة، عين أساس الـمجتمع. وفي كل عام، تتم نحو ٢٠,٠٠٠ زيجة مختلطة، في المتوسط. وزيجتان من كل ثلاث تنتهيان إلـى الـطـلاق(٢٢٥). لأن مثل هذه الـزيجات تميل إلـى أن تتطلب من شـريك أو من الآخر، أو من الاثنين، القـطيعة مع خلفيتهما. إلاّ أنه لا يـمكن أن يحدث إندماج دون زيجات مختلطة.

ومن هنا تردد وعـذاب الجيل الأصغر من الأفارقة الـشماليين الذين يـواجهون زمناً صعباً جداً خلال الأزمة الاقـتصادية في الغرب، ويواجهون العداوة فـي المدن الكبرى. وإذا كانوا غـالباً ما يحوزون الـجنسية الـفرنسية بـحكم مولدهم فـي فرنسا، فإنـهم قد يرفضون الـمواطنة من باب الولاء لـشعبهم أو من بـاب التحدي، والحلم بـالعودة إلى إفريقيا الشمالية - ولكن دون أن يكونوا مؤمنين بذلك تماماً أو حتى راغبين فيه بالفعل.

ومثل هذه النـزاعات الداخلية يمكن أن تـكون قاتلة، وقد حدثت وفـيات لا يمكن لأحد منا أن يتجنب الشعور بالمسئولية عنـها. إن شاباً إفريقياً شمالياً، بعد إلقاء القبض عليه وسجنه في كـليرفو، قد انتحر، تاركاً هذه الرسالة الغـريبة: "إنني أموت كل يوم. وهو مـوت جد مروِّع. إنه أشـبه بسرطـان ينهـشني. إنـني أترككـم مفعمـاً بالكراهـية وبالـحب. الحـب الذي لم أجـده، الحب الـذي لم أنلـه قط، الحـب الذي أردت أن أمنحه". وحتى لو كان الطاهر بن جلّون(٢٢٦) الذي يحكي هذه الحكاية قد أعمل قلمه الأدبي مُجَمِّلاً هذه الرسالة جد الجميلة بالفعل، فما أفدح صرخة اليأس التي تمثلها!

وتتصل حالة أخرى جرى وصفها في صحيفة **Le Monde** باثنين من الفـيتناميين: "لمَّا كانا معزوليـن في مدينة صغيرة في وسط فرنسا، دون عمـل ودون سكن، بعيدين عن سمائهما وعن أرضهما، فقد كانا عاجزيـن عن استجماع الشجاعة اللازمة لمواصلة الحياة. لقد ماتا مرتـين. ونحن [أي الفرنسيين الذين كان يجب علـيهم أن يرحبوا بهما] لا حق لنا في السماح بحدوث ذلك"(٢٢٧).

وبالرغم مـن أن هذه الحوادث المأسـاوية قد تكون محـزنة، إلاَّ أنها، من النـاحية

الإحصائية، تبهت إلى جانب المصير الرهيب للحركيين (الجزائريين الذين خدموا مع القوات الفرنسية خلال الحرب الجزائرية). هناك نحو ٤٠٠,٠٠٠ منهم يقيمون في فرنسا (والإحصاءات لا تعتبرهم مهاجرين لأنهم حصلوا على الجنسية الفرنسية في مقابل الخدمات التي قدموها إلى فرنسا خلال الحرب الجزائرية). فبعد اتفاقات إيفيان (١٩٦٢)، فروا إلى فرنسا هرباً من المذبحة التي كانت مصير الآلاف منهم. وها هم هنا الآن، بعضهم مبعثر كعمال مهاجرين، إلاّ أنهم مستبعدون، خاصة من جانب المهاجرين الجزائريين الآخرين الذين يعتبرونهم "متعاونين [مع المحتل] وخونة". وما زال بعضهم الآخر يحيا في معسكرات الاستقبال في بيا في لو ـ ايه ـ جارون أو سان ـ موريس ـ لاردواز في الجار، "والتي يجب أن نضيف إليها ستاً وثلاثين قرية في الغابات موزعة عبر مجمل أقاليم الغابات في اللوزير والليموزان والفوج"(٢٢٨). وفي الأكواخ التي يحيون فيها متكدسين، يحيا هؤلاء الناس على المعاشات المتواضعة التي يدفعها الجيش، وينجبون أطفالاً عديدين حتى يتسنى لهم الحصول على قدر من المال المخصص للإعانات العائلية. ومن المستحيل بالنسبة لهم أو لأطفالهم أن يعودوا إلى الجزائر. وقد بُذلت وعود في هذا الاتجاه، ولكن هل سوف تُراعى؟ إننا مسئولون عن مصير هؤلاء الناس، بصرف النظر عن أسباب انحيازهم إلى فرنسا التي علقوا عليها آمالهم، دون أن يكونوا مدركين دائماً لما كانوا يفعلونه. وأنا أعترف بأنني أكثر تأثراً بمصيرهم مما بمصير من عداهم. لكن التعاطف ليس عوناً كبيراً في مثل هذه الحالات.

ولكن هل فرنسا هي المذنب الوحيد؟ كما هي الحال دائماً، فإن الأخطاء مشتركة. وهكذا فإن الأفارقة الشماليين الذين عاشوا وقتاً طويلاً بما يكفي في فرنسا وتبنوا الأساليب الفرنسية، وبالأحرى أولئك الذين ولدوا في فرنسا، ربما يقابلون استقبالاً فاتراً عندما يعودون، بشكل مؤقت أو بشكل نهائي، إلى وطنهم. لنستمع إلى الشهادة المؤلمة لطالب جزائري في السادسة والعشرين من عمره مسجل في جامعة ليل: "لا أعرف هل يجب أن أعود إلى الجزائر أم أبقى في فرنسا. قد يبدو الاختيار سهلاً، لكنه أشبه بدعوة إنسان إلى أن يختار بين قدمه اليمنى وقدمه اليسرى. إننا في بلدنا الأصلي، نجد أنفسنا أجانب، ويتم إشعارنا بذلك. وفي البلد الذي جئنا إليه، فإننا أجانب لأننا لا نحمل الجنسية الفرنسية [كان قد ولد في الجزائر] ولأن بشرتنا غامقة"(٢٢٩).

والحال أن الـ **Beurs** (ذلك هو الاسم الذي يسمى به المهاجرون الأفارقة

الشماليون من الجيل الثاني) إنما يشعرون فعلاً بعدم الارتياح، ليس فقط في فرنسا (سواء حصلوا أم لم يحصلوا على الجنسية الفرنسية والتي يحق لهم الحصول عليها) وإنما أيضاً في الجزائر حيث يُنظر إليهم على أنهم أشباه أجانب. فما هو السبب في ذلك؟ أحياناً ما يجري تفسيره بالتفاخر - "مظاهر الترف" التي يبدونها عندما يعودون إلى وطنهم في العطلات، الملابس أو السيارات. وهم أحياناً ما يعبرون عن القرف. فقد جاء على لسان واحد من الـ **Beurs** لدى عودته إلى فرنسا: "ليس هناك ما يؤكل. إن الذهاب إلى هناك هو أشبه بالعودة إلى العصور الوسطى"(٢٣٠). وقال آخر: "إن المشهد هناك جد كئيب، وليس هناك ما يمكن للمرء عمله، والعائلة تراقبك ليل نهار"(٢٣١). كما أن الـ **Beurs** قد يصدمون الناس في بلدهم باعتدائهم، دون وعي منهم أحياناً، على العادات وأنماط السلوك المحلية. وقد قال حسن، الذي زار باريس عدة مرات، لكنه لم يستقر فيها، إنه وجد مجتمع المهاجرين "عفناً"، وأوضح: "إن لنا تقاليد معينة يجب أن تُراعى. أمَّا هناك، في فرنسا، فإنكم تفقدون شخصيتكم... إن الشبان المولودين في فرنسا قد فقدوا بالكامل كل إحساس بالتقاليد... وإذا تحدثنا بصراحة، فلا يمكنني أن أكون واحداً منهم. إنهم يتميزون بالفظاظة في تعاملهم مع آبائهم. أمَّا أنا، فحتى لو كنت في الستين من عمري، فسوف أحترم أبي وأمي". والخلاصة، "كما قال عالم نفس جزائري [إن المهاجرين مشتبه فيهم بوصفهم] ناقلين محتملين لخطر الحداثة والتطور الاجتماعي"(٢٣٢).

ويرد المهاجرون العائدون بشكاوى تخصهم. إذ تذكر شابة جزائرية: "غالباً عندما أمشي في الطريق، يعلِّقُ الرجال بصوت عال أنني لابد أنني مهاجرة، وذلك لمجرد أنني لا أخفض بصري"(٢٣٣). فإلى أي مدى يجب أن يذهب الإنسان حتى يتم قبوله من جديد في الجماعة! إن جميل، وهو شاب في الثانية والعشرين من عمره، تحيا أسرته كلها في فرنسا، قد عاد بمفرده إلى الوطن لأنه، كما يقول، لا يمكنه العيش في أي مكان آخر، فهو يشعر بأنه أمازيغي "حتى النخاع". وهو الآن يدرس الطب في تيزي أوزو: "كانت الأسابيع الأولى جد قاسية، فقد كان عليَّ أن أجاهد حتى يقبلني الطلاب الآخرين. إنني ما زلت أُعامل باعتباري مهاجراً، لكنهم سوف يتوقفون يوماً ما عن معاملتي على هذا الأساس... وفي غضون سنوات قليلة، سوف أصبح طبيباً في عيادة خربة ما، على حساب الدولة. فالأمور أبعد من أن تكون جيدة هنا... [لكنني] أؤمن بما أقدمت عليه؛ إنني أحلم بأن الأمور سوف تسير إلى الأفضل، وأود أن ألعب دوراً

في ذلك" (٢٣٤).

ولكن كم هم الناس الذين يمكنهم استحضار مثل هذه الشجاعة والعزيمة؟ إن عمّار، المولود في سان مور، قد حاول العودة مرتين. ثم تخلى عن المحاولة: "كل ما في الأمر أن ذلك كان خطأ كبيراً. وأنا لست مستعداً لأن أتمزق من جراء ذلك. هناك حديث رسمي كثير عن "إعادة الإدراج"، لكن هذا لا يعني شيئاً. إنهم لا يفعلون شيئاً للترحيب بك أو لمساعدتك. بل إنك لا يمكنك الحصول على دروس في العربية. والناس ليل نهار يسمونك مهاجراً أو باريسياً" (٢٣٥).

إلاً أن من الأرجح أن الحكومة الجزائرية لا حول لها ولا قوة كالحكومة الفرنسية في مواجهة هذه الصدامات الثقافية. في عام ١٩٨٣، طرح موظف شاب في وزارة التخطيط الجزائرية آراءه حول المسألة: إنه لا يتعاطف مع "المهاجرين الذين يكتنزون المال"، والذين لا يعودون إلى الجزائر إلاً بعد "تحقيق ثروة من وراء تجارة العملة"، والذين يصبحون "بورجوازية جديدة، مرتاحة إلى نفسها ولا تُطاق بالمرة". لكنه لا يوافق على "العودة القسرية"، حيث يجري "إرغام البنات المولودات في فرنسا على زيجة مباغتة"، خلال زيارة صيفية. وهو يوضح أن هناك بعض ردود الأفعال غير المفهومة ضد المهاجرين العائدين: "في الجامعة مثلاً، يجري عزل المهاجرين ومقاطعتهم. فالطلاب الآخرون يضايقونهم، أمَّا البنات [العائدات] فهن يعاملن كمومسات لا أكثر ولا أقل. وهؤلاء المهاجرون من الجيل الثاني لا يمكثون عادة أكثر من أسابيع قليلة. وهذا أمر خطير، فنحن بحاجة إلى إناس جدد ذوي أفكار مختلفة. إن شجب العنصرية في فرنسا هو شيء رائع لكن إعادة انتاجها هنا شيء لا يحتمل" (٢٣٦).

فهل من العجيب إذاً أن المناقشات الأخيرة قد كشفت عن مدرستين فكريتين متعارضتين داخل الجالية المسلمة في فرنسا؟

تواصل المدرسة الأولى الدعوة بنشاط وبكفاحية إلى عودة إلى الأصل، إلى القرآن، "إلى الإسلام بوصفه سبيلاً إلى الخلاص". ويرى إدريس اليازامي أن "الدين وحده هو الذي يمكنه أن يجمعنا، كل القادمين من إفريقيا الشمالية، بمن في ذلك أبناء الحركيين"، وهو الشيء الوحيد الذي يمكنه صون "هوية" إفريقية شمالية في وجه الهوية الفرنسية(٢٣٧). لكن "في وجه" يمكن بسهولة تامة أن تتحول إلى "ضد". فهل نحن بإزاء تشجيع للفرنسيين من أصل مسلم على الامتناع عن التصويت، إذ يجري اعتبار المشاركة في الانتخابات نوعاً من الخيانة الثقافية، مصدراً لتنازع بين الواجبات

الدينية بالمعنى الإسلامي والالتزامات التي يمليها القانون الفرنسي، حول مسائل كالطلاق وحقوق الوالدين وما إلى ذلك؟

وهل هذا هو الدور الحقيقي للدين الذي من المؤكد أنه، في مجتمع متعدد الثقافات ومتعدد الأعراق، يجب أن يظل مسألة خاصة تتصل بحقل الإيمان الشخصي والأخلاق الفردية؟ خلال الجدل الذي دار في عام ١٩٨٠، والذي أسلفتُ الإشارة إليه، سنجد أن ليو هامون، في محاولة منه لإعادة الطرفين المختصمين إلى تحكيم العقل، قد حدد ما يعتقد أنها واجبات جميع "الفرنسيين ذوي الديانة اليهودية"؛ وهي تبدو لي مناسبة لأي فرد راغب في العيش في سياق أمة، مثل فرنسا، ليست لها ديانة رسمية. إنه يكتب فيقول: "إن الحق في الاختلاف إنما يتوقف عند النقطة التي لا يتمايز عندها واقع جماعة عن واقع جماعة أخرى. وكل إنسان، في المجتمع الحديث، له ولاءات مختلفة - دينية، فلسفية، مهنية، ثقافية، قومية... إلاَّ أنه مثلما أنه لا يمكن أن توجد غير دولة واحدة في أرض محددة، فإنه لا يمكن أن يوجد بالنسبة للفرد غير ولاء قومي واحد. ولا يمكن تأمين الممارسة الكاملة لحقوق كل فرد وتماسك المجتمع إلاَّ بهذا الثمن... وإذا فكرت خلافاً لذلك، إذا كانت إسرائيل هي الدولة التي أمنحها ولائي الرئيسي، فلن أكون معذوراً إن لم أعش هناك"(٢٣٨).

باختصار، على المرء أن يختار. وهذا بالتحديد هو رأي المدرسة الفكرية الأخرى، كما يظهر بشكل خاص من المناقشات حول مسألة التصويت. ويوضح بلقاسم، البالغ من العمر ٢٦ عاماً، وهو الأمين العام لرابطة العمال الجزائريين في فرنسا: "إننا نعرف أن ٩٠ في المائة من الأفارقة الشماليين في فرنسا سوف يبقون فيها. وسوف يكون شعارنا هو: «مستقبلي هنا، ولذا فسوف أدلي بصوتي هنا»"(٢٣٩). أمَّا سليمان طير، وهو باحث اقتصادي في التاسعة والعشرين من عمره، وقد أنشأ في روبيه مركزاً إفريقياً شمالياً للثقافة وللبحوث وللنشاط، فهو لا يتردد في قول إن معظم المهاجرين "يعتبرون فرنسا اليوم بلدهم الفعلي" وإن فكرة العودة إلى الوطن هي "أسطورة" و"هرب من ذلك الواقع". ولذا يجب عليهم أن يشاركوا بنشاط في الحياة السياسية وأن يمارسوا حقهم في التصويت وأن يتمكنوا من تحصيل "ثقافة حتى يحققوا مواطنة جديدة". وحتى يتسنى لهم ذلك، "يجب أن يختاروا. والحال أن كثيرين جداً من الشباب مغروزون في موقف عدم اختيار"(٢٤٠).

ويكتب چان - فرنسيس هيلد في عدد **L'Evénement du jeudi** هذا نفسه

فيقول: "إن الاختيار، السير في طريق بدلاً من الآخر، هو ما سوف يقرر مجمل المشوار التالي. والـ **Beurs** الشبان أخذوا يدركون أن ورقة الانتخاب تنطوي على آمال أكبر من البحث عن ملاذ في القرآن أو الحلم بالعودة إلى الجزائر". وهو يتخيل زمناً "يشق فيه كثيرون من الـ **Beurs** طريقهم ليصبحوا أساتذة وجرّاحين ورجال أعمال وأعضاء في الجمعية الوطنية وعمداً"، ومن ثم فسوف يكون بوسعهم تكييف علاقاتهم "مع غالبية السكان"(٢٤١).

وأرجو أن يكون محقاً. فعندما يجيء ذلك اليوم، سيكون الأفارقة الشماليون قد أحرزوا انتصاراً لأنفسهم، ومن ثم لنا، وللمجتمع ككل. وأملي في ذلك جد كبير خاصة أن صعود الأصولية في العالم يجعل المرء منزعجاً حتى من أكثر الحملات الدينية إخلاصاً ونزاهة. ومن المؤكد أن فرنسا لم تكف عن أن تكون بلداً مسيحياً، لكنها في هذا الصدد قد أصبحت بلداً متسامحاً وقد خبت الحماسات. لقد مر وقت طويل على مكابدات الفرنسيين من حروب الدين، لكن عدة قرون لم تمح بعد ذكرى بشاعات تلك الأزمنة. فمن الذي يمكنه أن يحتمل رؤية حرب دينية جديدة في فرنسا؟

NOTES

1. Joan ROBINSON, *Hérésies économiques*, 1972, p. 229.
2. Guy BOIS, *Crise du féodalisme*, 1976, p. 16.

Notes du premier chapitre

1. Alfred SAUVY, Lettre du 29 février 1980.
2. Pierre CHAUNU, *La France*, 1982, p. 33.
3. Henri LERIDON et Michel Louis LEVY, « Populations du monde : les conditions de la stabilisation », *in : Population et sociétés*, déc. 1980, n° 42.
4. Ange GOUDAR, *Les Intérêts de la France mal entendus*, 1756, I, pp. 255 et 342.
5. Jean MARKALE, *Le Roi Arthur et la civilisation celtique*, 1976, p. 9.
6. Cité par Gilles DELEUZE et Félix GUATTARI, *Capitalisme et Schizophrénie, L'anti-Œdipe*, 1972, p. 169.
7. Ferdinand LOT, *La Fin du monde antique et le début du Moyen Age*, 1968, pp. 11-13. 1983, pp. 28-29.
8. Colin RENFREW, *Les Origines de l'Europe*, 1983, p. 29.
9. Isaac NEWTON, *The Chronology of Ancient Kingdoms amended, in : Œuvres complètes*, 1779-1785, tome V, cité par C. RENFREW, *op. cit.*, p. 29.
10. C. RENFREW, *ibid.*, p. 282.
11. Sur cette révision radicale, voir C. RENFREW, *ibid.*, Chapitres III, IV, V et *passim.*
12. Gabriel CAMPS, *La Préhistoire*, 1982, pp. 125-140.
13. Gabriel CAMPS, *op. cit.*, p. 54.
14. *Ibid.*, pp. 55 *sq.*
15. Selon la remarque d'André LEROI-GOURHAN, cité par G. CAMPS, *op. cit.*, p. 59.
16. Jean GUILAINE, *La France d'avant la France. Du Néolithique à l'Age de fer*, 1980, p. 14.
17. Henri DELPORTE, « Les premières industries humaines en Auvergne », *in : Préhistoire française.* I, *Les Civilisations paléolithiques et mésolithiques de la France*, 1976, p. 803, p.p. Henri de LUMLEY.
18. H. de LUMLEY, S. GAGNIÈRE, L. BARRAL et R. PASCAL, « La grotte du Vallonet Roquebrune-Cap-Martin (Alpes-Maritimes) », *in :*

Bulletin du Musée d'Anthropologie préhistorique de Monaco, 10, 1963, pp. 5-20.

19. Franck BOURDIER, *Préhistoire de la France*, 1967, pp. 55 *sq.* et *Préhistoire française*, I, *op. cit.*, tableau chronologique, p. 10.
20. On sait que dans un passé extrêmement lointain, la dérive des continents a pu déplacer des continents entiers. Par exemple, l'Inde, jadis rattachée à l'Antarctide, a été finalement percuter l'Eurasie, au nord de l'Equateur et s'y est soudée (le processus a duré 50 millions d'années).
21. H. de LUMLEY, S. GAGNIÈRE, L. BARRAL et R. PASCAL, art. cit.
22. E.W. PFIZENMAYER, *Les Mammouths de Sibérie. La découverte des cadavres de mammouths préhistoriques sur les bords de la Berezovka et de la Sanga-Iourakh*, 1939, *passim* et pp. 17-21.
23. H. de LUMLEY, J. RENAUL-MISKOVSKY, J.-C. MISKOVSKY, J. GUILAINE, « Le cadre chronologique et paléoclimatique du Postglaciaire », *in : La Préhistoire française*. II, *Les Civilisations néolithiques et protohistoriques de la France*, p.p. Jean GUILAINE, *op. cit.*, 1976, p. 3.
24. Marie-Antoinette de LUMLEY, « Les Anténéanderthaliens dans le Sud », *in : La Préhistoire française*, p.p. Henri de LUMLEY, I, *Les Civilisations paléolithiques et mésolithiques de la France*, 1976, p. 547.
25. Jean ABELANET, *Le Musée de Tautavel*, 1982, pp. 32-36.
26. *Ibid.*, pp. 11 et 25.
27. G. CAMPS, *op. cit.*, p. 157.
28. *Ibid.*, pp. 380-381.
29. *Ibid.*, p. 381 et F. BOURDIER, *op. cit.*, pp. 223-224.
30. G. CAMPS, *op. cit.*, pp. 162-176 ; F. BOURDIER, *op. cit.*, p. 208.
31. Philip LIBERMAN, « L'évolution du langage humain », *in : La Recherche*, 1975, pp. 751 *sq.*
32. G. CAMPS, *op. cit.*, pp. 173-174 et 178.
33. F. BOURDIER, *op. cit.*, p. 262.
34. André LEROI-GOURHAN, « L'art paléolithique en France », *in : Préhistoire française*, *op. cit.* I, pp. 741 *sq.* ; G. CAMPS, *op. cit.*, pp. 203-207.
35. Pierre GAXOTTE, *Histoire des Français*, 1951, I, pp. 16-17.
36. G. CAMPS, *op. cit.*, p. 194.
37. G. CAMPS, *op. cit.*, pp. 187-190 ; F. BOURDIER, *op. cit.*, pp. 240-244.
38. F. BOURDIER, *op. cit.*, pp. 249-256.
39. G. CAMPS, *op. cit.*, pp. 229-232.
40. Robert ARDREY, *La Loi naturelle*, 1971, pp. 390-391.
41. J. GUILAINE, *op. cit.*, p. 29.
42. *Ibid.*, pp. 29-30.
43. Raymond RIQUET, « L'anthropologie préhistorique », *in : La Préhistoire française*, pp. Jean GUILAINE, II, 1976, p. 151.
44. J. GUILAINE, *op. cit.*, p. 34.
45. J. GUILAINE, *op. cit.*, p. 37.
46. R. RIQUET, *op. cit.*, p. 140.
47. J. GUILAINE, *op. cit.*, pp. 40 *sq.*
48. On désigne sous ce nom aussi bien les constructions faites d'énormes pierres dressées, comme à Carnac, ou à Stonehenge en Angleterre; que les tombes à toitures en encorbellement, comme celles de l'Ile Longue, en Bretagne, qui utilisent de petites pierres.
49. J. GUILAINE, *op. cit.*, pp. 66-67.
50. J. GUILAINE, *op. cit.*, p. 94 *sq.*
51. J. GUILAINE, *op. cit.*, p. 94.

52. R. RIQUET, *op. cit.*, p. 144.
53. J. GUILAINE, *op. cit.*, pp. 95-96.
54. J. GUILAINE, *op. cit.*, p. 103.
55. Statuette d'ivoire, découverte dans la grotte du Pape, à Brassempouy (Landes).
56. J. GUILAINE, *op. cit.*, pp. 104-105.
57. *Ibid.*, pp. 129-130.
58. *Ibid.*, p. 131.
59. J. GUILAINE, *op. cit.*, p. 149.
60. Le forgeron, dans les sociétés primitives modernes, a toujours été un personnage à part, respecté, généralement redouté.
61. J. GUILAINE, pp. 160-161.
62. *Ibid. op. cit.*, p. 167.
63. *Ibid.*, *op. cit.*, pp. 174 *sq.*
64. *Ibid.*, p. 177.
65. G. RACHET, *op. cit.*, p. 38.
66. J. GUILAINE, *op. cit.*, p. 203.
67. *Ibid.*, p. 241.
68. *Ibid.*, *op. cit.*, pp. 241 *sq.*
69. *Ibid.*, pp. 242 *sq.*
70. *Ibid.*, pp. 248-250.
71. Bien que, récemment, on ait mis en doute qu'il s'agisse bien d'une femme.
72. J. GUILAINE, *op. cit.*, pp. 254-255.
73. Jacques HARMAND, *Les Celtes au second Age du fer*, 1972, pp. 16-17.
74. Venceslas KRUTA, *Les Celtes*, 1976, pp. 68-70.
75. *Ibid.*, pp. 34-35.
76. Barry CUNLIFFE, *L'Univers des Celtes*, 1981, pp. 14-15.
77. Sur l'étonnante civilisation unitaire du Levant au II^e^ millénaire, *cf.* W. CULICAN, *Le Levant et la mer, histoire et commerce*, 1967.
78. Jacques HARMAND, *Les Celtes au second Age du fer*, 1972, p. 15.
79. *Ibid.*, p. 40.
80. *Ibid.*, p. 42.
81. Jules MICHELET, *Histoire de France*, 1876, I, p. 12.
82. J. MICHELET, *op. cit.*, I, p. 15.
83. Jan de VRIES, *La Religion des Celtes*, 1963, p. 14.
84. Henri HUBERT, *Les Celtes et l'expansion celtique jusqu'à l'époque de la Tène*, 1950 ; *Les Celtes depuis l'époque de la Tène et la civilisation celtique*, 1950.
85. Gustave BLOCH, « La Gaule indépendante et la conquête romaine », *in : Histoire de France*, p.p. Ernest LAVISSE, II, 1911, p. 33.
86. Vital-Fleury VIMAL de SAINT-PAL, « Le Celte, homme de cheval », *in : La Cavalerie celtique*, 1952.
87. J. HARMAND, *op. cit.*, p. 80 ; B. CUNLIFFE, *op. cit.*, p. 120.
88. Karl Ferdinand WERNER, *Les Origines*, *in : Histoire de France*, p.p. Jean FAVIER, 1984, I, p. 202.
89. Paul-Henri PAILLOU, *L'Anti-César*, 1965.
90. J. HARMAND, *op. cit.*, pp. 88-89.
91. *Infra*, tome III, Chapitre IV.
92. *Dictionnaire archéologique des techniques*, Éditions de l'Accueil, 1964, II, p. 1008, article « transports ».
93. Alain GUILLERM, *L'Etat et l'espace de la guerre*, 1982, dactylogramme, I, pp. 37 *sq.*, p. 49.
94. G. BLOCH, *op. cit.*, p. 43.

95. Venceslas KRUTA, *Les Celtes*, pp. 112-115.
96. *Ibid.*, p. 105.
97. *Ibid.*, p.p. 102-103 et 108-110.
98. G. BLOCH, *op. cit.*, *in : Histoire de France*, pp. E. LAVISSE, II, p. 42.
99. CICÉRON, *De provinciis consularibus*, 12, cité par G. BLOCH, *op. cit.*, p. 37.
100. G. BLOCH, *op. cit.*, p. 95.
101. Albert GRENIER, « Aux origines de l'économie rurale : la conquête du sol français », *in : Annales d'histoire économique et sociale*, 1930, pp. 32-33.
102. A. GUILLERM, *op. cit.*, p. 66.
103. Pierre BONNAUD, « La ville : deux origines, deux filières », *in : Géographie historique des villes d'Europe occidentale*. Actes du colloque du 10-12 janvier 1981 à l'Université de Paris-Sorbonne, t. I. *Villes et réseaux urbains*, p.p. Paul CLAVAL, 1984, p. 29.
104. Emmanuel de MARTONNE, conférence, à São Paulo, Brésil.
105. Colin RENFREW, *Les Origines de l'Europe*, 1983, p.p. 165-168.
106. Raymond RIQUET, « L'anthropologie préhistorique », *in : La Préhistoire française*, p.p. Jean GUILAINE, II, 1976, pp. 150-151.
107. Ferdinand LOT, *La France des origines à la guerre de Cent Ans*, 5[e] éd. 1941, p. 8.
108. C. RENFREW, *op. cit.*, pp. 133 *sq.*
109. K.F. WERNER, *op. cit.*, p. 71.
110. Louis-René NOUGIER, *Le Peuplement préhistorique*, 1950, p. 65.
111. G. CAMPS, *op. cit.*, pp. 310-311.
112. R. RIQUET, *op. cit.*, p. 146.
113. Cité par Marcel REINHARD, André ARMENGAUD, Jacques DUPAQUIER, *Histoire générale de la population mondiale*, 1968, p. 43.
114. G. BLOCH, *op. cit.*, p. 35.
115. Eugène CAVAIGNAC, cité par Marcel REINHARD, André ARMENGAUD, Jacques DUPAQUIER, *Histoire générale de la population mondiale*, 1968, qui adoptent ce chiffre « assez solidement établi », p. 43.
116. K. F. WERNER, *op. cit.*, p. 167.
117. Jean BERNARD et Jacques RUFFIÉ, *Hématologie géograhique*, 1966, I, cité par M. BORDEAUX, « Voies ouvertes à l'histoire des coutumes par l'hématologie géographique », *in : Annales E.S.C.*, 1969, p. 1275 (carte p. 1282, à titre d'exemple).
118. Robert FOSSIER, *Histoire sociale de l'Occident médiéval*, 1970, p. 22 ; Michel ROBLIN, *Le Terroir de l'Oise aux époques gallo-romaine et franque. Peuplement, défrichement, environnement*, 1978, p. 297.
119. G. BLOCH, *op. cit.*, p. 101.
120. A. GUILLERM, *op. cit.*, p. 44.
121. J. MICHELET, *op. cit.*, I, p. 52.
122. Jérôme CARCOPINO, *César*, 1936, p. 707 ; Camille JULLIAN, *Histoire de la Gaule*, éd. 1971, II, pp. 437-447, pp. 449-452.
123. Gustave BLOCH, *Les Origines. La Gaule indépendante et la Gaule romaine*, *in : Histoire de France*, pp. Ernest LAVISSE, I, 1911, p. 101.
124. *Ibid.*, p. 104.
125. Ferdinand LOT, *La Gaule*, 1947, p. 170.
126. C. JULLIAN, *op. cit.*, pp. 508-509.
127. K.F. WERNER, *op. cit.*, p. 137.
128. A. GUILLERM, *op. cit.*, p. 143.
129. Siegfried Jan DE LAET, « Romains, Celtes et Germains en Gaule septentrionale », *in : Studia historica gandensia*, 1964, p. 92.
130. *Ibid.*, p. 93.

131. Marcel LE GLAY, « Les Gallo-Romains », *in : Histoire de France*, p.p. G. DUBY, 1970, I, p. 114.
132. Maurice BOUVIER-AJAM, *Dagobert*, p. 19 ; Pierre LANCE, *La Défaite d'Alésia, Ses causes dans la société celtique, ses conséquences dans la société française*, 1978, pp. 155 *sq*.
133. André PIGANIOL, *Histoire de Rome*, 1962, p. 273.
134. Jules MICHELET, cité par François GEORGE, *Histoire personnelle de la France*, 1983, p. 91.
135. Pierre LANCE, *op. cit.*, *passim*.
136. Pierre BONNAUD, *Terres et langages. Peuples et régions*, 1981, I, pp. 37-39 et 45. « La situation des Gaulois par rapport au latin au cours du haut Moyen Age rappelle [...] celle de la langue d'oc par rapport au français entre le XVI[e] siècle et nos jours. » Yves FLORENNE, « Les peuples fidèles », *in : Le Monde*, 21 juillet 1983.
137. J. MARKALE, *Le Roi Arthur*, *op. cit.*, p. 24.
138. Jan DE LAET, art. cit., p. 91.
139. Référence égarée.
140. F. LOT, *op. cit.*, p. 69.
141. Karl Julius BELOCH, *Die Bevölkerung der Griechisch-Römischen Welt*, 1886, p. 507.
142. Voir *supra*, note 115.
143. K. J. BELOCH, « Die Bevölkerung im Altertum », *in : Zeitschrift fur Social und Wissenschaft*, II, 1899, pp. 512 et 619. Cet article est d'une quinzaine d'années postérieur à l'ouvrage cité note 141.
144. Robert FOSSIER, *Histoire sociale de l'Occident médiéval*, p. 51.
145. Heinrich BECHTEL, « Städte und Bürger vom 13.-15. Jahrhundert », *in : Wirtschaftsgeschichte Deutschlands*, 1951, p. 256.
146. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...* 1979, I, p. 232.
147. F. LOT, *op. cit.*, p. 397.
148. R. FOSSIER, référence non retrouvée.
149. Jean-Louis VATINEL, *Les Années terribles du III[e] siècle en Gaule*, 1978, p. 17.
150. Lucien MUSSET, « Les Gallo-Romains », *in : Histoire de France*, p.p. Georges DUBY, 1970, I, p. 159.
151. André PIGANIOL, cité par Robert FOSSIER, *Le Moyen Age. I. Les Mondes nouveaux (350-950)*, 1982, p. 33.
152. Michel ROUCHE, « L'éclatement des mondes anciens », *in : Le Moyen Age*, *op. cit.*, I, p. 107.
153. Pierre DOCKES, *La Libération médiévale*, 1979 ; « Révoltes bagaudes et ensauvagement », *in : Sauvages et ensauvagés ; analyse épistémologique, histoire économique*, mars 1980, n° 19, pp. 145 *sq*.
154. M. ROUCHE, *op. cit.*, p. 108.
155. Roger AGACHE, « Détection aérienne des vestiges protohistoriques, gallo-romains et médiévaux dans le bassin de la Somme », *in :* Numéro spécial du *Bulletin de la Société de Préhistoire du Nord*, n° 7, 1970, pp. 179-180.
156. Guillaume FOVET, *Gallia*, supp. 20, 1969.
157. Roger AGACHE, « Archéologie aérienne de la Somme », *in :* Numéro spécial du *Bulletin de la Société de Préhistoire du Nord*, n° 6, 1964, planche 32 : fig. 103 et 104.
158. Monique CLAVEL, *Béziers et son territoire dans l'Antiquité*, 1970, pp. 606-607.

159. Pierre DURVIN, *Essai sur l'économie gallo-romaine dans la région de Creil*, 1972, pp. 9-16.
160. Sidoine APOLLINAIRE, *Lettres*, II, éd. 1970, p. 46 et note 9.
161. Henri DUBLED, « Quelques observations sur le sens du mot *villa* », *in : Le Moyen Age*, 1953, 1-2, pp. 1-9.
162. P. DURVIN, *op. cit.*, p. 68.
163. Lucien GACHON, *La Vie rurale en France*, 1re éd. 1967, 3e éd. 1976, p. 39.
164. Michel ROUCHE, « L'éclatement des mondes anciens », *in : Le Moyen Age*, p.p. R. FOSSIER, *op. cit.*, p. 57.
165. *Ibid.*, p. 59.
166. Marie-Bernadette BRUGUIÈRE, *Littérature et droit dans la Gaule du Ve siècle*, 1974, p. 321 : Lampridius, ami de Sidoine Apollinaire, assassiné par ses esclaves ; le même Sidoine Apollinaire signale l'enlèvement d'une femme, vendue comme esclave au marché de la ville de Clermont.
167. Régine PERNOUD, *in : Histoire du peuple français*, p.p. Louis-Henri PARIAS, I. *Des origines au Moyen Age*, p. 29.
168. Pierre DOCKES, *La Libération médiévale*, 1979, p. 118.
169. P. DOCKES, *Révoltes bagaudes et ensauvagement*, *op. cit.*, pp. 152-154.
170. Henri HUBERT, *Les Celtes depuis l'époque de la Tène et de la civilisation celtique*, 1950, p. 184.
171. Salvien se retira à l'abbaye de Lerins en 420, puis à Marseille où il fut ordonné prêtre en 430. Ce passage est extrait de *De gubernatione Dei* où il présente les Barbares, chargés par Dieu de châtier le monde romain, comme les promoteurs d'une société régénérée.
172. Cité par Robert FOSSIER, *Histoire sociale de l'Occident médiéval*, *op. cit.*, p. 45.
173. M.-B. BRUGUIÈRE, *op. cit.*, p. 53.
174. P. DOCKES, *Révoltes bagaudes et ensauvagement*, *op. cit.*, p. 237.
175. Jan DHONDT, *Le Haut Moyen Age (VIIIe-XIe siècles)*, 1976, pp. 27-28.
176. Hans DELBRÜCK, *Geschichte der Kriegskunst in Rahmen der Politischen Geschichte*, I, 1900, pp. 472 *sq.*
177. Henri PIRENNE, Conférences à Alger, 1931.
178. Lucien ROMIER, *L'Ancienne France des origines à la Révolution*, 1948, p. 45.
179. Ferdinand LOT, « La civilisation mérovingienne », *in : Les Destinées de l'Empire en Occident de 395 à 888*. Première partie : *De 395 à 768. Histoire du Moyen Age*, p.p. Gustave GLOTZ, 1940, p. 383.
180. P. DOCKES, *La Libération médiévale*, *op. cit.*, p. 109.
181. Référence égarée.
182. R. FOSSIER, *Histoire sociale de l'Occident médiéval*, *op. cit.*, pp. 33 *sq.*
183. Paul DUFOURNET, *Pour une archéologie du paysage*, 1978, p. 163.
184. Robert FOLZ, André GUILLOU, Lucien MUSSET, Dominique SOURDEL, *De l'Antiquité au monde médiéval*, 1972, pp. 94-99 et 243.
185. R. FOSSIER, *Histoire sociale de l'Occident médiéval*, *op. cit.*, p. 36.
186. Jean-Louis VATINEL, *Les Années terribles du IIIe siècle en Gaule*, 1969, p. 29.
187. Collection des historiens de France, I, p. 275, cité par Emile LEVASSEUR, *La Population française*, I, 1889, p. 107.
188. Paul-Albert FÉVRIER, *Le Développement urbain en Provence de l'époque romaine à la fin du XIVe siècle (archéologie et histoire urbaine)*, 1964, p. 212.

189. Henri LABROUSSE, *Toulouse antique. Des origines à l'établissement des Wisigoths*, 1968, p. 571.
190. Alexander RÜSTOW, *Ortsbestimmung der Gegenwart*. II, *Weg der Freiheit*, 1952, p. 243.
191. Edmond FREZOULS, « Etudes et recherches sur les villes en Gaule », *in : La Gallia romana*, Actes du colloque de l'Academia Nazionale dei Lincei (Rome, 10-11 mai 1971), 1973, p. 164.
192. M.-B. BRUGUIÈRE, *Littérature et droit...*, *op. cit.*, pp. 391 *sq.*
193. Numa Denis FUSTEL DE COULANGES, *La Monarchie franque*, 5ᵉ éd. 1926, p. 520.
194. Marc BLOCH, « Le problème de l'or au Moyen Age », *in : Annales d'histoire économique et sociale*, V, 1933, p. 18.
195. Etienne SABBE, « L'importation des tissus orientaux en Europe occidentale au haut Moyen Age », *in : Revue belge de philologie et d'histoire*, XIV, 1935, pp. 811 et 1261.
196. François-Louis GANSHOF, « Notes sur les ports de Provence du VIIIᵉ au Xᵉ siècle », *in : Revue historique*, 184, 1938, p. 128.
197. Elyas ASHTOR, *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, 1976.
198. Pierre BONNASSIÉ, *La Catalogne du milieu du Xᵉ à la fin du XIᵉ siècle*, 1975, I, p. 379.
199. Je ne crois pas qu'un réchauffement du climat, à partir du VIIIᵉ siècle, autre explication plausible de dernière heure, nous mette sur la bonne voie des causes et conséquences.
200. Marcel REINHARD, André ARMENGAUD, Jacques DUPAQUIER, *Histoire générale de la population mondiale*, 1968, p.p. 62 et 64 ; Karl Ferdinand WERNER, *Les Origines*, *in : Histoire de France*, p.p. Jean FAVIER, 1984, p. 360.
201. K.F. WERNER, *op. cit.*, p. 302 ; Lucien MUSSET, *in :* R. FOLZ, A. GUILLOU, L. MUSSET, D. SOURDEL, *op. cit.*, pp. 118-120.
202. Lucien MUSSET, « Les migrations barbares », *in : Histoire de France*, p.p. Georges DUBY, I, 1970, p. 165 et Pierre RICHE, « Les temps mérovingiens, VIᵉ-VIIᵉ siècles », *ibid.*, I, p. 171.
203. Renée DOEHAERD, *Le Haut Moyen Age occidental. Economies et sociétés*, 1971, pp. 125-126 et 223-224.
204. *Ibid.*, p. 223.
205. Michel ROUCHE, « L'éclatement des mondes anciens », *in : Le Moyen Age*, p.p. Robert FOSSIER, *op. cit.*, p. 97.
206. Jean-François LEMARIGNIER, *La France médiévale, institutions et société*, 1970, p. 52.
207. Pierre RICHÉ, *op. cit.*, *in : Histoire de France*, p.p. G. DUBY, I, p. 170.
208. Léopold GENICOT, « Aux origines de la civilisation occidentale, Nord et Sud de la Gaule, *in : Miscellanea L. Van der Essen*, 1947, pp. 1 *sq.*
209. *Ibid.*, p. 89.
210. Renée DOEHAERD, *op. cit.*, pp. 90 *sq.*
211. Thomas REGAZZOLA et Jacques LEFEVRE, *La Domestication du mouvement. Poussées mobilisatrices et surrection de l'Etat*, 1981, p. 20.
212. Marc BLOCH, cité par Michel LE MENÉ, *L'Economie médiévale*, 1977, p. 26.
213. Henri PIRENNE, « L'instruction des marchands au Moyen Age », *in : Annales d'histoire économique et sociale*, 1929, p. 18.
214. P. RICHÉ, *op. cit.*, *in : Histoire de France*, p.p. G. DUBY, I, p. 170.
215. *Ibid.*, pp. 180-181.
216. R. FOSSIER, *Histoire sociale de l'Occident médiéval*, *op. cit.*, p. 52.

217. Jan DHONDT, *Le Haut Moyen Age (VIII^e-XI^e siècles)*, traduction française, 1976, p. 73. Sur le traité de Verdun, voir *L'Identité de la France*, I, pp. 282-284 et carte.
218. J. DHONDT, *op. cit.*, p. 75.
219. Jacques MADAULE, *Histoire de France*, 1943, I, p. 77.
220. C'est-à-dire un événement qui a des conséquences à long terme et s'annexe ainsi un temps très supérieur à sa propre durée.
221. Ernst Robert CURTIUS, *La Littérature européenne et le Moyen Age latin*, 1956, p. 23.
222. Nicolas JORGA, *Histoire du peuple français*, éd. en roumain, 1919, p. 93.
223. P. BONNASSIÉ, *op. cit.*, I, p. 131.
224. Robert FOSSIER, *Le Moyen Age*, I. *Les Mondes nouveaux 350-950*, p. 14 ; II. *L'Eveil de l'Europe 950-1250*, p. 7.
225. J. DHONDT, *op. cit.*, pp. 2-3.
226. Fisc : produit des diverses contributions levées dans les provinces de l'Empire romain. Le mot désigne ensuite le domaine particulier du souverain ou de l'Etat et le produit des droits seigneuriaux que le roi percevait comme possesseur ou suzerain des fiefs.
227. Comtes : gouverneurs de provinces qui avaient autorité administrative, judiciaire, financière et militaire. Les *Missi Dominici* ont été établis par Charlemagne pour les surveiller.
228. Honneur. On donnait le nom d'*honor* ou *honos*, sous les Carolingiens, aux terres, revenus ou délégations d'impôt que le roi concédait en forme de bénéfice à ses principaux fonctionnaires pour leur tenir lieu de traitement pendant la durée de leur fonction.
229. Voir supra I, pp. 274-275 et J. DHONDT, *op. cit.*, p. 55.
230. *Ibid.*, p. 55.
231. *Ibid.*, p. 58.
232. Lucien GACHON, *La Vie rurale en France*, 3^e éd. 1976, p. 42.
233. Paul ROLLAND, « De l'économie antique au grand commerce médiéval. Le problème de la continuité à Tournai et dans la Gaule » du Nord, *in : Annales d'histoire économique et sociale*, 1935, VII, pp. 245-284.
234. Anne LOMBARD-JOURDAN, « Du problème de la continuité : y a-t-il une protohistoire urbaine de la France ? », *in : Annales E.S.C.*, 1970, 4, p. 1127.
235. Jacob van KLAVEREN, « Die Wikingerzüge in ihrer Bedeutung für die Belebung der Geldwirtschaft in frühen Mittelalter », *in : Jahrbuch für Nationalökonomie und Statistik*, 1957, Bd.168, H.5/6, pp. 405 *sq.*
236. Maurice LOMBARD, « Mahomet et Charlemagne », *in : Annales E.S.C.*, 1948, n° 2, p. 197.
237. Michel ROUCHE, « La rénovation carolingienne », *in : Le Moyen Age*, I. *Les Mondes nouveaux 350-950*, 1982, p. 371.
238. T. REGAZZOLA et J. LEFEVRE, *op. cit.*, p. 19.
239. *Ibid.*, p. 23.
240. Voir par exemple l'abondante collecte réunie par Renée DOEHAERD, concernant les ventes faites par les villas royales aussi bien que par les seigneurs, les abbayes et les paysans eux-mêmes : *Le Haut Moyen Age occidental*, *op. cit.*, pp. 224-230.
241. Il s'agit de l'*Edictum Pistense* de 864, *in :* Alfred BORETIUS et Victor KRAUSE, *Capitularia regum Francorum*, II, p. 319, *in : Monumenta Germaniae Historica*, 1890.
242. J. DHONDT, *op. cit.*, p. 194.

243. *Ibid.*, p. 36 et pour le commerce à longue distance, pp. 152 *sq.*
244. *Ibid.*, pp. 172-190.
245. *Ibid.*, pp. 160 *sq.*
246. Renée DOEHAERD, *op. cit.*, pp. 103-109.
247. Mozarabes : chrétiens d'Espagne soumis à la domination musulmane.
248. Polyptyque : registre plié en plusieurs parties où l'on inscrivait les états officiels et authentiques des biens et droits d'une abbaye.
249. John RUSSEL, cité par Marcel REINHARD, *in : Histoire générale de la population mondiale*, *op. cit.*, p. 64.
250. Karl Julius BELOCH, « Die Bevölkerung Europas im Mittelalter », *in : Zeitschrift für Socialwissenschaft*, 1900, p. 408.
251. M. ROUCHE, *op. cit.*, pp. 460-461.
252. Sur le concept d'économie-monde, voir : F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, *op. cit.*, III, pp. 12 et *sq.*
253. Henri PIRENNE, *Histoire économique et sociale du Moyen Age*, éd. 1969, p. 20.
254. J. DHONDT, *op. cit.*, p. 183.
255. J. DHONDT, *op. cit.*, p. 189.

Notes du deuxième chapitre

1. Jan DHONDT, *Le Haut Moyen Age (VIII^e-IX^e siècles)*, 1976, p. 186.
2. Guy BOIS, *Crise du féodalisme*, 1976, p. 299.
3. 70 % en Normandie, 64 % en Haute-Provence, 70 % dans le Champsaur, à peu près autant dans la région parisienne. Ces chiffres sont cités par G. BOIS, *op. cit.* pp. 62-63, d'après Edouard BARATIER, *La Démographie provençale du XIII^e au XVI^e siècle*, 81 et 59 ; Alfred FIERRO, « Un cycle démographique : Dauphiné et Faucigny du XIV^e au XIX^e siècle », *in : Annales E.S.C.*, sept.-oct. 1971, pp.-941-949 ; Guy FOURQUIN, *Les Campagnes de la région parisienne à la fin du Moyen Age*, 1964, pp. 364-366.
4. G. BOIS, *op. cit.*, troisième partie : « Les étapes de la crise ».
5. *Cf.* Karl Ferdinand WERNER, *Les Origines*, *in : Histoire de France*, publiée sous la dir. de Jean FAVIER, I, 1984, p. 432.
6. *Ibid.*, p. 431.
7. *Ibid.*, p. 433.
8. *Ibid.*, p. 426. Dès le XI^e siècle dans le Nord de la Bourgogne.
9. La Frise, pays maritime de longue date, intégrée au royaume de Lothaire lors du traité de Verdun en 843, pratiquait le commerce à longue distance de son industrie textile. Jan DHONDT, *Le Haut Moyen Age (VIII^e-XI^e siècles)*, 1976, pp. 143-144.
10. Edouard PERROY, *La Guerre de Cent Ans*, 1945, p. 41.
11. Alleu : héritage tenu en franchise par opposition aux fiefs.
12. Ce « qu'à la fin du XI^e siècle, on commencera d'appeler le « fief », Jean FAVIER, *Le Temps des principautés : de l'an Mil à 1515*, *in : Histoire de France... op. cit.*, II, 1984, p. 22.
13. Charles PFISTER, *Etudes sur le règne de Robert le Pieux (996-1031)*, 1885, pp. 167-168.
14. E. PERROY, *op. cit.*, p. 18.
15. François SIGAUT, « Moulins, femmes, esclaves », *in : Colloque*

Techniques, technologie et histoire dans l'aire méditerranéenne, Aix-en-Provence, 21-23 octobre 1982, à paraître.

16. K.F. WERNER, *op. cit.*, p. 424 ; J. DHONDT, *op. cit.* p. 27.
17. J. DHONDT, *op. cit.* pp. 24-25 et Georges DUBY, *L'Economie rurale et la vie des campagnes de l'Occident médiéval*, 1962, I, pp. 100-102.
18. Sur la formation de ces deux pôles d'activité, *cf.* F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, III, 1979, pp. 78 *sq.*
19. *Ibid.*, p. 77, note 17.
20. Josiah Cox RUSSELL, « Late ancient and medieval population », *in : Transactions of the American Philosophical Society*, 1958, pp. 95 *sq.*, cité par Wilhelm ABEL, *Crises agraires en Europe (XIII^e-XX^e siècle)*, 1973, pp. 35-36.
22. Josiah Cox RUSSEL, art. cit., p. 96.
23. W. ABEL, *op. cit.*, p. 37.
24. G. DUBY, R. MANTRAN, *L'Eurasie... op. cit.* pp. 18-19.
25. *Ibid.*, p. 85.
26. Amédée THALAMAS, *La Société seigneuriale française 1050-1270*, 1951, p. 46, note 18.
27. Marc BLOCH, *Les Caractères originaux de l'histoire rurale française*, I, 1976, pp. 5 et 9.
28. A. THALAMAS, *op. cit.*, p. 43.
29. M. BLOCH, *op. cit.*, I, p. 9.
30. Louis BADRÉ, *Histoire de la forêt française*, 1983, p. 27.
31. E. MOREL, « En Champagne, le bois dont on fait les villages », *in : Marie-France*, octobre 1982.
32. Sur l'importance de l'usage du bois, *cf.* F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...* 1979, I, p. 252.
33. Le Multien, ancienne région de France, entre la Marne et l'Ourcq.
34. L'Orxois, petit pays de la Brie.
35. Pierre BRUNET, *Structure agraire et économie rurale des plateaux tertiaires entre la Seine et l'Oise*, 1960, pp. 430 *sq.*
36. Voir les étonnantes photographies aériennes de Roger Agache, qui révèlent l'emplacement d'anciennes villas gallo-romaines aujourd'hui invisibles, et le village, construit parallèlement à la limite, parfois irrégulière, des terres de la villa. Ce qui suppose une première implantation au temps où l'exploitation existait encore. R. AGACHE, « Archéologie aérienne de la Somme, recherches nouvelles », *Bulletin spécial de la Société de Préhistoire du Nord*, n° 6, 1964, figure 218 ; « Détection aérienne des vestiges protohistoriques gallo-romains et médiévaux dans le bassin de la Somme et ses abords », *ibid.*, n° 7, 1970, figure 637 et figure Q, pp. 210-211.
37. Émile MIREAUX, *Une province française au temps du Grand Roi : la Brie*, 1956, pp. 70 *sq.*
38. P. BRUNET, *op. cit.* p. 434.
39. François JULIEN-LABRUYÈRE, *Paysans charentais, histoire des campagnes d'Aunis, Saintonge et Bas-Angoumois*, I, 1982, p. 43.
40. Guy BOIS, « Population, ressources et progrès technique dans un village du Mâconnais (X^e-XVIII^e siècles) », *in : Des labours de Cluny à la révolution verte*, actes du *Colloque Population-ressources*, 1985, p. 38.
41. Jan DHONDT, *op. cit.*, pp. 115-117 et note p. 330.
42. Jean FAVIER, *Histoire de France*, II : *Le Temps des principautés de l'an Mil à 1515*, 1984, p. 58.
43. *Cf.* F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle... op. cit.*, III, p. 77, note 19.

44 *Ibid.*, p. 77, note 18.
45. J. FAVIER, *op. cit.*, p. 56.
46. Guy BOIS, *Crise du féodalisme*, 1976, p. 264.
47. K.F. WERNER, *op. cit.*, pp. 426-428.
48. *Ibid.*, p. 58.
49. *Ibid.*, p. 60.
50. Pierre CHAUNU, *Le Temps des Réformes*, 1975, p. 77.
51. Robert PHILIPPE, *L'Energie au Moyen Age : l'exemple des pays d'entre Seine et Loire de la fin du Xe siècle à la fin du XVe siècle* (thèse inédite) I, 1980, p. 173.
52. André CHEDEVILLE, *Chartres et ses campagnes, XIe-XIIIe siècles*, 1973, p. 196.
53. *Ibid.*, p. 194.
54. La puissance moyenne d'un moulin étant fixée à 6 HP, l'énergie mise en œuvre est de 120 000 HP, alors que le cheval, animal tracteur, représente 1/7 de HP et l'homme, 0,3 HP, mais il faudrait tenir compte de l'intermittence du travail fourni par l'homme ou le cheval, et aussi de l'intermittence saisonnière de l'activité des moulins.
55. Robert PHILIPPE dans une de nos discussions.
56. Robert PHILIPPE, « Les premiers moulins à vent », *in : Annales de Normandie*, n° 2, juin 1982, p. 100, note : « En 1802, 66 000 moulins à eau, 10 000 moulins à vent ; en 1896, 37 051 moulins à eau et à vent ; en 1921, 20 168. »
57. P. BONNAUD, *op. cit.*, I, p. 18.
58. Même si l'on ne retient pas le chiffre très bas de Russell cité plus haut (6 200 000 habitants), la population au début du XIIe siècle ne peut dépasser un maximum de dix millions, soit une population active d'environ deux millions. En admettant que les 20 000 moulins de cette époque soient l'équivalent de 600 000 travailleurs (voir *supra* et note 54), ils augmenteraient l'activité générale d'environ un tiers. Tout cela hypothétique, mais qui suggère un ordre de grandeur.
59. Témoignage recueilli au hasard d'un voyage de l'intéressé lui-même.
60. R. PHILIPPE, *L'Energie au Moyen Age*, *op. cit.*, I, p. 15.
61. W. ABEL, *op. cit.*, chapitre I, en particulier pp. 49-51.
62. P. CHAUNU, *op. cit.*, p. 13.
63. Léopold DELISLE, *Etudes sur la condition de la classe agricole et l'état de l'agriculture en Normandie au Moyen Age*, 1850, cité par R. PHILIPPE, *op. cit.*, p. 66.
64. Pour plus de détails sur cette première économie-monde européenne, *cf.* F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, III, pp. 74-94.
65. Félix BOURQUELOT, *Etudes sur les foires de Champagne*, 1865 (I, pp. 72-75) ; Robert-Henri BAUTIER, « Les foires de Champagne », *in : Recueils de la Société Jean Bodin*, V, *La Foire*, 1953, p. 14.
66. Michel BUR, « Remarques sur les plus anciens documents concernant les foires de Champagne », *in : Colloque Les Villes, contribution à l'étude de leur développement en fonction de l'évolution économique*, Troyes, octobre 1970, 1972, p. 60.
67. Philippe DOLLINGER, « Le chiffre de la population de Paris au XIVe siècle : 210 000 habitants ou 80 000 habitants ? », *in : Revue historique*, juil.-sept. 1956, pp. 35-44.
68. E. PERROY, *op. cit.*, p. 16. Charles V (1356-1380) construira au-delà des murailles le quartier du Marais.

69. « Georges Suffert fait le point avec Régine Pernoud : des cathédrales à recolorier », *in : Le Point*, 24-30 janvier 1983, pp. 112-122.
70. Ernst CURTIUS, *La Littérature européenne et le Moyen Age latin*, trad. française, 1956, p. 68.
71. *Ibid.* pp. 588-589. Michael Blaunpayn, dit aussi Michel de Cornubie, natif de Cornouailles, fit ses études à Oxford et à Paris.
72. Lando BORTOLOTTI, *Le Città nella storia d'Italia*, 1983, p. 36.
73. Robert FOSSIER, *Le Moyen Age*, III, 1983, p. 55.
74. François SIMIAND distingue la phase A, phase de montée, et la phase B, phase de descente dans les crises cycliques.
75. R. FOSSIER, *op. cit.* p. 21.
76. Guy BOIS, *Crise du féodalisme*, 1976, p. 10.
77. *Ibid.*, p. 11.
78. André CHÉDEVILLE, *Chartres et ses campagnes, XI^e-XIII^e siècles*, 1973, p. 528.
79. R. FOSSIER, *op. cit.*, III, p. 25.
80. Michel BELOTTE, *La Région de Bar-sur-Seine à la fin du Moyen Age*, thèse 1973, p. 37.
81. R. FOSSIER, *op. cit.*, III, p. 44.
82. Robert PHILIPPE, *op. cit.*, I, p. 265.
83. G. BOIS, *op. cit.*, p. 52.
84. *Ibid.*, p. 62.
85. *Ibid.*, p. 299.
86. Adolphe VUITRY, *Etudes sur le régime financier de la France avant la Révolution de 1789*, 1883, II, pp. 295-299, cité par G. BOIS, *op. cit.*, p. 267.
87. Jean-Noël BIRABEN, *Les Hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens*, 1975, I, p. 55.
88. En provenance du Proche-Orient, où la peste n'avait pas disparu comme en Europe (*cf.* note 90).
89. J.-N. BIRABEN, *op. cit.*, I, p. 309.
90. Dans l'Empire ottoman, la peste continuera à sévir, imposant des quarantaines dans tous les ports de la Méditerranée ; comme en Europe, elle disparaîtra complètement, mais vers 1850 seulement. Daniel PANZAC, *La Peste dans l'Empire ottoman 1700-1850*, thèse inédite, Aix-en-Provence, 1982.
91. Jean de VENETTE, *Continuations de Guillaume de Nangis (1300-1368)*, II, éd. 1844, cité par Noël COULET, « Le malheur des temps, 1348-1440 », *in : Histoire de la France*, p.p. Georges DUBY, II, 1971, p. 11.
92. J.-N. BIRABEN, *op. cit.*, p. 159.
93. N. COULET, *in :* G. DUBY, *op. cit.*, II, p. 9.
94. Thomas BASIN, *Histoire de Charles VII*, éd. 1933, pp. 88-89.
95. F. JULIEN-LABRUYÈRE, *op. cit.*, p. 132.
96. Noël COULET, *in* G. DUBY, *op. cit.*, p. 18.
97. Jean FROISSART, *Chroniques*, V (1356-1360), cité par N. COULET, *op. cit.*, p. 14.
98. *Journal d'un bourgeois de Paris (1405-1449)*, éd. 1881, cité par N. COULET, *op. cit.*, p. 32.
99. *Ibid.*, p. 9.
100. Emile LEVASSEUR, *La Population française*, 1891, I, p. 179.
101. N. COULET, *in :* G. DUBY, *op. cit.*, II, p. 28.
102. R. FOSSIER, *op. cit.*, III, p. 65.
103. John DAY, « The Great Bullion Famine of the 15th century », *in : Past and Present*, mai 1978, pp. 3-54 ; « The Question of Monetary

Contraction in late Medieval Europe », in : *Nordisk Numismatik Arsskrift*, 1981, pp. 12-29.

104. F. BOURQUELOT, *op. cit.*, I, p. 190.
105. André LEFEVRE, « Les finances de la Champagne aux XIIIe et XIVe siècles », in : *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*, 1859, p. 69, cité par M. BELOTTE, *op. cit.*, p. 156.
106. Renée DOEHAERD, « Les galères génoises dans la Manche et la mer du Nord à la fin du XIIIe et au début du XIVe siècle », in : *Bulletin de l'Institut Historique belge de Rome*, 1938, pp. 5-76.
107. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, III, p. 123
108. Enrique OTTE, « La Rochelle et l'Espagne. L'expédition de Diego Ingenios à l'île des Perles en 1528 », in : *Revue d'Histoire économique et sociale*, 1959, I, p. 44.
109. F. BRAUDEL, *op. cit.*, III, p. 95.
110. *Ibid.*, pp. 475-477.
111. *Ibid.*, pp. 95 *sq*.
112. Pierre CHAUNU, Georges SUFFERT, *La Peste blanche*, 1976, p. 57.
113. Franck C. SPOONER, *The international Economy and Monetary Movements in France, 1493-1725*, 1972.
114. F. BRAUDEL, *La Méditerranée et le mond...*, *op. cit.*, II, p. 217.
115. Père Roger MOLS, *Introduction à la démographie historique des villes d'Europe du XIVe au XVIIIe siècle*, II, 1955, p. 516.
116. Jean-H. MARIÉJOL, *La Réforme et la Ligue. L'Edit de Nantes (1559-1598)*, t. VI, de l'*Histoire de France*, p.p. Ernest LAVISSE, 1911, pp. 111 *sq*.
117. Pierre GOUBERT, *Beauvais et le Beauvaisis de 1600 à 1730. Contribution à l'histoire sociale de la France du XVIIe siècle*, 1960, p. 30.
118. E. LEVASSEUR, *op. cit.*, *I*, p. 189.
119. E. LE ROY LADURIE, *Les Paysans de Languedoc*, 1966, I, pp. 149-150.
120. *Ibid.*, p. 163.
121. *Ibid.*, p. 189.
122. M. BELOTTE, *op. cit.*, p. 266.
123. *Ibid.* p. 310.
124. Claude HARMELLE, *Les Piqués de l'aigle. Saint-Antonin et sa région (1850-1940)*, 1982, p. 22.
125. Pierre de BRANTÔME, *Œuvres*, IX, éd. 1779, p. 249.
126. Cité par Karl HELLEINER, in : *The Cambridge Economic History of Europe*, éd. E.E. RICH et H.J. HABAKKUK, IV, 1967, p. 24.
127. Omer LUTFI BARKAN, cité par F. BRAUDEL, *La Méditerranée et le monde méditerranéen...*, I, 1982, p. 363.
128. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, I, 1979, pp. 163 *sq*.
129. Cela dépend probablement des régions. En Normandie, par exemple, Guy Bois constate que le plafond atteint vers 1550 est sensiblement inférieur du quart environ à celui de la fin du XIIIe siècle, *op. cit.*, p. 71.
130. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, III, p. 69 ; Guy BOIS, *op. cit.*, p. 10 en donne une saisissante illustration ; en 1473, le Nord de la Normandie est anéanti par les Bourguignons : villages rasés, récoltes totalement brûlées, la désolation est la même qu'un siècle plus tôt, mais cette fois, en pleine reprise économique, tout est réparé en quelques années seulement.
131. André ARMENGAUD, *La Famille et l'enfant en France et en Angleterre du XVIe au XVIIIe siècle*, 1975, p. 81.
132. Oudard COQUAULT, *Mémoires... (1649-1668)*, éd. 1875, I, p. 34.

133. Pierre Goubert, « Le régime démographique français au temps de Louis XIV », *in : Histoire économique et sociale de la France*, p.p. Fernand Braudel et Ernest Labrousse, II, 1970, p. 37.
134. Jean Fourastié, « De la vie traditionnelle à la vie tertiaire », *in : Population*, 1959, n° 3, p. 418.
135. André Armengaud, Jacques Dupaquier, Marcel Reinhard, *Histoire générale de la population mondiale*, 1968, pp. 175-176.
136. *Ibid.* p. 195.
137. F. Braudel, *Civilisation matérielle...*, 1979, I, p. 136.
138. *Histoire de l'Aquitaine*, p.p. Charles Higounet, 1971, p. 303.
139. Alain Croix, *La Bretagne aux XVI^e et XVII^e siècles*, 1981, I, pp. 44-45.
140. F. Braudel, *Civilisation matérielle...*, I, p. 141 et notes 233 et 234.
141. E. Juillard, *La Vie rurale dans la plaine de Basse-Alsace. Essai de géographie sociale*, 1953, pp. 213-215.
142. Earl J. Hamilton, *American Treasure and the Price Revolution in Spain*, 1934.
143. Huguette et Pierre Chaunu, *Séville et l'Atlantique 1504-1650*, 1955-1960.
144. Michel Morineau, *Incroyables Gazettes et fabuleux métaux. Les retours des trésors américains d'après les gazettes hollandaises (XVI^e-XVIII^e siècles)*, 1985.
145. P. Goubert, *Beauvais et le Beauvaisis..., op. cit.*, p. 382 et note 77.
146. Witold Kula, *Théorie économique du système féodal...*, 1970, p. 48
147. Frank Spooner, *The International Economy and Monetary Movements in France 1493-1725*, 1972, p. 306.
148. Karl Julius Beloch, « Die Bevölkerung Europas zur Zeit der Renaissance », *in : Zeitschrift für Sozialwissenschaft*, 1900, pp. 774 et 786.
149. A. Armengaud, J. Dupaquier, M. Reinhard, *op. cit.*, pp. 241-271, 328-339.
150. Charles-Henri Pouthas, *La Population française pendant la première moitié du XIX^e siècle*, 1956 ; P. Goubert, « Les fondements démographiques », *in : Histoire économique et sociale de la France... op. cit.*, II, 1970, pp. 9-84 ; André Armengaud, « Le rôle de la démographie », *in : Histoire économique et sociale de la France... op. cit.*, III$_1$, 1976, pp. 161-238.
151. A. Armengaud, J. Dupaquier, M. Reinhard, *op. cit.*, p. 252.
152. A. Armengaud, *op. cit.*, *in :* F. Braudel et E. Labrousse, *Histoire économique et sociale de la France*, III$_1$, 1976, p. 173.
153. C.E. Labrousse, *La Crise de l'économie française à la fin de l'Ancien Régime et au début de la Révolution*, 1944.
154. B.H. Slicher van Bath, *Yield Ratios 810-1820*, 1963, p. 16.
155. Richard Gascon, « La France du mouvement : les commerces et les villes », *in : Histoire économique et sociale de la France...*, I$_1$, 1977, p. 238, qui cite Machiavel, *Tableau de la France en 1510.*
156. Paul Bairoch, « Les grandes tendances des disparités économiques nationales depuis la révolution industrielle », *in : Regional and International Disparities in Economic Development since the Industrial Revolution*, 7^e congrès international d'histoire économique, 1978, pp. 43-45.
157. L.M. Poussereau, « Changements survenus depuis un siècle dans la condition des bûcherons et des ouvriers forestiers du département de la Nièvre », *in : Bulletin de la Société scientifique et artistique de Clamecy*, 1927, pp. 36-54.
158. Jean-Charles Sournia, *Histoire et médecine*, 1982, p. 236.

159. *Ibid.*, p. 235.
160. Jean BERNARD cité *in :* « Le 28e Congrès d'histoire de la médecine, tromper la mort », *in : Le Monde*, 8 septembre 1982.
161. Emile LITTRÉ, *Journal des débats*, 18 Juin 1856, cité par J.-Ch. SOURNIA, *op. cit.*, p. 237.
162. Claude BERNARD, *Introduction à l'étude de la médecine expérimentale*, cité par J.-Ch. SOURNIA, *op. cit.*, p. 236.
163. Alfred SAUVY, « Préface » à *Demain le Tiers-Monde : population et développement*, n° spécial de la *Revue Tiers Monde*, XXIV, n° 94, avril-juin 1983, p. 236.
164. Alfred SAUVY, *La Population*, 1963, p. 66.
165. A. SAUVY, Notes de lecture *Le Monde*, 14 septembre 1982.
166. John NAISBITT, *Megatrends*, cité par Jacques DUQUESNE, « Spécial 1983-2000, l'agenda du futur », in : *Le Point*, 7 nov. 1983, p. IV.
167. 10 pour mille en 1980, huitième place dans le monde, derrière la Suède, le Japon, la Finlande, la Suisse... avant les États-Unis et l'Allemagne (*Population et Sociétés*, août 1982, n° 160). En 1985, ce chiffre est passé à 8,3 pour mille (*ibid.*, n° 200).
168. Georges VALRAN, *Misère et charité en Provence au XVIIIe siècle*, 1899, pp. 22-23.
169. A. SAUVY, *H. économique de la France entre les deux guerres*, *op. cit.*, II, 1974, pp. 340-341.
170. Ange GOUDAR, *op. cit.*, 1756, I, pp. 271 et 275.
171. Jean AUFFRAY, *Le Luxe considéré relativement à la population et à l'economie*, 1762, pp. 29-30.
172. A. GOUDAR, *op. cit.*, p. 96.
173. Jean NOVI DE CAVEIRAC, *Paradoxes intéressants sur la cause et les effets de la révocation de l'Edit de Nantes, la dépopulation et repopulation du Royaume, l'intolérance civile et rigoureuse d'un gouvernement...*, 1758, p. 253.
174. Denis-Laurian TURMEAU de LA MORANDIÈRE, *Appel des étrangers dans nos colonies*, 1763, p. 21.
175. Chevalier de CERFVOL, *Législation du divorce*, 1770, pp. 62-63.
176. M· MOHEAU, *Recherches et considérations sur la population de la France*, 1778, éd. 1912, p. 258.
177. Père FÉLINE, *Catéchisme*, 1782, p. 11, cité par Jean-Marie GOUESSE, « En Basse-Normandie aux XVIIe et XVIIIe siècles : le refus de l'enfant au tribunal de la pénitence », *in : Annales de démographie historique*, 1973, pp. 255-256.
178. M. MESSANCE, *Nouvelles Recherches sur la population de la France*, 1788, p. 27.
179. Jean-Pierre BARDET, *Rouen aux XVIIe et XVIIIe siècles, les mutations d'un espace social*, I, 1983, p. 263.
180. Guy ARBELLOT, *Cinq Paroisses du Vallage, XVIIe-XVIIIe siècles. Etude de démographique historique*, 1970, p. 225.
181. J.-M. GOUESSE, art. cit., p. 231.
182. *Ibid.*, p. 251.
183. John NICKOLLS (pseudonyme de PLUMARD DE DANGEUL), *Remarques sur les avantages et désavantages de la France et de la Grande-Bretagne par rapport au commerce et autres sources de la puissance des Etats*, 1754, pp. 18-19.
184. Jacques DUPAQUIER, Marcel LACHIVER, « La contraception en France ou les deux malthusianismes », *in : Annales E.S.C.*, 1969, n° 6, p. 1401.
185. J.-P. BARDET, *op. cit.*, p. 265.

186. *Ibid.*, p. 272.
187. Jean GANIAGE, *Trois Villages d'Ile-de-France au XVIIIe siècle*, I.N.E.D., cahier n° 40, 1963, p. 131.
188. Antoinette CHAMOUX et Cécile DAUPHIN, « La contraception avant la Révolution française : l'exemple de Châtillon-sur-Seine », *in : Annales E.S.C.*, 1969, 3, pop. 662-684.
189. Raymond DENIEL et Louis HENRY, « La population d'un village du Nord de la France, Sainghin-en-Mélantois de 1665 à 1851 », *in : Population*, 1965, 4, pp. 563-602. Pour la Vendée, J.-L. FLANDRIN, *Les Amours paysannes (XVIe-XIXe siècles)*, 1975, p. 242.
190. J.-M. GOUESSE, art. cit., p. 232 et note 6.
191. Marquise de SÉVIGNÉ, *Lettres*, I, éd. Pléiade, 1953, pp. 432, 433, 450; *cf.* aussi *La Prévention des naissances dans la famille, ses origines dans les pays modernes*, cahier de l'INED, n° 35, 1960, pp. 156-159.
192. J.-P. BARDET, *op. cit.*, p. 264.
193. Michel de MONTAIGNE, *Les Essais*, éd. Pléiade 1962, I, XIV, p. 58.
194. Textes du XVIe siècle cités par Jean-Louis FLANDRIN, *op. cit.*, pp. 83 et 86.
196. Bricquebec, sept. 1708, cité par J.-M. GOUESSE, art. cit., p. 258.
197. M. de MONTAIGNE, *op. cit.*, I, XXX, p. 196.
198. Pierre de BRANTÔME, *Les Dames galantes*, éd. Maurice RAT, [1917], p. 25, cité par Jean-Louis FLANDRIN, « La vie sexuelle des gens mariés dans l'ancienne société : de la doctrine de l'Église à la réalité des comportements », *in : Communications*, 1982, pp. 108-109.
199. P. DE BRANTÔME, *op. cit.*, pp. 32 et 27-28, cité par Jean-Louis FLANDRIN, « Contraception, mariage et relations amoureuses dans l'Occident chrétien », *in : Annales E.S.C.*, 1969, 6, pp. 1383-1384 et note 4.
200. P. de BRANTÔME, *op. cit.*, pp. 38-39, cité par J.-L. FLANDRIN, art. cit., p. 1385.
201. J.-L. FLANDRIN, « L'attitude à l'égard du petit enfant et les conduites sexuelles dans la civilisation occidentale », *Annales de démographie historique*, 1973, pp. 182 *sq*.
202. Cité par Hélène BERGUES, *La Prévention des naissances dans la famille*, INED, cahier n° 35, 1960, pp. 229-230.
203. M. DE MONTAIGNE, *op. cit.*, I, XIV, p. 62.
204. Alfred SAUVY, « Essai d'une vue d'ensemble », *in : La Prévention des naissances dans la famille, ses origines dans les temps modernes*, *op. cit.*, pp. 389-390.
205. Ferdinand BUISSON, *Souvenirs (1866-1916)*, 1916, pp. 30-32.
206. Sur ce groupe, sa vie et son rôle social au XVIe siècle, *cf.* George HUPPERT, *L'Idée de l'histoire parfaite*, 1973 ; *Bourgeois et gentilshommes. La réussite sociale en France au XVIe siècle*, 1983. Pour la fondation des nouvelles écoles, au XVIe siècle, George HUPPERT, *Public School France in Renaissance*, 1984.
207. Edgar QUINET, *Histoire de mes idées. Autobiographie*, [1878], pp. 78-79.
208. Cité par M. REINHARD, A. ARMENGAUD, J. DUPAQUIER, *Histoire de la population mondiale*, 1968, p. 336.
209. Michel-Louis LEVY, « Les étrangers en France », *in : Population et société*, juillet-août 1980, n° 137. Les chiffres qui précèdent sont empruntés à ce même article.
210. *Ibid.*
211. *Ibid.*
212. Cité par F. BRAUDEL, *La Méditerranée... op. cit.*, II, p. 129.

213. Augustin BARBARA, « Un muscle seulement ? », *in : Le Monde*, 25 juillet 1980.
214. En 1984, aux Etats-Unis, certaines industries de pointe trouvaient plus avantageux, pour réduire leurs coûts, de recourir à l'off-shore manufacturing (en Asie le plus souvent) plutôt qu'à la main-d'œuvre mexicaine.
215. Jean-François DUPAQUIER, « Les familles d'immigrés ne veulent pas jouer les « bourgeois »... mais avec 8 ou 9 enfants, les appartements sociaux leur sont interdits, *in : Le Quotidien de Paris*, 27 mars 1980.
216. C'est ce que pensent d'ailleurs la majorité des Français : selon un sondage du Figaro-Sofres (novembre 1985), 90 % trouvent normal que les immigrés qui cotisent reçoivent allocations de chômage et allocations familiales, bien que 71 % souhaitent le renvoi dans leur pays des immigrés clandestins.
217. Nathaniel WEYL, *Karl Marx, racist*, 1980.
218. Art. cit. *in : Le Monde*, 25 juillet 1980.
219. Ce que confirme une étude biologique réalisée par l'INSERM, à partir de milliers de tests sanguins, tant en ce qui concerne les groupes sanguins que les combinaisons de gènes. Réalisée sur des familles installées dans leur région depuis au moins trois générations, elle prouve « la grande diversité de nos origines ethniques », avec des différences régionales parfois surprenantes, révélatrices de très anciens courants migratoires. Franck NOUCHI, « Une étude biologique démontre le "métissage" du peuple français », *in : Le Monde*, 25 octobre 1985.
220. Bernard STASI, *L'Immigration, une chance pour la France*, 1984, p. 13.
221. « Après les accusations de Begin, les Français sont-ils antisémites ? Oui, dit Serge Koster, qui pense qu'il n'y a pas de discours innocent sur Israël », *in : Le Quotidien de Paris*, 12 août 1982.
222. « Un équilibre sans cesse remis en question », *in : Le Quotidien de Paris*, 2 avril 1980.
223. Jean-François DUPÂQUIER, « Quand les bougnoules étaient ritals... », *in : L'Evénement du jeudi*, 13-19 juin 1985, pp. 48-49, qui se réfère à *L'Emigrazione italiana in Francia prima del 1914*, J.-B. DUROSELLE et E. SERRA, Milan 1978.
224. Jean-François DUPÂQUIER, « Quand les bougnoules étaient polaks... », *in : L'Evénement du jeudi*, 13-19 juin 1985, pp. 50-51.
225. Judith SAYMAL, « Si ma sœur épouse un Français, je la tue ! », *in : L'Evénement du jeudi*, 13-19 juin 1985, pp. 40-41.
226. Tahar BEN JELLOUN, « Les jeunes et la mère amnésique », *in : Le Monde*, 25 juillet 1980.
227. G. LECLERC-COUTEL, « Ne pas mourir deux fois », *in : Le Monde*, 25 juillet 1980.
228. Jean ANGLADE, *La Vie quotidienne des immigrés en France de 1919 à nos jours*, 1976, pp. 105 *sq*.
229. Débat : « Les immigrés parmi nous », *Le Monde*, 19-20 juin 1983.
230. Jean-François MONGIBEAUX, « L'album de voyage de petits maghrébins au Maghreb », *in : Le Quotidien de Paris*, 7 septembre 1982.
231. Enquête en Kabylie de Jacques MAIGNE, « Le double exil des immigrés qui choisissent le "grand retour", *in : Libération*, 7 novembre 1983.
232. Enquête à Alger de Michel AREZKI, « Les émigrés, ces étrangers de l'intérieur », *in : Libération*, 9 novembre 1983.

233. *Ibid.*
234. Enquête en Kabylie de J. MAIGNE, art. cit.
235. *Ibid.*
236. *Ibid.*
237. Jean-François DUPÂQUIER, « L'Islam ou le bulletin de vote ? », *in : L'Evénement du jeudi*, 13-19 juin 1985, pp. 34-38.
238. Léo HAMON, « Une seule appartenance », *in : Le Monde*, 23 mai 1980.
239. J.-F. DUPÂQUIER, art. cit., p. 37.
240. *Ibidem*, J.-F. DUPÂQUIER, « Le pays réel, c'est la france », *ibid.*, p. 41.
241. Jean-Francis HELD, « Comment faire des Français avec du Beur ? », *in : L'Evénement du jeudi*, 13-19 juin 1985, pp. 32-33.

فهرست الأشكال

١ـ توزيع الماموث بين عامي ١٥,٠٠٠ و١٠,٠٠٠ قبل الميلاد ----- 20
٢ ـ التعقد المتزايد للأدوات، ١٥٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠ قبل الميلاد ----- 22
٣ ـ التوزيع الجغرافي لآثار إنسان نياندرتال
(٧٥٠٠٠ ـ ٣٥٠٠٠ قبل الميلاد) ---------------------- 24
٤ ـ فن جدران الكهوف الذي يصور الحيوانات
١٥٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠ قبل الميلاد ---------------------- 26
٥ ـ الجماعات الفلاحية الأولى في فرنسا، من القرن
السادس إلى القرن الخامس قبل الميلاد ---------------------- 31
٦ ـ مناطق الغرين والطمي في أوروبا ---------------------- 33
٧ ـ التوزيع الجغرافي للأضرحة في فرنسا من الألف
الخامسة إلى الألف الثالثة قبل الميلاد ---------------------- 36
٨ ـ المواقع الرئيسية لبدايات العصر النيوليتي
في فرنسا من الألف السادسة إلى الألف الرابعة قبل الميلاد ---------- 37
٩ ـ مواقع الألفين الرابعة والثالثة قبل الميلاد ---------------------- 38
١٠ ـ مواقع عصر البرونز في فرنسا ---------------------- 44
١١ ـ مواقع العصر الأول للحديد (٧٠٠ ـ ٥٠٠ قبل يسوع المسيح) --- 46
١٢ ـ غاليا الكلتية في القرن الثاني قبل يسوع المسيح ------------ 50
١٣ ـ الفتوحات الكلتية (بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد) ----- 52
١٤ ـ غاليا قبل الفتح الروماني ---------------------- 60
١٥ ـ الاستيطان في حوض اللوان في الأزمنة النيوليتية واليوم -------- 64
١٦ ـ فتح قيصر لغاليا (٥٨ ـ ٥٢ قبل يسوع المسيح) ------------ 69
١٧ ـ القنوات الرومانية في ليون ---------------------- 80
١٨ ـ طرق غاليا الرومانية ---------------------- 81
١٩ ـ الشبكة الحضرية في غاليا الرومانية ---------------------- 82
٢٠ ـ غزوات القرن الثالث بعد الميلاد ---------------------- 84
٢١ ـ اقتصاد العالم الروماني ---------------------- 96

٢٢ ـ التوسع الفرانكي ---------------------------- 102
٢٣ ـ غاليا في عهد داجوبير ---------------------------- 104
٢٤ ـ الامبراطورية الكارولينچية ---------------------------- 110
٢٥ ـ فرنسا في ظل آل كاپيه ---------------------------- 129
٢٦ ـ طواحين قديمة على الآندر ---------------------------- 141
٢٧ ـ المدن المتصلة بأسواق شامپانيا
الكبرى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ---------------------------- 144
٢٨ ـ خريطة العمارة القوطية ---------------------------- 146
٢٩ ـ انتشار الطاعون الأسود (١٣٤٧ ـ ١٣٥١) ---------------------------- 154
٣٠ ـ الاقتصاد العالمي الأوروبي في عام ١٥٠٠ ---------------------------- 161

المحتويات

المجلد الثاني: الناس والأشياء

تمهيد 5

الجزء الأول: العدد والتقلبات الطويلة

الفصل الأول: السكان منذ ما قبل التاريخ إلى العام ألف 11

I حول السكان في الأزمنة قبل التاريخية 13

وفرة زمانية (15) - الأجسام والأدوات (19) - من العصر الحجري إلى الزراعة: التغير العظيم (28) - تباين الخواص، التنوع (30) - عصر المعادن (40) - كلتيون أم غاليون: عن حضارتهم بأكثر مما عن تاريخهم (48) - انتصار العدد (61).

II من غاليا المستقلة إلى غاليا الكارولينجية 67

تفسير فتح الرومان لغاليا، إذا كان ذلك ممكناً (68) - أوج غاليا الرومانية في ظل كومودوس (77) - غاليا الرومانية في وجه متاعبها الداخلية وغزوات البرابرة (83) - تمرد من المستحيل إطفاء ناره (85) - ومع ذلك، لا يجب أن ننسى غزوات البرابرة (91) - روما، اقتصاد عالم (95) - غاليا الميروفينجية (100) - هل كانت هناك امبراطورية كارولينجية؟ (108) - مولد أوروبا؛ مولد وتدعيم الإقطاع (112) - غزوات البرابرة الأخيرة (114) - الاقتصاد والسكان (115) - الدورات تنقلب (121).

الفصل الثاني: السكان من القرن العاشر إلى أيامنا 123

I دورة متعددة القرون شبه مكتملة أو الحداثة الأولى لفرنسا ولأوروبا (٩٥٠ - ١٤٥٠) 125

القرن العاشر أو نهاية روما (125) - صعود أوروبا الأولى (130) - فرصة فرنسية: أسواق شامپانيا وبري الكبرى (142) - التوسع الجغرافي: الحملات الصليبية (147) - الطريق الهابط (١٣٥٠ - ١٤٥٠) (148) - الطاعون الأسود وحرب الأعوام المائة (151) -

عودة إلى الاقتصاد العالمي (156) ـ أوروبا ومصير فرنسا (159).

II ١٤٥٠ ـ ١٩٥٠: منحنى صاعد، ويا له من منحنى! 162

مراحل متعاقبة (165) ـ هل يوجد تفسير أو تفسيرات ممكنة للسيرورات الديموجرافية قبل عام ١٨٥٠؟ (174).

III المشكلات الأحدث: انتصارات الطب، الحد من المواليد، الهجرة الأجنبية 177

الطب والصحة العامة (179) ـ الحد من المواليد (183) ـ موقف الكنيسة (191) ـ الحالة الفرنسية (194) ـ الهجرة الأجنبية: مشكلة حديثة (198) ـ مشكلة اقتصادية (201) ـ المشكلة العنصرية (203) ـ مشكلة ثقافية (206).

الحواشي 217

فهرست الأشكال 235

المحتويات 237

رقم الإيداع ٢٨٢٢/ ٢٠٠٠
I.S.B.N.
977-305-196-x

طبع بمطابع المجلس الأعلى للآثار

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت جُ دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
*موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت . محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
محدثات العولمة	مايك فيترستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
هوية فرنسا	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار ڤاليط	ت : رشيد بنحدو
السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : د. أشرف على دعدور

صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
التحليل الموسيقى	سيدريك ثورب ديڤى	ت : سمحه الخولى
فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
پارسيڤال	ريشارد ڤاجنر	ت : مصطفى ماهر
حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى

صاحبة اللوكاندة	كارلوس جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان
موت أرتميد كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر

(تحت الطبع)

الشعر الأمريكى المعاصر
الجانب الدينى للفلسفة
الولاية
المدارس الجمالية الكبرى
مختارات من الشعر اليونانى الحديث
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل
عدالة الهنود
چان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
غرام الفراعنة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
التجربة الإغريقية : حركة الاستعمار والصراع الاجتماعى
العنف والنبوءة
خسرو وشيرين
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)
وضع حد
التليفزيون فى الحياة اليومية
أنطوان تشيخوف

من المسرح الإسبانى المعاصر
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
حكايات ثعلب
شامبوليون (حياة من نور)
الحورية الهاربة
الإسلام فى السودان
العربى فى الأدب الإسرائيلى
آلة الطبيعة
ضحايا التنمية
المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر
أيديولوجى
تاريخ الكنيسة
فن الرواية
ما بعد المعلومات
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
المهلة الأخيرة
الهيولية تصنع علماً جديداً
مدرسة فرانكفورت نشأتها ومغزاها

FERNAND BRAUDEL

L' IDENTITE DE LA FRANCE

Les Hommes et les Choses

★

إن الجزءين اللذين يشكلان المجلد الثانى من كتاب **هوية فرنسا - الناس والأشياء** ، إنما يدوران حول موضوعين ، تجرى دراستهما فى الأمد الطويل : الديموجرافيا ، الاقتصاد .

والجزء الأول ، انطلاقاً من معيار عدد الناس أساساً ، إنما يدرس فرنسا فى أطرها الزمانية الرئيسية . وهكذا تظهر سلسلة من الفرنسات المتعاقبة ، المختلفة والمتشابهة ، السعيدة أو المعذبة ، المحظوظة أو المحرومة ، بحسب التقلبات الطويلة التي أثارت الجماهير الحية للتاريخ الفرنسى ، علي مر العصور .

وإعادة القراءة المنهجية هذه لماضى فرنسا إنما يجرى الاضطلاع بها بدءً من أزمنة ما قبل التاريخ البعيدة إلى أيامنا الحاضرة . إن أشكال التقدم وأشكال التقهقر ، الانطلاقات والانتكاسات ، تتعاقب من غاليا الكلتية في منتصف القرن الرابع عشر إلى الجائحة الديموجرافية المترتبة علي الطاعون الأسود وحرب الأعوام المائة التي أدت ، من عام ١٣٥٠ إلي نحو عام ١٤٥٠ ، إلى اختفاء نصف السكان أو أكثر من نصفهم . وهذا البتر يمزق تاريخ فرنسا بشكل عنيف . وعلى الرغم من المجاعات ، المتكررة أيضاً حتى القرن الثامن عشر ،وبالرغم من الحروب ، وبعضها جد قاتل ، فإن فرنسا لن تعرف بعد كوارث مماثلة . إن عصراً ديموجرافياً جديداً إنما يكفل منذ ذلك الحين فصاعداً تزايداً للسكان ، سريعاً إلى هذا الحد أو ذاك ، منتظماً إلى هذا الحد أو ذاك، بما فيه من توقفات وتقهقرات مؤقتة ، لكنه يعرف بعدُ التوقف عن التواصل منذ خمسة قرون .

إن مشكلات فرنسا اليوم لها أسماء أخري : انخفاض نسبة المواليد قياساً إ... مجموع السكان ، وهو انخفاض عام فى أوروبا لكنه بدأ فى فرنسا فى وقت أس... بكثير مما عند جيرانها - بما يشكل ظاهرة أصيلة يتوجب تفسيرها - ، والهج... إلى فرنسا ، وهى مشكلة ملحة .

ISBN 978-9953-0-2824-8